Hervé Le Tellier

هِرفي لو تلييه

الخَلل

رواية

دار الآداب

PRIX GONCOURT 2020

ترجمة:

محمد آيت حنّا

مكتبة
Telegram Network

«مكتبة ♔ النخبة»

هيرفي لوتلييه

الخَلَل

ترجمة: محمَّد آيت حنَّا

رواية

دار الآداب

وأنا الذي أقول إنَّكِ تحلمين، أنا أيضًا أحلمُ.

(لاو تسو)

المتشائم الحَقُّ يُدرك أنَّ أوان التشاؤم قد فات.

(ڤيكتور ميزل)

I

قَدْرَ سوادِ السماء

(مارس ــ يونيو 2021)

ثمَّة شيءٌ رائعٌ يتجاوز دائمًا المعرفةَ، والذكاءَ، بل وحتى العبقريَّةَ، إنَّه عدمُ الفهم.

الخَلَل،

(ڤيكتور ميِيزل)

بْليك

قتلُ شخصٍ ما، أمرٌ من أهونِ ما يكون. ينبغي أن تُلاحِظَ، تراقبَ، تُفكِّر مليًّا، ثم في اللحظة المناسبة، تحفر الفراغَ. هوَ ذا. تحفر الفراغَ. أن تسعى إلى جعل الكون يتقلَّص، يتقلَّص إلى أن يتركَّز في فوَّهة بندقيَّةٍ أو حدِّ سكِّينٍ. وهذا كلّ ما في الأمر. ألاَّ تتردَّد، ألاَّ تنقاد لغضبك، أن تختار البروتوكول المناسب، وتسلُك بمنهجيَّةٍ. وإنَّ بْليك يُتقن كلّ ذلك، يتقنه منذ أمدٍ بعيدٍ، حتى ما عاد يستطيع أن يتذكَّر متى كانت البدايةُ. بعد البداية، كلّ شيءٍ يأتي من تلقاء نفسه.

إنَّ بْليك يصنع حياتَه من موت الآخرين. ورجاءً، لا داعيَ إلى دروس الوعظ. حين نتحجَّجُ بالأخلاقيَّات، فإنَّ بْليك جاهزٌ ليُجيبَ بالإحصاءات. لأنَّه، - وهذا أمرٌ يأسفُ له بْليك - حين يقصُّ وزيرُ صحَّةٍ من الميزانيَّة، فيحذف آلة سكانير هنا، ومنصبَ طبيبٍ هناك، ووحدةَ إنعاشٍ هنالك... لا بدَّ أنَّ الشكّ يراودُه في أنَّه يقصّر أمدَ حياةِ عددٍ لا بأس به من الناس المجهولين. واللازمةُ معروفةٌ: مسؤولٌ، لكنَّه غيرُ مذنب. أمَّا بْليك، فالأمرُ بالنسبة إليه نقيضُ ما سبق. ثم إنَّه، على أيِّ حالٍ، غير مضطرٍّ إلى تبرير أيِّ شيءٍ، إنَّه لا يأبه للأمر.

ليس القتلُ موهبةً، وإنَّما هو استعدادٌ. أو هو مزاجٌ - إن جاز التعبير. بْليك في الحادية عشرة من عمره، واسمُه ليس بعدُ بْليك. يجلس بجانب أُمّه، في السيَّارة البيجو، على إحدى الطُرق القريبة من بوردو. السيَّارةُ لا تسير بأسرع ممَّا يجب، كلبٌ يعبرُ الطريقَ، بالكاد يهزُّهما المطبُّ، الأُمّ تصيح، تضغط على الفرامل بقوَّةٍ، العربة تزيغ، المحرّك يتوقَّف. ابقَ في السيَّارة يا عزيزي، إلٰهي! ابقَ في السيَّارة. بْليك لا يطيع الأمر، يتبع أُمّه. الكلب من فصيلة الكولي، رماديُّ الوبر، هشَّمت الصدمةُ قفصَه الصدريَّ، دمُه يسيح على جانب الطريق، لكنَّه لم يمت، يئنُّ. أنينُهُ أشبه ما يكون بنواح طفلٍ رضيع. الأُمُّ تركضُ في كلِّ اتِّجاه، مذعورةً، تضع يديْها على عينَيْ بْليك، تتمتم بكلماتٍ لا رابط بينها، تريد أن تتَّصل بالإسعاف.. لكنْ يا ماما، إنَّه كلبٌ، ليس سوى كلب. الكولي يلهث على الإسفلت المتصدِّع، جسده المهشَّم الملتوي يتَّخذُ شكلاً عجيبًا، ترجُّه اهتزازاتٌ ما تنفكُّ تذوي، يُنازع

أمام نظر بْلِيك، وبْلِيك يُراقب بفضولٍ الحياةَ وهي تغادرُ الحيوان. قُضيَ الأمرُ. لكيلا يصدمَ أُمَّه يتظاهرُ الولدُ بالحزن، أو ما يظنُّه حزنًا، لكنَّه في الواقع لا يشعر بشيء. الأمّ تظلُّ هناك، ساكنةً مسمَّرةً، أمام الجثَّة الصغيرة، ينفدُ صبرُ بْلِيك، يسحبُها من كمّها.. ماما، هيَّا، لم يعد البقاء هنا يجدي نفعًا، لقد مات. هيَّا بنا، سوف أتأخَّر عن موعد مباراة كرة القدم.

والقتلُ أيضًا قُدراتٌ. اكتشف بْلِيك أنَّ لديه كلّ القدرات، يومَ اصطحبه عمّه شارل للصيد. ثلاثُ طلقات، ثلاثُ أرانب، ضَربٌ من الهِبة الفطريَّة. يصوّبُ بسرعةٍ وسداد، يعرف كيف يتكيَّف مع أردأ القربينات[1]، وأسوأ البنادق ضبطًا. الصبايا يستدرجنه إلى الملاهي. إيه.. أرجوك، أريد الزرافةَ، الفيلَ، الگيم بُوي. نعم، هيَّا، مرَّةً أخرى! وبْلِيك يوزِّعُ الدباديبَ، وأجهزةَ ألعاب الڤيديو، فيصير مُرعبَ ميادين الرماية... قبل أن يقرّر العمل في الظلّ. يُحبُّ بْلِيك أيضًا ما يلقِّنه إيَّاهُ العمُّ شارل: ذبح الظباء، تقطيع الأرانب. وليكن الأمرُ واضحًا بيننا: إنَّه لا يَجدُ أيّ متعةٍ في القتل، في الإجهازِ على الحيوان المصاب. هو ليس شخصًا منحرفًا. كلاَّ، إنَّ ما يروقُه هو الحركة التقنيَّة، الرتابة التي لا تعتورُها هَنةٌ، والتي تترسَّخُ لفرط التكرار.

بْلِيك في العشرين من عمره، وباسمِه الفرنسيّ جدًّا: ليبوفسكي، أو فارساتي، أو مارتان، سُجِّلَ في المعهد الفندقيّ في إحدى المدن الصغيرة بجبال الألب. وليكن معلومًا، ليس الاختيارُ عشوائيًّا، إذ كان بإمكانه أن يتخصَّص في أيّ شيء، فهو يحبُّ أيضًا الإلكترونيَّات، والبرمجة، وهو موهوبٌ في اللغات، ولنا مَثلٌ في الإنجليزيَّة، إذ لم يحتج أكثر من فترة تدريب - ثلاثة أشهر، لدى لانغز في لندن، لكي يتحدَّث بها بطلاقة تكاد لا تشوبُها لكنة. على أنَّ ما يُفضِّله بْلِيك أكثر من أيّ شيءٍ آخرَ، هو الطبخُ، أن يبتكر وصفةً في أوقات فراغه، الزمنَ الذي يمضي على مهلٍ، حتى أثناء الاضطراب المحموم وسط مطبخٍ، الثواني الطويلة الهادئة التي يقضيها في تأمُّل الزبدةِ تنصهرُ في مقلاةٍ، أو البصلَ الأبيض يسيح، أو انتفاخ كعكةِ سوفليه. يحبُّ روائح البهارات، يحبّ أن يخلق ترتيبًا من الألوان والنكهات في طبق. كان يمكن أن يكون أنجبَ طلاَّب المعهد، لكنْ.. تبًّا يا ليبوفسكي (أو فارساتي، أو مارتان)، لو أنَّك فقط كنت ودودًا مع الزبائن! ليس من ضرر في أن يكون المرء ودودًا. إنَّها مهنةُ خدمةٍ.. خدمة! هل تعي يا ليبوفسكي (أو فارساتي، أو مارتان)!

ذات مساءٍ، في حانةٍ، قال له شخصٌ، وقد تعتَعَهُ السُّكرُ، إنَّه يبحث عمَّن يقتل لأجله شخصًا آخر. لديه قطعًا سببٌ وجيهٌ لذلك، أمرٌ متعلِّقٌ بالعمل، أو بامرأةٍ، سيَّان عند بْلِيك.

- هل تستطيع أن تقوم أنت بالأمر، مقابل المال؟

أجابه بْلِيك:

- أنت أحمق. حقًّا أحمق.

- سأدفع لك، سأدفع كثيرًا.

عرضَ مبلغًا بثلاثة أصفار. انخرط بْلِيك في الضحك.

- كلاَّ. هل تمزح؟

شرب بْلِيك على مهل. أخذ كاملَ وقته في الشرب. انهار الشخص المجهول على البار، فهزَّه بْلِيك.

- اسمع، أعرفُ شخصًا يستطيع القيام بذلك. مقابل ضعف المبلغ. لم يسبق لي أن قابلته. غدًا، أُخبرك كيف تتَّصل به، لكنَّك لن تكلِّمني بعدها أبدًا. أوكي؟

وتلك هي الليلة التي قام فيها بْلِيك باختراع بْلِيك. استلهم الاسمَ من وليام بْلِيك الذي قرأه بعدَ أن شاهد فيلم أنتوني هوبكينز التنِّين الأحمر، ولأنَّه أحبَّ إحدى قصائده: «ثُم أثِبُ في هذا العالم الخطيرِ: عاجزًا، وعاريًا، وصائحًا/ مثل شيطانٍ متوارٍ في غمامة». ثم إنَّ بْلِيك، توليفُ بلاك وليك، أسوَد وبحيرة، اسمٌ شديد الوقع.

ومنذ اليوم التالي، استضافَ سيرفر من أميركا الشماليَّة عنوانَ بريدٍ إلكترونيٍّ يخصّ شخصًا مسمّى blake.mick22. عنوانًا أُنشئَ في مقهى إنترنيت بجنيف. اشترى بْلِيك نقدًا، من عند مجهولٍ، حاسوبًا محمولاً مستعملاً، وحصل على هاتفِ نوكيا قديمٍ، وبطاقةً مسبَّقة الدفع، وآلة تصوير، ومُقرِّبة. فلمَّا تمَّ له التجهُّز، أعطى الطبَّاخُ المتعلِّمُ غريبَ البارِ معلومات الاتِّصالِ بالمدعو «بْلِيك»، «بدون أيّ ضماناتٍ في أنَّ العنوان ما يزالُ يعمل»، وانتظرَ. ثلاثة أيَّامٍ بعد ذلك، أرسل غريبُ البار إلى بْلِيك رسالةً شديدة التعقيد، يُستشَفّ فيها الحذرُ. كان يسألُ. يفتِّش عن العيوب والثغرات. أحيانًا، يترك يومًا يمرُّ بين رسالةٍ وأخرى. يتحدَّثُ بْلِيك مستعملاً كلمات: الهدف، واللوجستيك، والأمد المتوقَّع للتسليم، فيَطمئنُّ الغريبُ إلى حرصِه في انتقاء الكلماتِ. يتَّفقان، فيطالب

بْلِيك بدفعةٍ أولى، نصف المبلغ: رقمٌ بأربعة أصفار. وحين بيَّن له الرجل أنَّه يريد أن يبدو «الموت طبيعيًّا»، ضاعف بْلِيك مطالبَه الماليَّة، وزادَ أمدَ الإنجاز شهرًا. اقتنع الغريب بأنَّه يتعامل مع محترفٍ، فقبل كلّ الشروط.

إنَّها أولى عمليَّات بْلِيك، لذا فإنَّه يؤلِّفُ. ومع أنَّها المرَّة الأولى إلاَّ أنَّه شديد العناية بالتفاصيل، وحذِرٌ ومبتكرٌ إلى أقصى حدّ. لقد شاهد الكثير من الأفلام. لا يمكن تصوُّر مبلغ ما يدين به القتلةُ المأجورون إلى كتَّاب سيناريوهات أفلام هوليود. منذ بداية مساره، حرص على استلام المعلومات حول العقد، والمبلغ المتَّفق عليه، في كيس بلاستيك تُرك في مكانٍ يعيّنُه بنفسه: حافلةٌ، مطعمٌ للأكل السريع، ورش بناء، سلَّة نفايات، حديقةٌ عامَّة. تفادى الأماكن المعزولة جدًّا، حيث لن يُرى غيرُه، أو الأماكن الشديدة الازدحام، حيثُ لن يكون بمقدوره تمييز أحد. سوف يمكث هناك منتظرًا بالساعات، يراقب الأرجاء. يلبس قفَّازات، وسترةً بغطاء رأس، وقبَّعةً، ونظَّارات، ويصبغ شعره؛ تعلَّم كيف يضع شعرًا مستعارًا، وكيف يجوّف خدَّيْه، وينفخهما، وحصل على عشرات ألواح ترقيم السيَّارات، من مختلف البلدان. ومع الوقت، انصرف بْلِيك إلى تعلُّم الرميِ بالسكِّين، رمية - النصف والرمية - الكاملة، على حسب المسافة، وتعلَّم كيف يصنعُ قنبلةً، وكيف يستخلصُ من قنديل البحر سمًّا لا يُكشَف، وصار بمقدوره أن يفكّك ويركِّب في ثوانٍ مسدَّس براوننغ عيار 9 مم، ومسدَّس غلوك عيار 43 مم؛ يشتري أسلحته ويدفع ثمنها بعملة البيتكوين المشفَّرة التي يصعب تتبُّع أثرها. وأنشأ موقعًا في الويب العميق، وصار الإنترنت المظلم بالنسبة إليه بمثابة لهو. على الإنترنت ثمَّة دروسٌ في كلِّ شيءٍ، يكفي أن يبحث المرء.

هدفُه إذن رجلٌ، في نحو الخمسين من عمره، حصل بْلِيك على صورته، وعرف اسمَه، لكنَّه قرَّر تسميته كِن. أجل، كِن، مثل زوجِ الدميةِ باربي. اختيارٌ موفَّقٌ: اسمُ كِن لا يمنح الشخص وجودًا فعليًّا.

كِن يعيش بمفرده، وهذا مناسبٌ جدًّا لبْلِيك، لأنَّ شخصًا متزوّجًا ولديه ثلاثة أطفال لن يكون من السهل تحيُّن فرصةٍ للانفراد به. تبقى فقط مشكلة: في هذه السنّ تقلُّ خيارات الموت الطبيعيّ: حادث سيَّارة، تسرُّب للغاز، أزمة قلبيَّة، حادث سقوط. وليس أكثر. لا يملك بعد بْلِيك مهارة تعطيل المكابح، أو العبث بالمقود، كما لا يعرف كيفيَّة الحصول على كلوريد الصوديوم ليتسبَّب في سكتة قلبيَّة؛ وكذلك ليس مرتاحًا إلى خيار الاختناق بالغاز. لتكن إذن حادثة سقوط. تُخلِّف الحوادثُ المماثلة

عشرةَ آلاف ضحيَّة في السنة. والضحايا خاصَّةً من فئة المسنِّين، لكن ما علينا! وعلى الرَّغم من أنَّ كِن ليس رياضيًّا إلاَّ أنَّ النزالَ مرفوض.

يسكن كِن في شقَّةٍ من ثلاث غرفٍ بالطابق السفليّ في وحدةٍ سكنيَّةٍ ببلديَّة أنيماس. أمضى بْلِيك ثلاثة أسابيع لا يفعل فيها شيئًا سوى الملاحظة، وبلوَرة الخطط. بما استلمه من نقودٍ دفعةً أولى، اشترى شاحنةً صغيرةً قديمةً ماركة رينو، ورتَّبها ترتيبًا سريعًا، فجعل فيها كرسيًّا، وفرشًا، وزوَّدها ببطَّاريَّاتٍ إضافيَّة للإنارة، واستقرَّ بها في موقفٍ مهجورٍ يشرف على المُجمَّع السكنيّ. من الموقف يغوص النظرُ في الشقَّة. كلّ صباحٍ، ينطلق كِن حوالى الثامنة والنصف، يعبر الحدود السويسريَّة، ثم يعود نحو السابعة مساءً. أحيانًا، تأتيه امرأةٌ نهاية الأسبوع، أستاذة لغةٍ فرنسيَّة ببونفيل، على بُعْد عشر محطَّاتٍ من سكنه. الثلاثاء هو أكثر أيَّام كِن انتظامًا طقوسيًّا، وبالتالي الأكثر قابليَّةً للتوقُّع. يعود كِن في وقتٍ أبكر، ويخرج من فوره قاصدًا صالة الرياضة، ثم يعود بعد ساعتيْن، فيظلّ في الحمّام نحو عشرين دقيقة، ثم يتعشَّى أمام التلفاز، ويتسكَّع قليلاً على الإنترنت، ثم يخلد إلى فراشه. ليكن إذن مساءَ ثلاثاء. أرسل إلى زبونه رسالةً وِفق الشفرة التي تواطآ عليها: (الاثنيْن، الثامنة مساءً؟) قبل الموعد بيومٍ، وساعتيْن. سيجد المحرِّضُ ذريعةً يُحصِّنُ بها نفسَه يوم الثلاثاء في العاشرة مساءً.

أسبوعًا قبل اليوم المعلوم، طلب بْلِيك توصيل بيتزا إلى كِن. رنَّ عامل التوصيل الجرسَ، فتح كِن البابَ بلا تردُّد، تحدَّث مندهشًا مع الرجل الذي ما لبث أن انصرف حاملاً علبتَه. لم يكن بْلِيك يحتاج أن يعرف أكثر.

يوم الثلاثاء التالي، أتى بنفسه إلى عتبة باب الشقَّة، حاملاً علبة بيتزا، راقب للحظاتٍ الشارع القفر، انتعل فوق حذائه جرموقًا مانعًا للانزلاق، وتفحَّص قفَّازيْه، ومكث برهةً منتظرًا، حتى يرنَّ الجرسَ في اللحظة التي يُغادر فيها كِن الحمَّام. فتح كِن البابَ بلباس الحمَّام، وزفر وهو يرى علبة البيتزا في يد عامل التوصيل. لكنْ قبل أن يسعفه الوقت لينطق بكلمة، سقطت العلبة الفارغة، وضغط بْلِيك على صدره برأسَي هراوتيْن كهربائيَّتيْن. هوى كِن على ركبته من هول الصعقة. تابعه بْلِيك في سقوطه، وظلَّ يضغط عشر ثوانٍ، حتى كفَّ كِن عن الحركة. يشيرُ صانع الهراوات إلى أنَّها تُطلق ما يعادل ثمانيةَ ملايين فولت، وقد جرَّب بْلِيك على نفسه هراوةً واحدةً فقط، فكاد يغشى عليه. سحب حتى الحمَّام كِن الذي كان لعابه يسيل بينما يئنّ، صعقه صعقةً أخرى بالقياس المناسب، ثم بحركةٍ

فريدةٍ، حركةٍ عنيفةٍ عنفًا مذهلاً، - حركةٍ تمرَّن عليها مرَّاتٍ ومرَّات متوسِّلاً بثمار الجوز - أمسك رأس كِن بين يديْه، فرفعه من صدغيْه، ثم هوى به بكلِّ ما فيه من قوَّةٍ: تهشَّمت الجمجمة على حافَّة الحوض، وانكسر جزءٌ من البلاط لقوَّة الصدمة. وعلى الفور ساح الدمُ، قرمزيًّا لزجًا، مثل طلاء الأظافر، مطلقًا رائحته الزكيَّة، رائحة الصدأ الحارّ، ظلَّ الفمُ مفتوحًا، أبلهَ، والعيْنان جاحظتيْن تُحدِّقان في السقف. فتح بْلِيك الصنبور قليلاً: لم تترك الصعقات الكهربائيَّة أيّ أثر. رتَّب وضعيَّةَ الجسد بقدر ما يستطيع، وِفقَ احتمال المسار الذي يمكن أن تفرضه الجاذبيَّة بعد حادث سقوطٍ مأساويّ.

وإذَّاك، وقد وقف بْلِيك متأمِّلاً صنيعه، استبدَّت به رغبةٌ حارقةٌ في أن يتبوَّل. وما كان ليتخيَّل ذلك البتَّة. إذ ينبغي القول إنَّ القتلة في الأفلام لا يتبوَّلون. وكانت الرغبة حارقةً حتى إنَّه فكَّر في أن يتبوَّل في وعاء المرحاض، وإن اضطرَّ بعدها إلى التنظيف جيّدًا. لكنْ لو أنَّ رجال الشرطة أبدوا ولو قليلاً من الذكاء، أو قاموا بعملهم تلقائيًّا، فاتَّبعوا الإجراءات منهجيًّا، فسوف يعثرون على الحمض النوويّ، بالتأكيد. على أيِّ حالٍ، هذا ما فكَّر فيه بْلِيك. ورغم مثانته التي كانت تتوسَّل إليه، أكملَ تنفيذ خطَّتِه متجهِّمًا من أثر الآلام. أخذ قطعة صابون، فضغط بها بقوَّة على عقب كِن، وسحقها راسمًا بها أثرًا على الأرض، ثم رمى بها في الاتِّجاه الذي يفترض بها أن تسلكه عقب الانزلاق: ارتدَّت قطعةُ الصابون واستقرَّت خلف المرحاض. تمام. سوف يسعد المحقِّق حين يجدها، ويفرح بحلِّ اللغز. ضبط بْلِيك حرارة ماء الحمَّام في درجتها القصوى، ثم فتح رشَّاش الماء، ووجَّهه إلى وجه الجثَّة وجذعها، متجنِّبًا أيّ اتِّصالٍ بالماء الساخن، ثم خرج من الحمَّام.

هُرع بْلِيك إلى النافذة، أغلق الستائر، تفحَّص المكان مرَّةً أخيرة. ما من دليل على أنَّ جسدًا سُحبَ مسافةَ أمتارٍ، ثم ما لبث ماءٌ ورديٌّ أن بدأ يغمر خشب الأرضيَّة. الحاسوب مشغَّلٌ، على شاشته صورُ عشبٍ إنجليزيٍّ ومشاتل مزهِرة. كان كِن مولعًا بالنباتات. غادر بْلِيك الجناح، نزع قفَّازيْه، وسار غير مستعجلٍ، حتى بلغ درَّاجة السكوتر المركونة على بعد مائتي مترٍ من هناك. انطلقَ، قطعَ مسافة كيلومتر، ثم توقَّف ليتبوَّل، أخيرًا. تبًّا، ما يزال ينتعل الجرموق القطنيّ الأسود.

يومان بعد ذلك، قلِق أحدُ الزملاء من غياب كِن، فأخطر الشرطةَ، فاكتشفوا وفاة صامويل تادلر بسبب حادث. وفي اليوم نفسه، تحصَّل بْلِيك على بقيَّة أتعابه.

حدث كلّ ذلك في أزمنةٍ غابرةٍ. ومُذَّاك بنى بْلِيك لنفسه حياتيْن. في إحداهما، يكون خفيًّا، يحمل عشرين اسمًا، ومثلَها من الألقاب، وجوازات سفرٍ توافقُها جميعًا، جوازات سفرٍ من كلّ الجنسيَّات، بعضها بيومتريٌّ، أجل، إنَّ الأمرَ أبسط ممَّا نتخيَّل. وفي الحياة الثانية، يحمل اسمَ جو، ويُديرُ عن بعد مقاولةً باريسيَّةً مختصَّةً في توصيل الأطباق النباتيَّة إلى المنازل، ولها فروعٌ في بوردو وليون، والآن وصلت حتى برلين ونيويورك. وتشكو زوجته، التي هي أيضًا شريكته، وطفلاهُ من كثرة أسفاره، وطولِها أحيانًا. وهُم محقُّون.

*

21 مارس 2021، كوغو، ولاية نيويورك

في يوم 21 المذكور، كان بْلِيك مسافرًا. يركض تحت المطر الرقيق، وفوق التراب البليل. شعرٌ طويل أشقر، حزمَه ببَاندانا، ونظَّارتان سوداوان، وبذلة رياضيَّة صفراء وزرقاء، أي أنَّه تخفَّى في هيأة العدَّاء الزاهية. وكان قد وصل إلى نيويورك، عشرة أيَّامٍ من قبل، بجواز سفرٍ أستراليّ. وكانت رحلته العابرة للمحيط الأطلنطيّ مرعبةً، حتى إنَّه قد ظنَّ أنَّ ساعته أزفَّت، وأنَّ السماءَ ستنتقم منه لكلِّ ما ارتكبه من جرائم قتل. حتى إنَّ باروكته الشقراء كادت تفارق جمجمته، لمَّا وقعوا في مطبٍّ هوائيٍّ لا نهاية له. وها قد مضت تسعة أيَّامٍ، قضاها في الركض طول الشاطئ، مسافة ثلاثة كيلومترات، تحت سماءٍ ملبَّدة، في كوغو، أمام الأكواخ التي لا يقلّ سعر الواحد منها عن عشرة ملايين دولار. لقد هُيِّئَت كثبانٌ رمليَّةٌ، وأُطلق على الشارع اسمُ Dune Road (طريق الكثبان الرمليَّة)، اسمٌ من أبسط ما يكون، وغُرست أشجارُ الصنوبر والقصب، حاجبةً كلّ ڤيلاَّ عن جارتها، حتى لا يشكّ أيّ أحدٍ من ملاَّك العقارات في أنَّ المحيطَ بأكمله ملكٌ له وحدَه. يركض بْلِيك، في خطوٍ خفيف، غير مستعجل، ثم فجأةً يتوقَّفُ، كلّ يومٍ، في الساعة نفسها، أمام منزلٍ رائعٍ مستوٍ، تكسوهُ ألواحٌ عريضةٌ من خشب السرو، ذي نوافذَ عريضة، وتمتدُّ حديقتُه في درجٍ يقود إلى البحر. يتظاهر بأنَّ نفَسه انقطع، وينحني منثنيًا إلى اثنيْن بتأثيرٍ من مغصٍ زائف. وككلّ يومٍ، يرفع رأسَه ويحيّي بيده في البعيد رجلاً في نحو الخمسين من عمره، يشرب قهوةً تحت المظلَّة، مستندًا إلى الدرابزين. وبصحبته، رجلٌ أصغر سنًّا، طويل القامة، أسمرُ، قصير الشعر. ينتحي بنفسه جانبًا، متَّكئًا بظهره على جدار الألواح، يراقبُ الساحلَ في قلق. في الجانب الأيسر من لباسِه انتفاخٌ يشفُّ

عن غمدِ مسدَّسٍ مخفيٍّ تحت سترته. يعني أنَّ الرجل أيمَن. اليوم، هي المرَّة الثانية في هذا الأسبوع التي يقترب فيها بْلِيك منهُما باسمًا، يصعد الدربَ الرمليَّ، بين نباتات البقوليَّة والعشب القصير.

بحركةٍ محسوبةٍ، تمطَّى بْلِيك، وتثاءب، وتناول منشفةً من حقيبة ظهره، فمسح وجهه، ثم أخرج قربةً، فشرب جرعة شايٍ بارد. وانتظر أن يتوجَّه إليه الرجل الأكبر سنًّا بالكلام.

- مرحبًا يا دان. كيف حالك؟

أجابه دان - بْلِيك، وهو يتظاهر بالتشنُّج من أثر المغص: - هاي يا فرانك.

قال الرجل الذي ترك شاربًا ولحيةً رماديَّيْن يطولانِ منذُ لقائهما الأخير، قبل أسبوع: - طقسٌ سيّءٌ للركض.

أجاب بْلِيك وهو يتوقَّف على بعد خمسة أمتارٍ منهما: - بل قُل إنَّه يومٌ سيّءٌ بالجملة.

- لقد فكَّرتُ فيك اليوم وأنا أتابع سعر أسهم أوراكل.

- لا تذكر لي ذلك. هل تعرف ما أستطيع توقُّعه للأيَّام القادمة، يا فرانك؟

- كلاَّ.

- طوى بْلِيك المنشفة بعنايةٍ، وأودعها حقيبتَه، ثم أودع القربة بعناية، قبل أن يُخرج بسرعةٍ مسدَّسًا. أطلق فورًا ثلاث طلقاتٍ على الشابِّ الذي تراجع إلى الخلف من أثر الصدمة، ثم انهار على مصطبة، ثم ثلاث طلقاتٍ أُخرى على فرانك، المذهول، الذي بالكاد وثب، فخَرَّ على ركبتيْه وهو ما يزال مستندًا إلى الدرابزين. أطلق على كلٍّ منهما طلقتيْن في الصدر، وثالثةً في منتصف الجبهة. ستّ طلقاتٍ في ثانيةٍ، أطلقها من مسدَّسه P226 المزوَّد بكاتمٍ للصوت، وفي جميع الأحوال قد غطَّت الأمواجُ الصوتَ. عَقدٌ آخرُ، أُنجزَ بلا خطأ. مائة ألف دولارٍ بلا أيّ تعب.

أعاد بْلِيك مسدَّسه السيغ سواير Sig Sauer إلى حقيبته، لمَّ الخراطيشَ الستَّة من الرمل، وتنهَّد وهو يتأمَّل جسد الحارسِ المصعوق. مجدَّدًا مكتبُ حراسةٍ شخصيَّةٍ يُشغِّل حُرَّاسَ مرائب، يكوِّنهم مدَّة شهريْن، ثم يُلقي بهم، وهُم الهواةُ، في العالم الحقيقيّ. لو افترضنا أنَّ هذا البائس قام بعمله كما يجب، فسيكون قد بلَّغ رؤساءَه باسم دان، وصورتِه، بعد أن التقطها من بعيد، وكذا بلَّغهم

باسمِ شركة أوراكل الذي أفلت من بْلِيك، ولا بدَّ أنَّ هؤلاء سيكونون قد طمأنوه بعد أن حدَّدوا هويَّة المدعو دان ميتشل، وهو مديرٌ مساعدٌ في قسم اللوجيستيك بمؤسَّسة أوراكل نيوجيرسي، رجلٌ أشقر طويل الشعر، كبيرُ الشبه ببْلِيك الذي نبش في عشرات المؤسَّسات حتى عثر على شبيهٍ مقبولٍ بين آلاف الوجوه.

ثم إنَّ بْلِيك استأنف ركضه. المطرُ الذي بدأ يتساقطُ بوتيرةٍ أغزرَ، يمحو أثر خطواته. سيَّارةُ تويوتا المستأجرةُ، مركونةٌ على بُعْد مائتي متر، وألواحها المعدنيَّة، هي نفسُ ألواح سيَّارةٍ مماثلة، رصدها منذ أسبوعٍ في شوارع بروكلين. بعد خمس ساعاتٍ سوف يستقلّ الطائرة إلى لندن، ومنها قطارَ اليوروستار إلى باريس، متَّخذًا هويَّةً جديدة. فإن كانت رحلته بالطائرة أقلّ اضطرابًا من رحلته من باريس إلى نيويورك، فسوف يكون كلّ شيءٍ مثاليًا.

لقد صار بْلِيك محترفًا، وما عادت تستبدّ به الرغبة في التبوُّل أثناء التنفيذ.

*

الأحد 27 يونيو، 2021، 43:11، الحيّ اللاتيني، باريس

اِسألوا بْلِيك، وسيجيبُكم بأنَّ أفضل قهوةٍ بسان جرمان هي تلك التي نشربها في ذاك البار الواقع عند زاوية شارع السين. إنَّ قهوةً جيّدةً - وبْلِيك يعني جيّدةً جدًّا ـــــ، هي معجزةٌ تولد من تعاونٍ حميميٍّ بين بُنٍّ فاخرٍ، - والبنُّ هنا حبوبٌ من نيكاراغوا حُمِّصت حديثًا - وماءٍ مصفّى ومخفَّف، وماكينة قهوة، وهي في حالتنا هذه ماكينةٌ من ماركة تشيمبالي، تُنظِّفُ كلَّ يوم.

مُنذ أن فتح بْلِيك أوَّل مطاعمه النباتيَّة، في شارع بوسي، قرب محطَّة أوديون، اتَّخذ عادةَ الجلوس في البار المذكور. إن كان لا بدَّ للمرء من يأسٍ شاملٍ، فليأس على شرفةٍ بمقهى باريسيّ. اسمُه في الحيِّ إذن جو، اختصارًا لاسم جوناثان، أو جوزيف، أو جوشوا. حتى موظَّفوه ينادونه باسم جو، ولا يظهر اسمه كاملاً في أيِّ مكانٍ، اللّهمَّ إلاَّ في السجلِّ التجاريّ للهولدينغ الذي يمتلك الشركةَ. لطالما تحلَّى بْلِيك بفضيلة السرّ، أو لنقل التكتُّم، وما فتئت الأيَّامُ تبدي له صوابَ اختياره.

هنا ينضو بْلِيك عن نفسه ثوب الحذر. يتسوَّق، يوصل طفليْه من المدرسة، لا بل إنَّه، مُنذ أن اتَّخذَ مُسيِّرًا لكلِّ فرعٍ من فروع مطعمه الأربعة، صار يصطحب فلورا إلى المسرح والسينما. حياةٌ

تافهةٌ، يكون فيها أيضًا الإنسانُ معرَّضًا للإصابة، لكنَّ إصابته لن تتعدَّى اصطدام عظم جبينه، دون انتباه، بباب الإسطبل، أثناء اصطحابه ماتيلد لركوب حصان الباوني.

إنَّ القطيعة بين الهويَّتيْن باتَّة وشاملة. جو وفلورا يدفعان أقساط شقَّةٍ جميلة على بعد خطواتٍ من حدائق لوكسبورغ، في حين أنَّ بْلِيك اشترى منذ اثنتي عشرة سنةً، نقدًا ودفعةً واحدةً، شقَّةً من غرفتيْن قرب محطَّة الشمال، في عمارةٍ جميلةٍ بشارع لا فاييت، أبوابُها ونوافذها مصفَّحةٌ، مثل جدران خزنةٍ. ويدفع إيجارَ الشقَّة مستأجرٌ رسميٌّ، يتغيَّر اسمه كلّ سنةٍ، وهذا أمرٌ ميسَّرٌ ما دام المستأجرُ أصلاً لا وجود له. لا بأس من الزيادة في الحذر.

يشرب إذن بْلِيك قهوته، بلا سكَّر أو قلق. يقرأ الكتاب الذي نصحته به فلورا؛ لم يُخبر زوجتَه بأنَّه قد تعرَّف على المؤلِّف على متن رحلته من باريس إلى نيويورك في مارس الماضي. الوقتُ الظهيرة، وفلورا اصطحبت كونتان وماتيلد إلى بيت والديْها. لقد فوَّتَ الغداء، لأنَّه صباح هذا اليوم نفسه، ضرب موعدًا في الثالثة مساءً: عقدٌ عُرضَ عليه أمس مساءً. صفقةٌ بسيطة، بمقابل مغرٍ، والزبون يبدو مستعجلاً. ينبغي فقط أن يعرِّج على الشقَّة بشارع لافاييت، ليبدِّل هيأتَه، على دأبه دائمًا. على بعد ثلاثين مترًا منه، رجلٌ يرتدي سترةً بغطاء رأسٍ، يتأمَّلهُ جامدَ الملامح.

ڤيكتور ميزل

ڤيكتور ميزل لا تنقصه جاذبيَّةٌ. وجهه الذي طالما كانَ حادَّ الزوايا، قد ليَّنته السنينُ، وشعره الكثيف، وأنفه الرومانيّ، وبشرته الكامدة، كلّ ذلك يمكن أن يُثير في الذهن صورة كافكا؛ كافكا متينٌ استطاعَ أن يتجاوزَ الأربعين. جسده العظيمُ طويلٌ، وما يزال يحتفظُ بقدرٍ من الرشاقة، وإن كان الاستقرار المتأصِّل في مهنته قد أكسبه شيئًا من غِلَظٍ.

ذاك أنَّ ڤيكتور يكتب. للأسف، على الرَّغم من التلقِّي النقديّ الجيِّد الذي حظيت به رواياته، ستلاقينا الجبالُ، وشطرنج خسِر، وعلى الرَّغم من فوزه بجائزةٍ باريسيَّة جدًّا، جائزةٍ من تلك التي لا يُحدث اسمُها على الغلاف أيّ تهافتٍ على الكِتاب؛ على الرَّغم من كلِّ ذلك، لم تتجاوز مبيعاته قطّ بضعة آلافٍ من النسخ. وقد أقنع نفسه بأنْ لا شيءَ أقلّ مأساويَّة من ذلك، وأنَّ خيبة أملٍ هي نقيض فشل.

وقد بلغ الثالثة والأربعين من عمره، أنفق خمس عشرة سنةً منها في الكتابة، فصار عالمُ الأدبِ الصغيرُ، يبدو له مثل قطارٍ هزليٍّ، حيثُ المحتالون الذين لا يمتلكون تذاكر، يستقرُّونَ بصخبٍ في الدرجة الأولى، بتواطؤٍ من المراقبين العاجزين، بينما يظلُّ على الرصيف العباقرةُ المتواضعون - وهم صنفٌ في طور الانقراض، لا يرى ميزل نفسه ينتمي إليه - ومع ذلك، لم يخلِّف الأمر في نفسه أيَّة مرارةٍ؛ فقد انتهى به المطاف إلى تقبُّل الأمر، فلم يعد يكترثُ، وصار يتقبَّلُ الجلوس أربع ساعاتٍ في معارض الكتب، لكي يوقِّع أربعَ نسخٍ. حين يترك زميلٌ فاشلٌ لجاره على الطاولة الفرصةَ، فإنَّهما يرفعان الكلفة ويتحدَّثان بسرور. وميزل الذي قد يبدو حالمًا ومتحفِّظًا، يملك، مع ذلك، صيتَ صاحبِ دُعابة. لكن أليس كلّ صاحب دعابةٍ، قمينٍ بهذا الوصف، ينبغي أن تُلحق به دائمًا عبارةُ «مع ذلك»؟

يكسبُ ميبزل عيشهُ من الترجمة. من الإنجليزيَّة، والروسيَّة، والبولنديَّة، وهي اللغة التي كانت جدَّته تُحدِّثه بها في طفولته. ترجمَ فلادمير أدويفسكي، ونيكولاي ليسكوف، مؤلّفَيْن من القرن ما قبل الماضي، لم يعد لهم كثيرٌ من القرَّاء. وحدث له أيضًا أن قام بأعمالٍ لا معنى لها، مثل اقتباس - بطلبٍ من أحد المهرجانات - مسرحيَّة في انتظار جودو، في اللغة الكلينغونيَّة، تلك اللغة التي يتحدَّث بها الفضائيُّون المتوحِّشون في سلسلة ستار تريك. ولكي يحافظ على صورته عند المصرفيِّ، يترجم ڤيكتور كذلك أعمالاً إنجليزيَّةً ترفيهيَّةً من قائمة الأكثر مبيعًا، تلك الأعمال التي تمنح الأدب وضعيَّة الفنّ القاصر الموجَّه للقاصرين. وقد فتحت له مهنيَّتُه بابَ ناشريْن شهيريْن، بل وحتى متنفِّذيْن، من دون أن تستطيع مخطوطاتُه الشخصيَّة أن تتجاوز عتبة أبوابهم.

ولميبزل خرافتُه: في جيب سرواله الجينز دائمًا قطعةُ ليغو، القطعة الأكثر انتشارًا، قطعة الأربعة في اثنيْن، حمراءَ قانية. قطعةٌ أخذها من سور القلعة التي كان يبنيها، في غرفته، مع أبيه، أيَّامَ كان طفلاً. ثم وقعت الحادثة في الورش، وظلَّ المجسَّمُ غير مكتملٍ، قربَ سريره. لطالما تأمَّل الصبيُّ، في صمتٍ، الأسوارَ، والجسر المتحرّك والهيئات، والحصن. أن يُكمل بمفرده البناء، يعني أن يتقبَّل الموتَ، وكذلك الأمرُ إن هدَم القلعةَ. ذات يومٍ، انتزعَ لبنةً من الجدار، ودسَّها في جيبه، ثم فكَّك الحصن. حدث ذلك منذ أربعٍ وثلاثين سنةً. مرَّتيْن أضاع ڤيكتور اللبنة، ومرَّتيْن حصل على واحدةٍ مطابقةً لها. بدايةً، فعل ذلك في وجع، ثم من غير إحساسٍ يُذكر. وحين توفِّيت أمّه، في السنة الماضية، دسَّ اللبنة في تابوتها، ثم حصل على واحدةٍ أخرى مماثلة. إنَّ هذه القطعة الحمراءَ المتوازيةَ السطوح، ليست هي والده، وإنَّما فقط ذكرى عن ذكرى، رمزٌ للبنوَّة والوفاء.

ليس لـ ميبزل أبناء. عاطفيًّا، ينتقل من فشلٍ إلى فشل، بحماسٍ لا يفتر. ولأنَّه متحفِّظٌ في أغلب الأوقات، فإنَّه لا يُقنِع، ولم يسبق له أن التقى المرأة التي يمكن أن يعبر معها مدَّةً طويلةً من الحياة. أو ربَّما كان يختارُ رفيقاته بطريقةٍ تضمنُ له ألاَّ يتمكَّن من الاستمرار معهنَّ.

غير صحيح: فالمرأةُ، قد التقى بها منذ أربع سنواتٍ في مؤتمر الترجمة بآرل: أثناء جلسةٍ كان يشرح فيها «كيف يمكن أن نترجم الدعابة عند غونتشاروف»، وكانت تجلسُ في الصفِّ الأوَّل. وحاول ألاَّ ينظر إليها وحدها. ولأنَّ ناشرًا استوقفه - ماذا لو ترجمت لنا النسويَّة الروسيَّة ليوبوف غورفيتش؟ ما رأيك؟ رائع.. أليس كذلك؟ - لم يستطع ڤيكتور أن يتهرَّب. لكن، ساعتيْن لاحقًا، في الصفِّ البطيء الذي يقود إلى بوفيه التحلية، كانت تقف خلفَه، مبتسمةً. إنَّ الحقيقة في الحبِّ، تكمن

في أنَّ القلب يتعرَّف عليه فورًا، ويصرخ باسمه. بالطبع لن نعلنَ للشخص المعلوم أنَّنا نحبّه، هكذا بلا مقدِّمات. إن فعلنا كذلك فلن يفهمنا. لذا فإنَّنا ننخرط في الحديث معه، لكي نخفيَ أنَّنا وَقعنا في أسره.

ولمَّا بلغ ڤيكتور نهايةَ بوفيه التحلية، حيث حلوى الشوكولاتة المُذابة، استدارَ نحوها وبادرها بالكلام. سألها متلعثمًا، كيف يمكن أن نترجم «القشدة الإنجليزيَّة crème anglaise» إلى الإنجليزيَّة، ما دامت «القشدة الفرنسيَّة french cream» هي الكريم شانتيه la chantilly. نعم، نأسَفُ، لكنَّه لم يجد طريقةً أفضل يُبادرها بها. ضحكت، باحتشامٍ، وأجابته «Ascot cream» بصوتٍ أجشّ، بدا له فاتنًا، ثم استدارت عائدةً إلى الطاولة حيث صديقاتها. واحتاج وقتًا لكي يُدرك أنَّ Ascot، مثلها مثل Chantilly كلمةٌ عامَّةٌ، لكنْ بالإنجليزيَّة.

تبادلا نظراتٍ أراد هو أن يقرأ فيها التواطؤ، ثم انصرف إلى البار، متعمِّدًا إظهارَ انصرافه إليه، لكنَّها كانت مأخوذةً بحوارٍ. فلمَّا بدا له تصرُّفُه طائشًا، طيشَ مراهقٍ، عاد إلى فندقه. لم يجدها بين صور المشاركين، لكنَّه لم يشكّ في أن يلتقي بها مجدَّدًا، فصرف الصباحَ بأكمله في التردُّد على الوُرش، متعلِّلاً بشتَّى الأعذار. لكنْ سدًى. وكذلك لم تحضُر حفلة ختام المؤتمر. لقد تبخَّرت. وأثناء الفطور الأخير بالفندق، وصفَها لصديقٍ من المنظِّمين، لكنَّ أوصافًا من قبيل «قصيرة»، «سمراء»، «فاتنة»، لم تُفلح قطّ في وصف أحد.

لسنتيْن اثنتيْن على التوالي، ظلَّ ڤيكتور يتردَّد على المؤتمر، ولنكن صريحين، كان يتردَّد عليه أملاً في لقائها. ومذّاك - وهذا خطأٌ مهنيٌّ شنيع - ظلَّ يدسُّ في ترجماته مقاطع صغيرة يضمِّنها كلمة Ascot أو قشدة إنجليزيَّة. وقد افتتح نهجه هذا بمجموعة مقالات غوريفيتش: في نصّ المفتتح: <؟؟؟؟؟؟ ؟؟؟؟؟ ؟؟؟؟ ؟؟؟؟؟؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟؟؟ ؟

؟؟؟؟؟؟؟;#62&;#62&

«لِمَ ينبغي أن نمنح النساء كامل الحرِّيَّة»، حيث دسَّ الجملة التالية «ليست الحرِّيَّة مجرَّد قشدةٍ إنجليزيَّةٍ على كعكةٍ بالشوكولاتة، وإنَّما هي حقٌّ». رسالةٌ خفيَّة، لكنْ من يعلم؟ ثم إنَّها في نهاية المطاف تهتمّ حقًّا بغونتشاروف. لكن لا. إنْ كانت قد قرأت الكتاب فإنَّها لم تنتبه إلى إضافته، ولا الناشر انتبه، ولا القرَّاء انتبهوا. وقد ترك ڤيكتور الحياة تمضي، وقطعَ الرجاءَ.

مستهلَّ العام، منحتهُ منظَّمةٌ فرنكو أميركيَّة، تموّلُها المصالحُ الثقافيَّة للسفارة الفرنسيَّة، جائزةً نظيرَ ترجمته إحدى تلك الروايات المثيرة التي يعتاش منها. ومطلع شهر مارس، سافر إلى الولايات المتَّحدة ليستلم جائزته، وأثناء رحلته دخلت الطائرة في مطبٍّ هوائيٍّ فظيع. لمدَّةٍ لا تحدُّ، ظلَّت العاصفةُ تطوّح بالمركبة في كلِّ اتِّجاه. أدلى الربَّانُ بتصريحاتٍ مُهدِّئة، لكنْ لا أحدَ في المقصورة، وبخاصَّةٍ ميبزل، كان يشكّ في أنَّ سقوطهم أمرٌ واقعٌ، في أنَّهم سيهوون في البحر، ويتحطَّمون على جدار الماء. لدقائق طويلة، ظلَّ يقاوم، يتشبَّث بالمقعد، ويشدّ عضلاته حتى لا يعاني كلَّ هزَّة. عيْناه تتجنَّبان النظر من الكوَّةِ التي تُطلُّ على ليلةٍ قارصة. ثم، على بعد بضعة صفوفٍ أمامه، غير بعيدٍ من رجلٍ أشقر يغطِّي رأسَه بكنزته، ويغطُّ في نومٍ عميق، لا يبدو أنَّ بمقدورِ شيءٍ استلالَه منه، أبصرَ تلك المرأة. ولو أنَّه انتبه إليها عند الصعود إلى الطائرة، لما استطاع أن ينزاح بنظرته عنها. لقد أعادت إلى ذاكرته، بشدَّةٍ، صورةَ محبوبته التي عرفها في مؤتمر آرل، محبوبته التي اختفت. لرهافتِها، ودقّةِ ملامحها، وملمسِ بشرتها، ورشاقة جسدها، قد يحسبُها المرء صبيَّةً يافعةً، غير أنَّ التجاعيد الضئيلة حول العينيْن تشي بالثلاثينيَّات. وقد رسمت صفيحتا النظَّارة على أنفها جنَاحي ذبابةٍ زائليْن. أحيانًا تبتسم لجارها، وهو رجلٌ يكبُرها سنًّا، قد يكون والدها، ويبدو أنَّهما يتسلَّيان باهتزاز المركبة، ما لم يكن التظاهر باللامبالاة وسيلةً يطمئنان بها نفسيْهما.

على أنَّ المركبة وقعت في مطبٍّ هوائيٍّ جديد. وفجأةً، انكسر شيءٌ ما في ڤيكتور، أغلق عينيْه وأسلم نفسه للهزَّاتِ تطوّح به في كلِّ اتِّجاه، غير آبهٍ بكبح جسده. لقد صار واحدًا من تلك الفئران المختبريَّة التي، إذ تتعرَّض لضغوطٍ عنيفة، تكفّ عن المقاومة، وتستسلم للموت.

ثم، بعد زمنٍ لا حدَّ له، أفلتت المركبة من العاصفة. ولكنَّ ميبزل ما يزال منبطحًا، عالقًا في شعورٍ رهيبٍ بانعدام الواقعيَّة. الحياة، من حوله، تستأنف مسيرها. أناسٌ يضحكون، يبكون، لكنَّه هو يتأمَّل كلّ ذلك من وراء زجاجٍ مغبَّش. منع الربَّان أيًّا كانَ من أن يفكّ حزامَه قبل الهبوط، وعلى أيِّ حالٍ لم يكن ميبزل، المستنزفَ من كلِّ طاقة، يستطيع أن يتزحزح من مقعده. وما كادت تُفتح بوَّاباتُ الطائرة، حتى هُرع الركَّاب، متلهِّفين إلى الفرار من الطائرة، وبينما تفرغ الطائرة، ظلَّ ميبزل جالسًا في مقعده بجانب الكوَّة. ربَّتت مضيفةٌ على كتفه، فأطاعها وقام من مقعده. وحينئذٍ، حضرت الشابَّة في ذهنه حضورًا أشدَّ كثافة. شعرَ بأنَّها الوحيدة القادرة على أن تنتزعه من هاوية اللاوجود تلك، فبحث عنها بعينيْه، لكنَّها اختفت عن بصره، وكذلك لم يجدها في صفِّ العبور.

أتى رئيس مكتب الكِتاب يستقبله في المطار، وعبَّر عن امتنانه للمترجم الصموت والمشوَّش.

- أمُتأكِّد من أنَّك على ما يرام، يا سيِّد ميزل؟

- نعم. أظنّ أنَّنا كدنا نلقى حتفنا، لكنَّني بخير.

أقلقَت مبعوثَ القنصليَّةِ نبرةُ ميزل الرتيبة، فلم يتبادلا كلمةً حتى الفندق. ولمَّا عاد، في اليوم التالي، نهايةَ الظهيرة، يتفقَّد ميزل، علِمَ بأنَّ المترجم لم يُغادر غرفته طيلة اليوم، ولا حتى لتناول الطعام. وكان عليه أن يلحّ على الضيف حتى يستحمَّ ويرتدي ملابسه. يُقام اللقاء في مكتبة ألبرتين، في الجادَّة الخامسة، مقابل سنترال بارك. في اللحظة المناسبة، وبناءً على إيماءةٍ مستعجِلةٍ من الملحق الثقافيّ، أخرج ميزل من جيبه خطابَ الشكر الذي كتبه في باريس؛ ثم، بصوتٍ باردٍ، شدَّد على أنَّ دور المترجم يكمن في «أن يُحرِّر، عبر عمليَّة النقل، اللغة الخالصة الأسيرةَ في العمل». واهِنَ القوى، تغنَّى بكلِّ المثالب، التي لا يؤمن بها، لدى مؤلِّفةٍ أميركيَّة، شقراء طويلة القامة، رديئة الماكياج، تبتسم إلى جانبه، ثم صمتَ بغتةً. وإزاء الضيق الذي يرتسم في الأجواء، اختطفت المؤلِّفةُ الميكروفونَ، فأثنت على المترجم بالغ الثناء، ثم أعلنت عن صدور جزأيْن جديديْن ضمن سلسلة ملحمتها الفانتازيَّة. ثم أتت لحظة الكوكتيل. لكنّ ميزل يبدو شاردًا.

غمغم المستشار الثقافيّ متذمِّرًا: «سُحقًا، بالنظر إلى ما يكلِّفُنا هذا النوعُ من الاحتفالات، عليه أن يبذل القليل من الجهد». أمَّا مستشار الكِتاب فدافع دفاعًا مبهمًا عن ميزل الذي استقلَّ الطائرة صباحَ اليوم التالي.

ولمَّا وصل إلى باريس، انكبَّ يكتبُ، كأنَّما يُملَى عليه إملاءً؛ وذاك الطابع الميكانيكيّ للكتابة، المتعذِّر التحكُّم فيه، ذاك الطابعُ نفسهُ جعلَ يُغرقُه في هاويةٍ من القلق. سيحملُ هذا الكتاب عنوانَ «الخلل»، وسيكون ترتيبه السابعَ بين مؤلَّفات الكاتب.

«طيلة حياتي، ما قمتُ بفعلٍ. أعلم أنَّني صنيعةُ الأفعال، لكنْ لا فعل منها تمَّ بإرادتي. اكتفى جسدي بأن يتحرَّك بين الأسطر التي لم أخطّها. ثمَّة مبالغةٌ في الادِّعاء بأنَّنا سادةٌ في الفضاء، والحالُ أنَّنا نتبع فقط منحنياتِ أدنى قوَّةٍ. حدُّ الحدودِ. لا رحلةَ، أبدًا، تنكشف فيها سماؤنا».

في بضعة أسابيع، ملأ ڤيكتور ميزل، المهووس بالكتابة، نحو مائة صفحة من هذا الجنس الأدبيّ المتقلِّب بين الغنائيَّة والميتافيزيقا: «إنَّ المحارة التي تعاني اللؤلؤةَ، تعرف أنَّ ما من وعيٍ سوى الألم، لا بل إنَّها ليست إلاَّ متعةَ الألم. [...] نضارةُ الوسادة تُذكِّرني كلّ مرَّةٍ بحرارة دمي العبثيَّة. إن ارتجفتُ بردًا، فإنَّما لأنَّ فروَ عزلتي فشلَ في أن يدفِّئ العالم».

في الأيَّام الأخيرة، لم يعد يغادر منزلَه. والفقرة الأخيرة التي أرسلها إلى دار نشره تبيِّنُ كيف أنَّ تجربة الانفصال عن الواقع تتاخمُ اللامُحتمل: «لم أستطع قطّ أن أتصوَّر كيف سيختلف العالمُ، لو أنَّني لم أوجد، ولا أيّ سواحلَ كنتُ سأدفع به إليها، لو أنَّني عشتُ وجودًا أشدّ كثافةً، ولا أيّ تغييرٍ سيُحدثُه في سيرِه اختفائي. ها أنا ذا، أمشي على الطريق التي لا تقودني حجارتها الغائبة إلى أيِّ مكان. صرتُ النقطةَ حيثُ تتَّحدُ الحياةُ بالموت حدَّ الاختلاط، حيث يرتاح قناعُ الحيِّ في وجهِ الميِّت. هذا الصباح، في صفاء الطقس، ينفذُ بصري حتى نفسي، فأجدني كأيٍّ كانَ. لستُ أُنهي وجودي، إنَّما أَلِدُ الخلود. وسدًى، أُنهي بكتابة جملةٍ أخيرةٍ لا تقصدُ إرجاءَ اللحظة».

بعد أن رصف ڤيكتور ميزل تلك الكلمات، وأرسل الملفّ إلى ناشرته، وقد اجتاحه قلقٌ عظيمٌ، عجز عن تعيينه باسمٍ من الأسماء، وثب في الشرفة، ثم هوى. أو بالأحرى، ارتمى. لم يترك أيّ رسالة، لكنَّ النصَّ بأكمله يقوده إلى هذا الفعل الأخير.

«لستُ أُنهي وجودي، إنَّما أَلِدُ الخلود».

نحن في يوم 22 أبريل 2021، ساعة الزوال.

لوسي

الاثنين 28 يونيو 2021

مِنيلمونتون، باريس

في غبش الصباح الباكر، دفعَ رجلٌ ذو وجهٍ حادِّ الزوايا، في هدوءٍ بابَ غرفةٍ. نظرتُه المتعبة تحدِّق في سريرٍ بالكاد تُستشَفُّ فيه هيأةُ امرأةٍ راقدة. تدومُ اللقطةُ ثلاثَ ثوانٍ، لكنَّها لا تروقُ لوسي بوغارت. شديدةُ الإنارة، ومشتَّتةٌ أكثر ممَّا ينبغي، ومفرطةٌ في السكون. لا بدَّ أنَّ مديرَ التصوير كان نعسان. لاحظَتْ أنَّهم، فيما يتعلَّق بالمؤثِّرات البصريَّة، ينبغي أن يُعدِّلوا على الغَاما، على التبايُن، أن يطمسوا لوحةً شديدة البروز في الخلفيَّة. عدَّلَتْ تأطيرَ وجه فنسنت كاسل تعديلاً طفيفًا، وركَّزت عليه بزووم خفيف، وأبطأَت سرعةَ بضعِ صُوَر، كي تمنح اللقطةَ مزيدًا من الإيقاع. واستغرق منها ذلك دقيقةً. هو ذا. هكذا أفضل. إنَّ هذه العناية بالتفاصيل، وهذا الحسّ السينمائيّ الغريزيّ، هما السبب في أنَّها صارت مسؤولةَ المونتاج المفضَّلة لدى عديدٍ من المخرجين.

الوقت باكر، الساعة الخامسة صباحًا، لُوِي نائم. في غضون ساعتيْن سوف توقظه، to wake, woke, woken، ثم تعدّ وجبة الإفطار، to eat, ate, eaten. أجل، سوف تَستذكِر معه الأفعالَ الإنجليزيَّة غير المنتظمة، وهي جزءٌ من البرنامج الذي يدرسه في المستوى الخامس. ولكنْ، في الوقت الراهن، تراجِعُ لوسي، على وجه السرعة، مونتاج هذا المشهد الداخليّ من أحد أعمال السينمائيَّةِ مايوين، ويُفترض أن تراجعاه معًا، مرَّةً أخرى، قبل الظهيرة. برقبةٍ موجَعة، وعينيْن يابستيْن، قامت. المرآة الكبيرة على الموقد تعكسُ صورةَ امرأةٍ قصيرةٍ ونحيلة، بمنحنياتِ صبيَّةٍ، وبشرةٍ شاحبة، وشعرٍ كستنائيٍّ قصير. وقد وضعت نظَّارةً كبيرة الحجم على أنفها اليونانيّ الدقيق، ممَّا يضفي عليها مظهر طالبةٍ. تحرَّكتْ حتى نافذة الصالون. حين يطغى عليها الإحساس بالفراغ فإنَّ تلك النافذة هي ملاذُها، تضع على زجاجها البارد جبهتَها. حيّ مِنيلمونتون غارق في النوم، لكنَّ

المدينة تمتصُّ كيانَها. مبلغ أمانيها أن تُفارق جسدَها، وتنصهر مندمجةً في كلِّ ما يوجد في الخارج. رنَّةٌ مكتومةٌ أعلمَتها بوصول إيميل. قرأت اسمَ أندري فتنهَّدت. إنَّها غاضبة، ليس لأنَّه يلحُّ عليها، وإنَّما لأنَّه يعرف أنَّ عليه ألاَّ يلحّ، ومع ذلك لا يستطيع كبح نفسه. أنَّى له أن يجمع بين حدَّة الذكاء وشدَّة الهشاشة؟ لكنَّ الحبَّ هو العجزُ عن منع القلبِ من أن يدهس بقدميْه الذكاءَ.

وكانت قد تعرَّفت على أندري منذ ثلاث سنواتٍ خَلونَ، أثناء أمسيةٍ نظَّمها أصدقاءٌ لها سينمائيُّون. وصلت متأخِّرةً، وكان ثمَّة رجلٌ يتأهَّب للانصراف، لكنَّه بقيَ. تهكَّم منه الأصدقاء: طبعًا، وصلت الجميلة لوسي، فضرب أندري صفحًا عن الانصراف... هذا إذن هو أندري فانييه، من شركة فانييه وإدلمان، المعماريّ الذي سمعت به. رجلٌ طويل القامة، نحيف، يبدو في الخمسينيَّات من عمره، ولكنْ يمكن أن نتصوَّرَه أكبَر سنًّا. له يدان طويلتان، وعينان تعكسان في آنٍ الحزن والبهجة، وقد حفظتا ألق الشباب الخالد. وفورًا، أدركَت أنَّها تأسره كلَّما تكلَّمت، فراقَها أن يكونَ أسيرَها.

ثم التقيا مرَّةً أخرى، بعد فترةٍ وجيزةٍ. كان يتودَّد إليها في حذرٍ، وأدركت أنَّه لا يخشى إحساس الإهانة بقدر ما يخشى عليها الإحراجَ. فكان أن صدَّته في البداية بكياسة. لكنَّهما ظلاَّ يلتقيان، بانتظام، وفي كلِّ مرَّةٍ يُبدي لها جانب العناية والمرح والاهتمام. وخمَّنت هي أنَّه غير فخورٍ بحياة العزوبيَّة التي يعيشها، وذاك موضوعٌ يتحاشى في كلِّ مرَّةٍ الخوض فيه، وشكَّت في أنَّ خلف الموضوع موكبًا من العشيقات، وقدرًا من الفتنة.

وذات مساء ربيعيٍّ، دعاها إلى العشاء في منزله. فاجأتها قائمةُ أصدقائِه المنتقاة: رسَّامةٌ شديدة التجريد، جرَّاحٌ إنجليزيٌّ زائر، صحفيَّةٌ في جريدة لوموند، وأمين مكتبةٍ مولعٍ بالكحول، بل وحتى شخصٌ يُدعى أرمان ميلوا، وهو رجلٌ شديد اللباقة والتهذيب - علمت أثناء العشاء أنَّه يُدير مكتبَ مكافحةِ التجسُّس في فرنسا. واكتشفت لوسي أيضًا شقّةً رحبةً، على الطراز الهوسمانيّ[2]، رصينةَ الأثاث، يهيمن فيها الخشبُ والصناعة، وتتراكم الكتبُ والروايات؛ شقَّةً بعيدةً كلّ البعد عن العوالم الفقيرة والباردة التي يوصف بها المهندسون المعماريُّون. وعلى رفٍّ تمثالٌ من الجصّ لـ ميكي ماوس، زاهي الألوان. تناولت التمثال بين أصابعها، وأخذت تداعبه في دهشَة.

دنا منها أندري: - إنَّه بشع، أليس كذلك؟

ابتسمت لوسي.

- اقتنيته حتى أجعل في منزلي شيئًا يقاومُ التعوُّد. فنحن لا نعتاد على القبيح. إنَّ القبيح حياةٌ. حياة قبيحةٌ، لكنَّها حياة.

طيلة الأمسية، ظلَّت نظرةُ لوسي تعود، كالممغنطة، إلى تمثال ميكي ماوس الشنيع. ثم فجأةً، ومن غير أن تُدرك السبب، تحدَّث إليها فأر والت ديزني قائلاً إنَّ مع هذا الرجل سعادةً ممكنة.

عرَّفَته على لُوي. ولم يحسب أندري حساب أيّ منفعة شخصيَّة: لقد أحبَّ على الفور هذا الصبيّ المرح والمفعم بالحياة، المشرفَ على المراهقة؛ أحبّه من دون أن يسعى إلى جعله حليفًا. لكنَّه ليس مغفَّلاً: ففي معركته لكسب قلب لوسي، لا يحتاج عدوًّا.

وذات يومٍ، عقب غداءٍ، وبينما يتوادعان، خطت لوسي خطوةً لعبور الشارع، وإذا بأندري يسحبها بعنفٍ من ذراعها. مرَّت من أمامها شاحنةٌ مندفعة. آلمتها كتفُها، لكنَّها حقًّا كادت تموت. بهتَ وجه أندري. ظلاَّ لوهلةٍ واقفيْن، جنبًا إلى جنب، وبدت أصوات المدينة متفاقمة. إيقاع تنفُّسه سريعٌ، وكذلك إيقاع تنفُّسها. ضمَّها إليه قائلاً: - لقد آذيتك، آسف، خفتُ، ظننت... أحبّك كثيرًا.

ثم إنَّه تراجع إلى الخلف، مرتعبًا من تلك الجملة التي أفلتت منه، تلعثم معتذرًا وانصرف. راقبَتْه يبتعد، ولأوَّل مرَّةٍ، تنتبه إلى أنَّه يمشي بسرعة، مستقيمًا، وأنَّه ما يزال في عزّ شبابه. مستاءةً، انتظرت خمسة عشر يومًا قبل أن تعاود الاتِّصال به. ولمَّا التقيا، لم يعد إلى ذِكر ما حدث.

لكنَّه قالها. قال أحبّك. ولوسي تحتاط من تلك الجملة. ما يزال أوانُ قولها بعيدًا. لقد أحبَّت رجلاً آخر، رجلاً كان يستخدم هذا الفعل الكاذب بسوءٍ وإفراط، رجلاً أهانها، وأساء معاملتها، وظلّ يرحل عنها، ثم يعود إليها، ليرحل مرَّةً أخرى. ودَّت لو تُخبر أندري أنَّها تعبت من كلّ أولئك الرجال الذين يشتهون بشرتها الناعمة، وساقيْها الرهيفتيْن، وشفتيْها الشاحبتيْن؛ تلك الأشياءَ التي يسمُّونها جمالَها، ذاك الوعد بالسعادة الذي لا تتجاوزُه نظرتُهم مطلقًا. تعبت من أولئك الذين يراودونها كصيَّادين، أولئك الذين يحلمون بأن يعلِّقوها على الحائط كما تعلَّقُ الجوائزُ. إنَّها تستحقّ شيئًا أفضلَ من شهوةٍ طائشة، لم تعد تطيقُ أن يُتلاعبَ بها. ودَّت لو تخبره أنَّ ذلك هو السبب الذي دفعها إلى أن تنجرف إليه شيئًا فشيئًا، وهو سببُ وجودها هناك. لأجل الوقت الذي منحها إيَّاه، لأجل العذوبة التي تشعر بها فيه، وأيضًا لأجل الاحترام الذي يُبديه لها. تودّ لو تستطيع أن تخرجه من منطقة الحبيب

الصامتِ، لو تعرف كيفَ تكون حاسمةً، أو أن تستسلم إليه تمامًا. ولكنَّها اكتفت بالخجل من صلابتها التي تبلغ أحيانًا حدّ القسوة، وهي تقاوم انجذابها المتزايد نحوَه.

مرَّ شتاءٌ آخر، ثم بعد ما ينيف عن أربعة أشهر. وعقب عشاءٍ جمعهما في كيم، ذاك المطعم الكوريّ الصغير الذي دأبا على الالتقاء فيه، قال لها أندري: - «تعلمين يا لوسي، أنا حريصٌ عليكِ، ومُدركٌ لكلِّ ما يقوم بيننا، ضدَّنا. ولكنْ إن كنت تريدينني رفيقًا لحياتك، متى ما شئتِ، فإنَّ اتِّخاذ الخطوة الأولى متروكٌ لكِ...» وكانت النظرة التي نظر بها إليها في تلك اللحظة غير مسبوقة. اضطربت، ابتسمت، وعلى الرَّغم من إدراكها بأنَّها تحتاج مزيدًا من الوقت، إلاَّ أنَّها خشيت أن يملَّ الانتظار سدًى. فقرَّرت أن تُمسك بطرف خصلةِ الشعرِ الأحمرِ، شَعر الإلٰه اليونانيّ كايروس، إلٰه الفرص والمناسبات المواتية. كيانُها بأكمله قادها لتجلسَ على حاشية مقعده، وتقبّلَه في رقَّة. لم يسبق قطّ لأيِّ كوميديا رومانسيَّة، على الطريقة الإنجليزيَّة، أن جرؤت على تقديم مشهدٍ أوَّلَ بجمال مشهدنا هذا. ولم تندم لوسي على شيء.

ومنذ تلك اللحظة التي تنطوي على شيءٍ من الإعجاز، ما افترقَ أندري ولوسي. وكان يُفترض أن يسافر أندري إلى نيويورك، بعد خمسة عشر يومًا، مستهلَّ شهر مارس، للوقوف على ورش سيلفر رينغ. كانت هي تضع آخر اللمسات على مونتاج آخر أفلام المخرجة فون تروتا، وليس لها في الأفق من عملٍ غير فيلم مايوين بعد أكثر من شهر. فعرض عليها أن يذهبا معًا؛ سيكون لديهما ما يكفي من الوقت، فيذهبان لتحيَّة طيور البطّ في سنترال بارك، ويزوران لوحات بول كلي في متحف غوغنهايم، بل وحتى يحضران مسرحيَّةً موسيقيَّة في برودواي. وكان أن قبلتْ بلا تردُّد، شريطةَ أن يصطحبها إلى موقع بنايته. كانت تلك طريقتها في التعبير له عن رغبتها في أن «تكون جزءًا من حياته». ولمَّا عادت إلى المنزل، عجَّلت بإعداد حقيبتها في مرحٍ، تُرى أيّ كتابٍ أحمله معي؟ كويتزي، جيِّد؛ وأيضًا، مجموعة أعمال رومان غاري في طبعة لابلياد، ليست ثقيلة جدًّا؛ وهذا الفستان الأسود، نعم، إنَّه يناسبني تمامًا؛ وهذه التنُّورة قصيرةٌ جدًّا، لكنَّني سأرتدي معها جوارب تحتيَّة، إنَّ شهر مارس شديد البرد. ولشدَّ ما أبهجتها استعادةُ كلّ تلك الصغائر. وقبِل لوي بأن يُعهد به إلى جدَّته بضعة أيَّام.

كانت الرحلة مضطربة، لا بل مرعبة. بينما توشك الطائرة أن تنشطر نصفيْن، ويكاد الخوف يُفقد لوسي زمامَ أمرها بالجملة، لم تكفّ عن الحديث إلى أندري مبتسمةً. وقد أحبَّت نيويورك

التي لم تكن تعرفها قدر معرفته هو بها. وكان يفترض أن يمكثا فيها ثمانية أيَّامٍ، وإذا بإقامتهما تمتدُّ خمسة عشر يومًا. عند مصفِّف شعرٍ في حيّ إيست ڤيلاَّج، باهظ الأسعار، قصَّت شعرها الكستنائيّ قصَّةً قصيرةً جدًّا. «لِعلمِكَ، أبدًا ما كنت لأجرؤ على هذا من قبل. أنا أُدشِّنُ حياةً جديدة». بالطبع، كان ذلك أشنع كليشيه يمكن أن يُقال. لكنَّها عرفت، بالتواطؤ مع أندري، كيف تخفِّف من شناعته. كانت تحسّ بمدى قدرته على بثِّ الاطمئنان فيها، ومدى إمكان أن يتحابَّا.. أجل، يتحابَّا.

ثم إنَّهما عادا إلى باريس، وعلى مهلٍ، انقضّ كلّ شيء. شيئًا فشيئًا، إزاء حماسة أندري، وذراعيْه اللتين تريدان أن تطوّقانها، والقبل التي يقصفها بها في كلِّ حينٍ، وأمام أصدقائه الذين يصرّ إصرارًا «على أن يعرضها» أمامهم كغنيمة حرب، بدأت تتراجع. لمَ ترفضُ القطط التي تمسك بالفئران أن تتركها تحيا؟ لم تكن مستعدَّةً لمثل هذا الغزو؛ كانت تفضِّل التِزاماتٍ أقلّ، تُفضِّل علاقةً أهدأ وأمهلَ. نَهمُ يديْه، يدَي الرجل، يُفزعها؛ جشعُهما الماحق يقمعُ انبثاق رغبتِها. وهو لا يريد أن يفهم، وما لبثت هشاشتُه التي حرص على إخفائها أن برزت.. وهي لا تريد أن تضطلع بدور المُطَمئِنَة، كلاَّ، ليس عليها أن تنصاع لشهوته الطاغية، ليس عليها أن ترضي نرجسيَّته الجريحة، وإن كان بسبب السنّ، كما ليس عليها أن تتحمَّل تلك النظرة، نظرة جروِ الملجأ الذي يجهش باكيًا: «خُذيني، خُذيني». لمَ يرفض أن يرى حقيقةَ أنَّه يوقعها في الفخِّ، فخّ ذراعيْه، وفخّ سريره؟ لمَ عليها أن تشعر بالذنب إذ تصدُّه، والحال أنَّ صدّه هو آخر رغباتها، وأنَّ كلّ ما تريده هو ألاَّ تشعر بثقل الواجب؟

ثم أتى ذاك المساء مستهلَّ شهر يونيو، وذاك العشاء الأخير، العشاء الذي أراده أندري طريقًا لاستعادتها وقد صار كلّ ما بينهما أثرًا بعد عيْن، فألحَّ على أن يكون اللقاء في مطعم كيم، وكأنَّما كان يرجو أن يمارس عليها الديكورُ الدارِسُ، الديكور الهجين بين فنِّ الزّن والغانغام ستايل، شيئًا من سِحرٍ؛ فتكلَّمَ، وتكلَّمَ.. تكلَّمَ أمام طبق الباستا بالكْريمة الآخذ في البرودة، تكلَّم ولم ينصت إلاَّ إلى نفسه، مستسلمًا لافتتانه بالكلمات، وكلَّما صاغ جملةً جميلةً صيَّرَ الوداعَ أشنَعَ. وكانت هي تنظر إليه. تناوَلَ يدَها، فتركتها له، وليس في نفسها من رغبةٍ غير أن تكون في مكانٍ آخر. إنَّ البرد يستقرّ في قلبها، تبتسمُ بلا حنقٍ لهذا الرجل الجذَّاب الذي شاخَ من جديد، لكنْ لمَ لا يُدرك أنَّها أصلاً قد انصرفت؟ ربَّما لم يكن لديها ما يكفي من طاقة، أو ببساطة ما يكفي من حبٍّ - يعلم الربّ كم تمقتُ هذه الكلمة. على الرَّغم من كلِّ شيءٍ، لقد اضطلع أندري كما ينبغي بدور المَرهَم، اضطلع به الوقتَ

الكافي لكي يندمل الجرح، والآن وقد التأم الجرح، فقد صار المرهم مُرهِقًا، وزنخًا... لكنْ، كلاَّ، إنَّها مخطئة. لمَ تقرأ بدايتهما الجميلة في ضوء نهايتهما المريرة؟ ليست هي من تلاعبَ به، وإنَّما هو من لم يعرف كيف يكون عند مستوى تطلُّعاتها.

ألحَّت على اقتسام الفاتورة، كي تُبيّن له بكلِّ الطرق الممكنة أنَّهما صارا الآن «هو وهي»، ولم يعد ثمَّة «نحن». وإذَّاك مدَّ لها كتابًا صغيرًا: - الخَلل، لـ ڤيكتور ميزل. ذكَّرها الاسم بشيءٍ ما: - هاكِ، سوف يروقك...

فتحت الكتاب عشوائيًّا، فوقعت على هذه العبارة: «الأمل يدفعنا إلى الانتظار في صعيدِ السعادة. لنُصِب ما نأمله، وسوف نلجُ بهوَ الشقاء»! يا إلٰهي، مجازاتٌ، بدايةٌ سيِّئة. ثم في موضعٍ أبعدَ: «الإغواء كان دومًا مهارةً شائعة، أمَّا الانفصال ففنٌّ رفيع».

هي فنَّانة. فلتسلُّك إذن مسلك الفنّ الرفيع. قبِلَت الهديَّة وانصرفَت.

حدث ذلك منذ ثلاثة أسابيع، مدَّةً قبل أن يسافر أندري إلى مومباي، لكي يشرف على ذاك الهراء المسمَّى سويارا أو سُيارا تاور، ذاك الهراء الذي ما انفكّ يمتدح فخامتَه في الوقت الذي لم تعد هي تهتمّ بأيٍّ من بناياته.

على الشاشة ما يزال الإيميل الذي أرسله يظهر باللون الأزرق وبحروفٍ بارزة.

انتهى بها المطاف إلى فتحه. رسالةٌ ليس فيها جملةٌ واحدة لم تبدُ لها ثرثارةً، جوفاء، سخيفة. لم تؤثِّر فيها كلمةٌ، لكن بلا شكّ ما كان ليؤثِّر فيها شيء. «وددتُ لو أقطع معك الطريق أطولَ ما يمكن، لا بل أن أقطع معك أطول الطرق الممكنة». تفاهات. «لن أعرف ما إذا كنتِ لتغرمي في نهاية المطاف بنظرتي العاشقة الراغبة المعلَّقة بك». رفعت عينيْها إلى السماء. وأخيرًا، هذا الإنكار المثير للشفقة: «لا أنتظر جوابًا».

وعلى أيِّ حالٍ، ما كانت لوسي تفكِّر في الردّ.

فجأةً، رنَّ الهاتف. رقمٌ مخفيّ. كيف يجرؤ على الاتِّصال بها، في عزِّ الليل، ولوي نائمٌ في غرفته؟ أجابت لوسي على الهاتف، ساخطةً، لا لشيءٍ إلاَّ ليتوقَّف الرنين. لكنْ في الجانب الآخر من الخطّ أتاها صوتُ امرأة: - لوسي بوغارت؟

أجابت لوسي بصوتٍ خفيض: - نعم.

- معك المفتِّشة موبا. الشرطة الوطنيّة.

- لكنْ... لا بدَّ أنَّك مخطئة.

- ألست من مواليد 22 يناير 1989 بمونروي؟

- بلى.

- حسنًا. نكاد نبلغ صعيدَ شقَّتِك. اتركينا ندخل فضلاً.

- لكن، لمَ؟ ستوقظون ولدي.

- سوف نشرح لكِ. لدينا مذكِّرة إحضار، أنا أدسّها لكِ الآن من تحت الباب. افتحي فضلاً.

دافيد

23 مايو 2021

الجادَّة الثالثة، نيويورك

التينة عطشى. أوراقها السمراء تلتفّ يابسةً حول نفسها، وبعض الأغصان قد ماتت. إنَّها، في أصيصها البلاستيكيّ، الخرابُ مجسَّدًا، بقدرِ ما يناسبُ الفعلُ «جسّدَ» نبتةً خضراءَ. يقول دافيد لنفسه «إنْ لم يُعجَّل بريّها، فسوف تموت». منطقيًّا، لا بدَّ أن نصادف، في نقطةٍ ما من مسار الزمن المتَّصلِ، لحظة انقلابٍ في مجرى الأحداث غير قابلةٍ للنكوص، لحظة يصير فيها متعذِّرًا على أيٍّ كانَ إنقاذُ التينة. يوم الخميس، في الخامسة مساءً وخمسٍ وثلاثين دقيقة، سيروي الشجرةَ أحدٌ ما، فتنجو؛ ويوم الخميس، في الخامسة مساءً وستٍّ وثلاثين دقيقة، سيأتي شخصٌ ما، أيًّا كانَ، فيصوِّب نحوها قنّينة ماءٍ، لكنْ، كلاَّ، كلاَّ يا عزيزي، هذا لطفٌ منك؛ لكنْ لا، ربَّما لو أتيت قبل ثلاثين ثانية لكنتُ قلتُ لك نعم، لكن الآن، ماذا تظنُّ؟ إنَّ الخليَّة الوحيدة التي بوسعها أن تطلقَ الشرارةَ وتُحرِّكَ الآلةَ، حقيقيَّةَ النوى الأخيرةَ الباسلةَ التي ما يزال بمقدورها أن توقظ جاراتها، أن تصرخ فيهنَّ «هيَّا يا بنات، لنتحرَّك، لننتفض، لا للاستسلام»، تلك البقيَّةُ الباقيةُ قد غادرتنا، وإذن قد أتيتَ بعد فوات الأوان، بقنّينتك الحقيرة، هيَّا، تشاو تشاو. بلى، عند نقطةٍ ما من مسار الزمن.

- دافيد؟

صوتٌ ذكوريٌّ عذبٌ استلَّ دافيد من منامه النباتيّ والوجوديّ. قام، وعانقَ رجلاً طويلاً، في الخمسين من عمره، أي بالكاد يفوق دافيد بسنواتٍ، ومع ذلك قد ابيضَّ منه الشعر، رجلٌ يشبهه شبهَ من يشاركه جزءًا كبيرًا من الحمض النوويّ.

- أهلاً يا بول.

- كيف حالك يا دافيد؟ ألم ترافقك جودي؟

- ستلحق بنا ما إن يتسنَّى لها الظرفُ. إنَّها تعطي درسًا في معهد غوته، ولم أشأ أن تؤجِّلَه.

- حسنًا.

تبع دافيد أخاهُ في المكتب. مكتب فرنسيّ على الطراز الأمبراطوريّ، خِزانات من خشب السنديان، مصابيح جدرانٍ من طراز الآر نوڤو الفرنسيّ، ستائر قانيةٌ من المخمل السميك، والنافذة تطلُّ على منظرٍ رائع، من ليكسينغتون ستريت، ومباشرةً أمامهما، عند زاوية الجادَّة الثالثة، مدخل نادي السكواتش الذي يلعبان فيه يوم الجمعة. المكتب يواري على نحوٍ جيِّدٍ حقيقتَه. فهو في الواقع عيادةُ طبيبِ أورامٍ، من أفضل الأطبَّاءِ في تخصُّصه.

- تريد قهوة يا دافيد؟ أو شايًا؟

- قهوة.

دسَّ بول كبسولةً في ماكينة القهوة، ووضع تحت المُقطِّر فنجانًا إيطاليًّا أنيقًا، واستطاع أن يتفادى نظرةَ أخيه بضع ثوانٍ أُخر. حزر أنَّ دافيد، إذ سمعَه ينطق باسمه عدَّة مرَّاتٍ قد فهِم. في أفلام الحرب، حين ينزفُ أحد الجنود دمًا، فيقول له العريف إنَّ الأمور على ما يرام، لا تقلق يا جيم، سوف تنجو؛ فإنَّ ذلك لا يكون فألَ خير. البلاغة الكيِّسةُ، والإسبريسو الإيطاليّ برغوته الناعمة، وإرجاء الحديثِ ما أمكنَ، كلّها علاماتٌ تُنذرُ بالأفظع.

- تفضَّل.

هرش دافيد رأسه، وتناول الفنجان بطريقةٍ ميكانيكيَّة، ثم وضعه من فوره على المكتب.

- هيَّا. أنا مستعدّ.

- حسنًا. تذكرُ يا دافيد أنَّنا، أمس، أثناء قيامنا بفحص المنظار قد أخذنا عيِّنة أنسجة... لقد وصلتنا نتيجة التحاليل.

أبعد بول الفنجانَ، وأخرج صورًا بالأشعَّة السينيَّة من مظروفٍ، ثم بسطها على المكتب أمام أخيه.

- هذا ما كنت أخشاه، إنَّ الورم الموجود على مستوى مؤخِّر البنكرياس، في مقابل المعي الدقيق، هنا، هو ورمٌ خبيث. ورمٌ سرطانيّ. ولم يجتَح الورم الأوعية الدمويَّة والعقد اللمفاويَّة المجاورة فحسب، بل إنَّ ثمَّة انبثاثات في الكبد والمعي الدقيق. إن استعملنا المصطلح الطبِّيَّ، فأنت تعدُّ في المرحلة الرابعة.

- المرحلة الرابعة؟ بمعنى؟

- الحالة متقدِّمة جدًّا، بحيث لا يمكن التفكير في عمليَّة استئصال للبنكرياس والطحال.

ظهرت على دافيد معالم الصدمة. عَسُر تنفُّسُه. وكان بول قد أعدَّ للموقف كأسَ ماءٍ، فمدَّها إليه. رفع أخوه عينيْه إليه. وكانت بداية كلّ هذا، أنَّ بول لاحظ في بياض عينيْ أخيه ميلاً مرَضيًّا إلى الاصفرار، فألحّ عليه بالفحوص.

عبَّ دافيد نفَسًا عميقًا، وسألَ: - التكهُّنات؟

- بما أنَّنا لا نستطيع القيام بعمليَّةٍ، فسوف نلجأ في آنٍ إلى العلاج الكيماويّ والعلاج الإشعاعيّ، كي نقلِّص حجمَ الورم.

- التكهُّنات يا داڤيد؟

- كيف أقول؟ إنَّه ورمٌ قذر.

- ممَّا يعني؟ كم نسبةُ حظوظي؟

- مدَّة خمس سنواتٍ، بنسبة عيش 20 بالمائة، هذا ما تقوله التقديرات. لكنَّ التقديرات لا تعني شيئًا. سنحاول تجاوزَها. لقد حجزتُ لك موعدًا عند صول حتى نستأنس برأيٍ آخرَ. صول هو الأفضل. سيفحصك مستعجَلاً، يمكن أن تذهب عنده ابتداءً من غدٍ، ولقد أرسلت إليه نتائج تحاليلك وصُوَر الرنين المغناطيسيّ.

- لا داعي لذلك يا بول. أنا أثق فيك. لنفعل كما أشرتَ. متى نبدأ؟

- متى ما استطعتَ. أنت الآن في عطلةٍ لمدَّة ثلاثة أشهر على الأقلِّ. أعلِم شركتك بذلك. هل لديك تأمينٌ صحِّيٌّ جيِّد؟

- أظنُّ ذلك. لكنَّني لم أتحقَّق يومًا. بلى، مؤكَّد.

قام دافيد من مقعده، وخطا بضع خطواتٍ. إنَّه يرتجف غضبًا؛ لكنْ، أهوَ الغضبُ؟ جسده بأكمله نَهبٌ للخوف. إلٰهي! لمَ نرجعُ دومًا إلى الأسابيع الماضية، لمَ لا يستطيع أن يقاوم الرغبة في الوقوف على مدى عماه؟ كلّ تلك الأيَّام التي قضاها خليَّ البال، غارقًا في ملذَّات الجهل، في العشاء والتنكيت، واصطحاب الأولاد إلى السينما، ومضاجعة جودي، ولعب السكواتش مع بول، في الوقت الذي كان يمكنه، ربَّما منذ ثلاثة أشهر فقط، أن يقوم بفحص سكانر، كي يُشخَّص عنده المرض، وربَّما ينقذ حياته؟ يتساءَل دافيد عمَّا إذا كانت قد ظهرت عليه إشارةٌ منذرةٌ، ورفض الانتباه إلى النذير.

- متى بدأ المرض؟

- لا أدري يا دافيد. مستحيل أن نعرف. ربَّما كان الورم هنا منذ سنة، أو ربَّما من شهريْن. لا أحد يستطيع أن يعرف. سرطانات البنكرياس لا تتشابه.

- ألم يكن بالإمكان إجراء عمليَّةٍ منذ شهريْن؟ تذكر، بعد رحلتي الجحيميّة من باريس إلى نيويورك، حين سحقت الرياح طائرتي، كنت أشعر بالتعب؟ كما أنَّ بَولي كان غامقَ اللون. ولم أجد وقتًا لإجراء فحوص.

- لا أدري. ما أنا متأكِّدٌ منه الآن، هو أنَّ علينا أن نركِّز على ما بين أيدينا. وما يزال بوسعنا أن نفعل الكثيرَ.

- ثمَّة علاجاتٌ جديدة؟ أدوية؟

- نعم، سنجرِّب كلّ ما يوجد، وأيضًا، إن رغبتَ، نجرِّبُ موادَّ في طور الاختبار، أدويةً ثوريَّةً لم تسوَّق بعد، أقسم لك.

بول يكذب، لكنَّ الكذب أفضل من أن يقول لأخيه، كلاَّ يا دافيد، لا جديدَ، لا حلّ لنا مع هذا العفن، ولم نكتشف بعد دواءً معجزًا، ولسنا حتى نعرف لمَ يفلح هذا البروتوكول مع هذا المريض، ولا ينفع مع ذاك.

- إنَّه سرطانٌ مؤلمٌ، أليس كذلك؟

- أؤكِّد لك أنَّنا سنبذل كلّ ما في وسعنا كي نقلِّل الألمَ ما أمكن أثناء العلاج. بالطبع، ستكون ثمَّة أعراضٌ غير مرغوبٍ فيها. بالتأكيد. لكنْ لن نحصل على شيءٍ إن لم نبذل شيئًا.

أعراضٌ غير مرغوبٍ فيها. هراء. نعم يا شقيقي، نعم، سوف تتقيَّأ مصارينك، وتسيلُ من كلِّ ثقبٍ فيك، وتفقد شعرك، وحاجبيْك، وأيضًا عشرين كيلوغرامًا، ثم؟ ثم، كلّ ذلك لكي تكسب ربَّما شهريْن أو ثلاثة أشهرٍ موقوفة التنفيذ، 20 بالمائة مدَّة خمس سنواتٍ، 20 بالمائة نعم، لكنْ ليس لمن هو في حالتك يا أخي الصغير، أنت حظوظك لا تبلغ حتى واحدًا من عشرة. سُحقًا، حكمٌ جائر، مقرف... سحب بول مقعده، وجلس بجانب دافيد الذي ظلَّ ساكنًا، مصعوقًا، مُطفأً. وضع بول ذراعه على كتف أخيه الغائب، وكان يرجو في حركته تلك أن تهدِّئ من روع المريض، كما كان يتأمَّل في أن تكون يده وحدها كفيلةً بأن تمتصّ الظلماتِ وتسحَقَها، فالحالُ أنَّه، وإن بدا أمرًا أحمقَ، على الرَّغم من سنوات الممارسة ومئات المرضى الذين قضوا، إلاَّ أنَّ كلّ ذلك لا يمنع من انبثاق فكرٍ سحريّ، فكر خوارقَ، حتى من أعماق أشدِّ الأدمغة عقلانيَّة. وانثالت على باله بغتةً الآن ذكرياتٌ! ولِمَ الآن؟ ذكريات الضحكات في ملعب البولينغ في بيوريا، أيَّام كان دافيد يرمي الكرة كيفما اتَّفق، وبأيِّ طريقةٍ شاءَ، ودومًا يحقِّق ستريك. أيّ سعدٍ يصيبُه دومًا هذا الوغد! ورائحة حلوى المارشمالو المشويَّة على الغاز في بيت العمَّة لونا، والعطر السكَّريّ للتُّوت البرّيّ عند تلك الشقراء المدعوَّة ديبورا سبينسر التي كانا مغرميْن بها معًا، وانتهى بها المطاف في فراش ذاك الأحمق المدعوّ توني الديناصور.. ولمَ كانوا يسمُّونه الديناصور؟ وخطاب دافيد يوم زواجه الأوَّل، زواجه بفيونا الذي كان كارثةً، وأيّ كارثة! خطاب دافيد كان شديد الحماقة والفكاهة، ولفرط حماقته وفكاهته كان رائعًا؛ وميلاد ابنه الذي سمَّاه أيضًا دافيد؛ ودافيد الصغير نائمًا في حضن عمِّه دافيد الذي يبكي من فرط التأثُّر؛ وكلّ تلك الأشياء التي ستصير بدَدًا، كلّ تلك الأشياء التي سيغمرها السرطان بدوَّامته السوداء؛ وها هي ذي الدموع تصعد، فجأةً إلى عينيْه، وبغتةً ينهار باكيًا. اللعنة، ما هذا؟ اختصاصيّ سرطانٍ ينتحب هكذا؟ استدار بول، وتناول منديل ورقٍ، وتمخَّط فيه بصخبٍ.

اقتحم العيادةَ شعاع شمسٍ. ليس هذا بأفضل الأوقاتِ، لكنْ ليقتحمِ الشعاعُ المكانَ، ليُصبغ دافيد بلونه الذهبيّ، إنَّه شعاعُ حياةٍ، معجزةٌ عابرةٌ تتجلَّى حين تنتقل هذه الشمس الملعونة إلى الغرب بين ناطحتَي سحابٍ في الجادَّة الثالثة، على الساعة 17 و21 د. معجزةٌ تدوم اثنتَي عشر- دقيقةً بالضبط، في الشتاء كما في الصيف. في الساعة 17 و33 د، يكون كلّ شيءٍ قد انتهى.

- حسنًا يا دافيد. لا أنتظر مريضًا آخر. سوف ننتظر جودي، وأشرح لك البروتوكول.

شرح بول بتفصيلٍ، واستمع إليه دافيد من غير أن يقاطعه. لكنْ كان عليه في اليوم التالي أن يشرح له من جديد، لأنَّه لم يكن يصغي إليه. كان دافيد يفكِّر في وجه جودي، في نظرتها التي تعكس قلقًا لا نظيرَ له، في عينَي طفلَيْه حين يضطرّ إلى أن يُبيّن لهما أنَّ بابا مريض. غريس وبنجامان، عزيزيَّ، ينبغي أن تتحلَّيا بالشجاعة، وعليكما أن تعينا أمَّكما على الصبر، اتَّفقنا؟ فكَّر في تأمينه الصحِّيّ، تأمينٌ ممتازٌ بلا شكّ، لكنَّهم سيحقِّقون ويعتبون عليه إخفاءَ عشر سنواتٍ من التدخين، بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من عمره؛ فكَّر في الألم المحتوم، وفي اضمحلال جسده آخر أيَّامه، لا بل فكَّر حتى في إحراق جثَّته بعد الموت، وفي الموسيقى التي ستُعزف للأصدقاء في جنازته، ينبغي أن تكون موسيقى لطيفةً يا بول، شيءٌ من الروك، أو البلوز، لكنْ ليس بالمطلق لحنًا جنائزيًّا صادمًا ألَّفه موسيقيٌّ ما؛ فكَّر حتى في مصاريف دراسة طفلَيْه، وقرض الشقَّة الذي سدَّده قبل أوانه، يا له من أحمق، في حالة الوفاة يسدِّد التأمينُ قيمة القرض كاملةً! فكَّر في كلّ ما هو آتٍ، وفي كلِّ ما سيأتي بعد الآتي؛ فكَّر حتى في أشياءَ غريبة.

- بالمناسبة يا بول... في صالة الانتظار...

- نعم؟

- التينة. ينبغي أن تسقيها.

الساعة الآن 17 و33 د. الشمس تغرب.

*

الخميس 14 يونيو 2021، س 22 و28 د.

مستشفى مونت سيناي، نيويورك

خلف غرفة الانتظار بعيادة بول، لم تمت التينة. لكنَّ دافيد لم يعُد إلى هناك، فلن يرى مرَّةً أخرى مرور الشمس بين ناطحتَي السحاب، ولا حتى الشمسَ. إنَّ الغرفة رقم 344 بمستشفى مونت سيناي تقع شمالاً، ولا بدَّ أن يخليها بعد بضعة أيَّامٍ. لقد استقرّ الموتُ في ملامحه المهزولة.

وضدَّ الألم يجرَّبُ فيهِ نانو - دواء طوَّرَه باحثون فرنسيُّون كمكمِّلٍ للمورفين، دواء لا يفرض زيادة الجرعة باستمرار. استسلم الفريقُ الطبِّيّ ضدَّ السرطان. شديد الخبث والانتشار، وقد بلغ طورًا بعيدًا.

دُقَّ البابُ، ولا من مُجيب: بجانب دافيد، فاقدِ الوعي، ترقد جودي على المقعد وقد أرهقتها ليالي السهر. الأطفال عند بول منذ ثلاثة أيَّامٍ. ينفتح البابُ بهدوءٍ، فيدلف منه رجلان في بذلتيْن سوداويْن، على كلٍّ منهما شارةٌ مذهَّبة. في صمتٍ يميل أوَّلُ الرجلين على دافيد، فيأخذ بعضًا من اللعاب من بين شفتيْه، ثم يضع العود الذي التقط به العيّنة في أنبوبه، ويغادر الغرفة. يُخرج الثاني هاتفًا، ويلتقط صورةً للمحتضر المُؤنبَب، فيرسل الصورةَ، ثم يجلس على كرسيٍّ عاجزًا عن إزاحة نظرته من على الوجهِ الشاحبِ.

الغسّالة

10 مارس 2021

الساحل الشرقيّ للولايات المتَّحدة الأميركيَّة، المياه الدوليَّة

42 گ 8' 50" W "9 '25 "65 N

كلّ الرحلات الجوّيَّة الهادئة تتشابه. أمَّا الرحلات المضطربة فلا واحدة منها تشبه الأخرى. كانت الساعة تُشير إلى 16 و13 د حين أبصرت الرحلةُ AF006 / باريس - نيويورك، عند نوفا - سكوشا، حاجزًا قطنيًّا عاصفًا ينتصبُ أمامها. وما زالت الجبهة الغائمةُ تشتدّ وترتفع بسرعةٍ هائلة. ما تزال بعيدةً عن الطائرة بنحو ربع ساعةٍ من الطيران، لكنَّها تمتدّ، إنْ شمالاً أو غربًا، على مسافة مئات الكيلومترات، في شكل قوس دائرةٍ، وتعلو بمقدار 45000 قدم. وإنَّ طائرة البوينغ 787، التي تحلِّق على ارتفاع 39000، وتوشك أن تبدأ الهبوط نحو نيويورك، لن تستطيع الإفلات من العقبة، وقد ملأ القمرة هياجٌ مفاجئ. مساعد الطيَّار يقارن الخرائط ورادار الطقس. لم ترد إشارةٌ إلى الكتلة الباردة الغائمة، كما أنَّ جيد فافيرو لم يكن مندهشًا فحسب، وإنَّما قلقًا.

إنَّ الجدار السميك، الرماديّ الذي تتقزَّح قمَّتُه بفعل الشمس البرَّاقة، يتقدَّم نحوهم بسرعةٍ هوجاء، ملتهمًا بشراهةٍ الطبقة الغماميَّة التي تغذِّيه وتسندُه. القائد ماركل يعرض تردُّدَ بوسطن، يفحص الأدوات، رادارَ الطقس الذي يتلوَّن بالأحمر عند 120 عقدة بحريَّة. يهزّ رأسَه، يضع فنجان القهوة، ويَدخل إرسالُ بوسطن على تردُّده.

- إلى كلّ الطائرات فوق بوسطن. بسبب الظروف الاستثنائيَّة على الساحل الشرقيّ، كلُّ المجالات مغلقة، باستثناء المجال KJFK. منذ نصف ساعةٍ لم تقلع أيّ طائرةٍ من الساحل الشرقيّ. تطوَّرت الوضعيَّة سريعًا، فلم نستطع إخطارَ أيَّة طائرة. KJFK كانارسيه ما زال مفتوحًا للهبوط.

- إلى برج المراقبة في بوسطن، مرحبًا، من الخطوط الفرنسيَّة 006، المستوى ثلاثة تسعة صفر، في الطريق إلى كينيبونك. أمامنا وحشٌ. نسأل عن الاتِّجاه ثلاثة خمسة صفر على 80 عقدة بحريَّة القادمة.

- إلى الخطوط الفرنسيَّة 006، من برج المراقبة بوسطن. لكم حرِّيَّة المناورة. اتَّصلوا الآن بمطار كينيدي على 125.7. باي باي.

تجهَّم ماركل، وبَصر بالأفق ينغلقُ، من الشمال إلى الجنوب، انغلاقًا لا فكاك منه. هذه رحلته ما قبل الأخيرة فوق المحيط الأطلنطيّ، وأبت السماء إلاَّ أن تخلِّدَها بذكرى لا تمَّحي. اتَّصل بالمطار.

- إلى كينيدي أبروش، من الخطوط الفرنسيَّة 006، لدينا ما يكفي من الكيروسين، لكي نسايرَ الكتلة الغماميَّة بأن ننعطفَ جنوبًا حتى واشنطن.

تكَّةٌ، وصوتُ امرأةٍ أخرى، صوتٌ أَحَدٌّ.

- معذرة يا 006. سَلبي. الأوضاع الجوِّيَّة نفسها حتى ما وراء نورفالك. بل ربَّما الوضع الآن جنوبًا أسوأ. انزلوا متى استطعتم إلى الوحدة ثمانية صفر، واستأنفوا الطريق إلى كينيبونك. احفظوا الإعدادات.

هزَّ ماركل رأسَه، وقطع الاتِّصال، فتناول الميكروفون، ثم أعلن على الركَّاب، بصوتٍ مُطَمْئنٍّ، بالإنجليزيَّة بدايةً، ثم بفرنسيَّةٍ ليست شديدة الدقَّة: - معكم ربَّانُ الطائرة، عودوا إلى مقاعدكم فورًا، واربطوا الأحزمة، وأقفلوا كلّ أجهزتكم الإلكترونيَّة. سنجتاز منطقةً شديدة الاضطراب. أُكرِّر: شديدة الاضطراب. ضعوا حقائبكم وحواسيبكم تحت المقاعد أمامكم أو في الأماكن المخصَّصة لها. لا تحتفظوا بأيِّ سائل، واطووا الطاولات أمامكم. إلى الطاقم، احرصوا على سلامة الركَّاب والمقصورة، ثم عودوا إلى مقاعدكم. أُكرِّر، بعد التأكُّد من سلامة الركَّاب، عودوا إلى مقاعدكم فورًا.

الغيمةُ العاصفُ تقترب، إنَّها ما يُسمَّى سحابةً خارقةً، ولكنَّها ليست كالسحب الخارقة المعتادة. ليست سندانًا وحيدًا يرتفع حتى أعالي الجوّ، وإنَّما عشرات السنادين المتضامَّة، كأنَّما

ترفعُها يدٌ خفيَّةٌ، تندمجُ في طبقة التروبوبوز. لا بدَّ من أنَّ البواخر في المحيط قد أحاط بها ضيقٌ مروّع. طيلة عشرين عامًا قضاها في قطع المسافات الطويلة، لم يرَ ماركل قطُّ شيئًا كهذا. إنَّها عاصفةُ السنة، على الأقلِّ. القبابُ الستراتوسفيريَّة ترتفع بعلوّ ستَّة عشر كيلومترًا. يمكنه أن يُجرِّب الانسلال بين عموديْن، لكنَّه لن يعمل إلاَّ على الارتماء في العمود الذي يليهما. رادار الطقس يُظهِرُ الآنَ خطًّا طويلاً أحمرَ: جدارٌ من ماءٍ وجليد.

قال جيد قلقًا:

- أرأيت بأيِّ سرعةٍ يكبر؟ سنصطدم بتيَّارٍ منخفضٍ مهولٍ ما إن نبلغ الجناحَ. لن نتمكَّن من العبور.

قال ماركل في نفسه إنَّ جِيد محقٌّ، مع أنَّه لم يقم برحلاتٍ فوق الأطلنطيّ إلاَّ مدَّة سنةٍ، ولم يبدأ الرحلات الطويلة إلاَّ منذ سنواتٍ ثلاث. شغَّل الميكروفون، ونادى المقصورة مجدَّدًا، بنبرةٍ فكهة، خاليةٍ من الدراما: - هللو فولكس، معكم من جديد القائد ماركل، أطلب منكم مرَّةً أخرى أن تلزموا مقاعدكم، وتربطوا الأحزمة، وتتأكَّدوا من أنَّ أحزمةَ الأطفالِ بجانبكم مربوطة. أطفئوا جميع الأجهزة الإلكترونيَّة، أُكرِّر. واردٌ جدًّا أن نواجه مطبًّا هوائيًّا في الدقيقة التالية. إلى كلِّ الطاقم، إن تأكَّدتم من سلامة الركَّاب، فعودوا من فضلكم إلى مقاعدكم فورًا... أنتظر التأكيد منكم.

قالت قائدة المقصورة:

- تأكيد، تمَّ تأمين كلّ شيء.

- حسنًا، قد يكون الأمر مثيرًا، وأؤكِّد لكم أنَّكم ستذكرونه دائمًا، وأؤكِّد لكم أنْ لا خطر يواجه أحدًا منكم، طالما تلزمون مقاعدكم وتربطون أحزمتكم. أمَّا هواةُ الملاهي، فأقول لكم هذا أشبه بلعبة الجبال الروسـ...

فجأةً، وقبل حتى أن تبلغ طرف الكتلة الساخنة، عُدمت البوينغ الهواءَ الذي يسندها، فغاصت. على الرَّغم من نظام العزل في باب القمرة، إلاَّ أنَّ ماركل وفافرو خالا نفسيْهما يسمعان صراخ الركَّاب.

عانت الطائرة عشر ثوانٍ لا نهاية لها من السقوط الحرّ، قبل أن تلج الموضع الأسوأ من الغيمةِ العاصفِ، جنوبَ غربيّ العمود، منحرفةً انحرافًا رهيبًا، بزاوية ثلاثين درجة فرضها عليها مساعدُ الطيَّار الذي أخذ بزمام القيادة اليدويَّة. وعلى الفور، طُوِّحت البوينغ وسط دوَّامات الغيمة، وعلى الفور أُشعلت أضواء قمرة القيادة، إذ حلَّ الظلامُ، ظلامٌ كالسخام، ودوَّى صوتُ فرقعةٍ مرعب: مئاتٌ من حبَّات البَرَد هائلة تقصفُ النوافذَ، مُخلِّفةً آثارها، هنا وهناك، على الزجاج المصفَّح. وبعد لحظاتٍ بدت بلانهاية، وعلى الرَّغم من هبَّات العاصفة، بلغت البوينغ التيَّار المنخفض الساخنَ، وكسبت شيئًا من الارتفاع؛ وهذه المرَّة عمَّ شعورٌ هائلٌ شبيهٌ بالانسحاق عند ذيل الأرجوحة الأفعوانيَّة.

مسمَّرًا إلى مقعده، دفع ماركل بالمولِّديْن الكهربائيَّيْن إلى حدَّيْهما الأقصى، إذ، أجل، ما هذا الزِّبل؟ إنَّ نطاق تقاربٍ بين مداريْن هو أمرٌ مقبولٌ في رحلةٍ بين ريو ديجانيرو ومدريد، نحو الإكوادور، لكنْ هنا، ما الذي أتى بهذه القذارة في قلب المحيط الأطلسيّ؟ سُحقًا، ما أتعسه من مصير! إنَّ لنا أقوى المحرِّكات، وجناحيْن بمرونةٍ مذهلة، فكيف لنا أن نستسلم ونترك طائرتنا تنشطر نصفيْن كأيِّ طائرةٍ بائسة؟ أثناء دروس محاكاة الطيران، استطعنا مئات المرَّات أن ننجو: نجونا بعد أن توقَّفت المحرِّكات، وبعد أن تسرَّب الضغط، وبعد أن تعطَّلت حواسيب القمرة. اللعنة إذن إنْ هلكنا ما إن وقعنا في مطبٍّ حقيقيّ. لم يكن ماركل يُفكِّر في طفليْه، ولا في زوجته، كلاَّ لم يفكِّر فيهم بعد! ربَّما يموت الربابنة قبل أن يُتاح لهم الوقت لاستعراض شريط حيواتهم؛ كما لم يكن ماركل يفكِّر في الركَّاب، إنَّما كان همّه الآنيّ الوحيد هو إنقاذ هذه البوينغ الثقيلة المتراصَّة، فجعلَ يُكرِّر أفعالاً يحفظها عن ظهر قلب، راح يُكرِّرها ويُكرِّرها، معتمدًا على حركاته وعلى سنوات خبرته العشرين. لكنَّ هذا الواقع يظلُّ حدثًا جلَلاً.

ماركل وفافيرو، في اهتزازٍ وضيقٍ وشحوب، يُركِّزان على الآلات، يصارعان العاصفة، ولاحقًا سيُعرف أنَّها أخطر وأشدُّ عاصفةٍ شهدتها السنوات العشرُ الأخيرة، صمَّامُ التوربينة اليسرى يشير إلى خسارة 15 بالمائة، غير أنَّ الحقل الكهربائيّ الشديد يديمُ اشتغال الأجهزة على متن الطائرة. في نهاية المطاف، وسط ذلك الإعصار، قاومت الطائرةُ، واستطاعت أن تحافظ على وضعيَّةٍ شبه أفقيَّة، ثم انتهت إلى الاستقرار.. وحتى وإن لم يخفت قصفُ البَرَد، حتى إن كان الزجاج الأماميّ قد تشقَّق، إلاَّ أنَّ الزجاج التحتيَّ السميك لا يُظهر أيّ شقٍّ مُقلق.

وكلَّما خفتت الهزَّاتُ، ولو قليلاً، توجَّه ماركل بالكلامِ إلى المقصورة. وعلى الرَّغم من الضجيج المُصِمِّ الذي يسود وسط الركَّاب، فإنَّه حرص على ألاَّ يصرخ.

- نعتذر لكم أيُّها الفولكس عن هذه الاضطرابات. نحن مضطرُّون إلى مواصلة الطريق نحو نيويورك عبر هذا الركام من السحاب، وأن نبقى وسط هذه المغسلة على الأقلِّ...

فجأةً، سطعت مجدَّدًا على القُمرة شمسٌ وهَّاجةٌ، وأسرعت البوينغ بغتةً، وعاد الصمتُ، لقد صارت الاضطراباتُ خلفَهم.

فحص ماركل أجهزة التحكُّم مذهولاً. إنَّ الطائرة تطير كما ينبغي، تطير على أفضل ما يرام، هديرُها منتظمٌ، لكنَّ الأجهزة جميعها غير مضبوطة. على الرَّغم من السقوط المذهل، طيلة خمس دقائق كاملة، فإنَّ الارتفاع المسجَّلَ هو 39000 قدم، ولا يريد رادار الطقس أن يُشير إلى أيِّ اضطراب، المسار الظاهر هو اثنان ستَّة صفر. تناول ميكرفون الهاتف الداخليّ للمقصورة: - كما تلاحظون، لقد خرجنا اللحظةَ من الغيمة بدون خسائر. نرجو منكم التزامَ مقاعدكم حتى إشعارٍ آخر، وأن تُبقوا أجهزتكم الإلكترونيَّة مقفلة. إلى طاقم الطائرة، تستطيعون فكَّ الأحزمة. شكرًا. تقرير المقصورة، فضلاً.

أغلق ماركل الميكروفون، وأظهرَ كود حالة الطوارئ 7700 على جهاز الإرسال والاستقبال. وضع خوذته واتَّصل بمطار كينيدي.

- ماي داي، مايداي، ماي داي، إلى مطار كينيدي، هنا الخطوط الفرنسيَّة 006. اهتزازات أثناء عبورنا الركام، وتساقطات بَردٍ معتبرة، لا يوجد مصابون، لكنَّ الأجهزة لا تعمل، نجهل الارتفاع، والسرعة، الرادار لا يعمل، والزجاج الأماميّ تضرَّرَ ضررًا بالغًا.

من مطار كينيدي أتاه الآن صوتٌ ذكوريٌّ مندهش: - ماي داي، عُلِم، إلى الخطوط الفرنسيَّة 006. هل تستطيعون تأكيد كود جهاز الإرسال 7700؟

- إلى نيويورك، من الخطوط الفرنسيَّة 006، أؤكِّد، جهاز الإرسال 7700.

كرَّر الصوتُ الذي يستشفُّ فيه عدم فهمٍ عميق:

- إلى الخطوط الفرنسيَّة، من مطار كينيدي، أكِّدوا الإرسال على 7700. هل تقولون حقًّا الخطوط الفرنسيَّة 006؟

- بالضبط، الخطوط الفرنسيَّة 006، ماي داي. أؤكِّد الإرسال على 7700، لقد عبرنا غيمةَ برَدٍ هائلة، الزجاج الأماميُّ تشقَّق، ومؤكّد أنَّ قبَّة الرادار قد انكسرت.

انقطع الاتِّصال لحظاتٍ طويلة. التفت ماركل إلى فافيرو، الجامد في مكانه. ثلاث مرَّاتٍ أدخل كود الإرسال، ومع ذلك لا يستطيع كينيدي تمييزهم. فجأةً عاد الاتِّصال. وهذه المرَّة أتاهم صوتُ امرأةٍ، أقلّ مرحًا من الأولى، وأقلّ لُطفًا.

- إلى الخطوط الفرنسيَّة 006، من مطار كينيدي. هنا مراقبة الحركة الجوِّيَّة، ما اسمُ ربَّان الطائرة من فضلكم؟

ظلَّ ماركل صامتًا مذهولاً. طيلة حياته المهنيَّة لم يحدث قطُّ أن سألَه مراقبٌ من المراقبين عن اسم الربَّان.

- إلى الخطوط الفرنسيَّة 006، ماي داي، من مطار كينيدي. أُكرِّر: منِ القائدُ ربَّان الطائرة، من فضلكم؟

صوفيا كليفمان

الجمعة 25 يونيو 2021

هوارد بيتش، نيويورك

بِيتي الضفدعة، ليام هو من عثر عليها، ظهيرةَ يومِ سبتٍ، في المطبخ، خلفَ مِشعاعٍ بجانب الحوض. وجدها يابسةً تمامًا. كانت خفيفةً كريشةٍ، وشفَّافةً كورقة أنسوخٍ غُضِّنت وطُويت لكي تُصنع منها ضفدعةٌ من ورقٍ قُصَّت ذراعاها وقدماها قصًّا حسنًا. قال ليام لأخته الصغيرة إنَّ عزيزتك بيتي قد نفقت، نفقت حقًّا، وراح مستمتعًا يرقص، رافعًا ذراعيْه في الهواء، نفقَت بيتي، نفقَت بيتي.. فانطلقت صوفيا بالبكاء.

وقبل ذلك بأسابيع ثلاثة، هربت بِيتي من المأرضة التي لا بدَّ من أنَّها كانت تموت فيها من الملل، على الرَّغم من الطحالب الرطبة الجميلة والنبت الأخضر البرَّاق، والحصى المستديرة الرماديَّة التي انتقتها لها صوفيا، ونصف قشرةِ جوزِ الهند التي جُعلت مسبحًا لها، ثم بخاصَّةٍ، على الرَّغم من الذباب الأسود الحيّ الذي كانت الطفلةُ تطعمُها منه حين تعود من المدرسة مساءً. وكانت صوفيا قد وضعت المأرضة قرب سريرها، على طاولةٍ واطئة، وفي كلِّ مساءٍ كانت الطفلة تقوم من سريرها، فتتلفَّع بغطاءٍ، وبصوتٍ خفيضٍ، تحكي أحداثَ يومِها للضفدعة الساكنةِ بين النبت. وكانت أماني صوفيا أن تكون بيتي في مأمنٍ؛ كانت تريد لها السعادة أيضًا، لكنَّ الأمان قبل السعادة، أن تكون في مأمنٍ من المفترسات، وتلك كلمةٌ حفظَتها لأنَّها كانت تحبُّها، ربَّما لأنَّ لها جَرْسًا مُقلقًا ومُخيفًا بعض الشيء. لكنَّ الضفدعة هربت على الرَّغم من كلِّ شيء. ولا بدَّ أنَّها ظلَّت تقفز هنا وهناك، طلَبًا للحرارة والرطوبة، قبل أن تستقرّ هناك، عند طابقٍ أدنى، لصق معدن جهاز التدفئة. وقد أصابها الجوع والعطش، فتشقَّق جلدُها كحالِ أرضِ الحديقة إن تأخَّرَ المطرُ أيَّامًا. وإذ ماتت بيتي، فقد صارت مومياءَ ضفدعة. صوفيا خائفةٌ من لمسِها، وكذلك ليام، وإنْ كان يُبدي خلافَ ذلك، ويدور حول الرفات الصغير صائحًا. قالت الأمّ اصمُتا، اهدءا، ستوقظان بابا، لكنَّ الأب كان قد

استيقظ، ونزل السلّم مرتديًا تي شرت، وأخذ يصيح: ما كلّ هذه الفوضى يا أبريل؟ ألا تستطيعين أن تقولي للطفليْن أن يلتزما الهدوء ريثما أنهي راحتي، ثم ألا يُفترض أن تذهبي للتسوُّق؟ أبصر الملازم كلارك كليفمان بيتي التي ماتت، وشبعت موتًا، وابنته الباكية، فقال مقهقهًا: أو تديرين يا صوفيا ماذا تشبه ضفدعتك الآن؟ إنَّها تبدو مثل عجائن رافيولي صينيّ بالية! ببرودٍ رفعها كلارك بإصبعيْن من إحدى قدميْها، ثم وضعها في صحنٍ مقعّر.

بالإجماع، قرَّر آل كليفمان دفنَ بيتي، وعلى الرَّغم من أنَّهم كانوا يجهلون دينَها، فقد قرَّرت أبريل أنَّها، مثلهم، من أبناء الكنيسة المعمدانيَّة؛ ففي نهاية المطاف، حتى إن لم تكن قد تعمَّدت تعميد المؤمنِ، أي تعميد التغطيس، فقد كانت تقضي أغلب وقتها في الماء. لا أبسط من ذلك. إنَّ الضفدعة الوليدة المنبعثة born again ستنتقل إلى جنَّة الضفادع. وفي الختام، سيُلقي بها كلارك في المرحاض، لا أبسط من ذلك أيضًا.

بيتي كانت الهديَّةَ إلى صوفيا في عيد ميلادها السادس. معها تعلَّمت صوفيا الكثير عن حياة الضفادع. مثلاً، أنَّها توجد منذ ثلاثمائة مليون سنة، وأنَّها عاصرت الديناصورات، وأنَّ منها آلاف الأنواع، وأنَّ أحد مكوِّنات المبيدات، الأترازين، يهدِّد وجودها، لأنَّ جلودها تمتصُّه، في حين أنَّ وجودها «نافعٌ، لأنَّها تلتهم الحشرات». وأنَّها من البرمائيَّات، شأن السمادل والعلاجيم. ثم إنَّ بيتي علجومٌ، أناكسيروس ديبيليس anaxyrus debilis، وقد نسخت صوفيا الاسم بعنايةٍ على ورق بيسترول وألصقته على المأرضة؛ لا بل قد تكون بيتي علجومًا ذكرًا، فالبائع لم يكن على بيِّنة من أمره. قال أندي - ذاك هو الاسم الذي قرأته صوفيا في البادج على ثيابه - زافرًا: أنا آسف يا آنسة، إنَّ هذا العلجوم بالكاد تبلغ قامته بوصةً، فكيف لي أن أُميِّز أعضاءَه التناسليَّة، ما عليكِ إلاَّ أن تطلقي عليه اسمًا يناسب الجنسَيْن معًا، مثل اسم مورغان أو ماديسون؛ لكنَّ صوفيا أطلقت عليه اسم بيتي. وحين كانت صوفيا تقترب من المأرضة، كانت بيتي تتوارى في جُحرها أو تحت الحصى. كذلك كان يخيفُها صوتُ المكنسة الكهربائيَّة. وكذلك هدير الطائرات التي تُقلع من مطار لاغورديا وتُحلِّق فوق هوارد بيتش. تقريبًا لا تكادُ تُرى، لأنَّها تخاف من كلِّ شيء. لذلك قال كلارك متهكِّمًا، إنَّها امرأة. فقالت أبريل زافرةً: لا تُردِّد مثل هذا الكلام على مسمع ليام وصوفيا. وإذن، وضع كليفمان بيتي في الصحن، فصاحت صوفيا: - لقد تحرَّكت بيتي يا ماما، لقد تحرَّكت!

- ماذا؟ كلاَّ يا صوفيا، فقط أبوك أمالَ الصحن.

- بلى، لقد تحرَّكت. انظري، لقد تحرَّكت بسبب الماء الذي ظلَّ في قعر الصحن! لقد أيقظَها. ماما، ماما، أضيفي ماءً أرجوكِ!

هزَّت أبريل كتفيْها، لكنَّها تناولت كوبًا، وملأته من ماء الصنبور، ثم صبَّت منه على بيتي. حرَّكت البرمائيَّةُ قدمًا، ثم أخرى، وفي النهاية انبعثت من جمودها، امتصَّت كمنشفةٍ كلّ الماء، ثم هي ذي تقفز في قعر الإناء، حتى جلدها أخذ يستعيد شيئًا فشيئًا ألوانَ الخضرة التي كان قد فقدها.

قال كلارك كليفمان مذهولاً: - عجيب!

- لقد فعلت كما تفعلُ سمادل المكسيك في فترة الجفاف يا ماما، تتذكَّرين يا ماما، سمادل المكسيك، لقد سبق أن رأيناها، لقد فعلت مثلها، دخلت في سبات ومكثت تنتظر موسم الأمطار.

قال كلارك:

- عجيب! لم أَرَ قطّ شيئًا كهذا. هذه الضفدعة الحمقاء كانت 100% ميِّتة، ماتت وشبعت موتًا، ثم هي ذي تتلوَّى كمومس حرَّانة. عجيب!

قالت أبريل:

- كلارك، رجاءً، لا تقُل مثل هذا الكلام أمام الطفليْن.

- سُحقًا! أنا في بيتي، وأتكلَّم كما يحلو لي! ما أنا بالنسبة إليكم جميعًا؟ مجرَّد آلةٍ تدفع لكم شهريًّا، وتذهبُ مجازِفةً بحياتها في بلدِ حمقى، أليس كذلك؟ طفح الكيل يا أبريل، أسمعت؟ طفح الكيل!

خفضت أبريل عينيْها، وتجمَّد ليام وصوفيا. تجلَّطَ الهواءُ حول غضب كلارك.

شدَّ كلارك قبضتيْه، وانغلق على نفسه، وكذلك يفعلُ وإلاَّ حطَّمَ كلّ شيء. اللعنة، عشر مرَّات كاد يلقى حتفَه في أفغانستان، وهكذا يكون جزاؤُه! عشر مرَّات، أجل، ما أسهل ذلك. لطالما سخر الجميع من معاناتهم، فهم في نظر الجميع لا يفعلون شيئًا سوى النعيق، هم ليسوا من أبناء السياسيِّين، مثل أولئك الحمقى الذين كانوا، زمن حرب ڤيتنام يختفون في الحرس الوطنيّ. صحيح أنَّ الفوج قد حصل، في العام الماضي، على سيَّارات أوشكوش، بديلاً عن سيَّارات الهامفي التي تعدُّ

بمثابة توابيت تسير على أربع عجلاتٍ؛ أوشكوش، سيَّاراتٌ مصفَّحة، باد بويز، يفترض فيها أن تمنع رصاص 13 مم. هراء! لقد حوَّلَتها الرصاصات الثاقبة إلى كرتون مطليّ بلونِ الرمال.

أسبوعيْن قبل انبعاث بيتي، على المسار بين القاعدة الجوّيَّة باغرامان والعاصمة كابول، تعرَّضت الأوشكوش لهجومٍ. من أزيز الرصاص مؤكَّدٌ أنَّه يُطلق من بندقيَّة زاستافا، تلك البندقيَّة نصف الآليَّة المستعملة أساسًا في سوريا. اخترقت رصاصةٌ زجاج الباب الخلفيّ الأيسر، الزجاج الذي كانوا يقولون إنَّه غير قابلٍ للكسر، ووجدت مستقرًّا لها في صدر تومسون الذي خَبِر بغتةً مدى ملاءَمةِ الرصاص للأجساد، وانطلق في الصراخ مثل ملعونٍ. تومسون، مرتزقٌ، خرّيج شركة أكاديمي شبهِ العسكريَّة، بائسٌ، لا يفوقُ تعصُّبَه إلاَّ حمقُه، كان قد خسر وظيفته العفنة في أحد فروع جنيرال موتورز حين انسحبت الشركة إلى بلدٍ آخر حيث بائسٌ آخر يصنع شموع المحرّك نفسَها مُقابلَ ثلاثين سنتًا للساعة. وكلّ ما كان يصبو إليه تومسون هو الحصول على شاليه في مونتانا، لذا كان يؤمِّنُ الحمايةَ اللصيقةَ لمهندسي شركة ألبمارل؛ أربعة أشهرٍ وهُم ينقِّبون عن اللثيوم من غير أن يجرؤوا على الابتعاد عن فندق كابول سيرينا، أربعة أشهرٍ وهم يحاولون توقيع عقود استغلال قبلَ شركة غانفينغ ليثيوم الصينيَّة. لكنْ للأسف بالنسبة إلى تومسون، لقد عادت سيَّارة الدعم أكاديمي إلى كابول بدونه. لقد قدَّم رشوةً - مائتي دولار، لكي يتمّ قبوله على متن سيَّارة الأوشكوش، مدَّة ساعتيْن فقط من الحفر والأنقاض والحديد المجلفن، في خلاءٍ بائسٍ أكلته عشر سنين من الحرب.

وبينما يعتني العريف جاك بتومسون الذي بدأ يقلب عينيْه كاشفًا عن بياضهما، ويطلق فوَّاقًا يبصق دمًا، انزلق كلارك إلى البرج الدوَّار، وجعل يقصف الموضع الذي بدا له أنَّ الطلقات قد أتت منه، صائحًا بكلِّ الشتائم التي يعرفها. القذائف بالمئات، تنهالُ على كوخيْن من طين على تلٍّ عارٍ، كوخيْن بائسيْن تناثرا بَددًا تحت القصف.

دارت الأوشكوش على عقبيْها بأقصى سرعةٍ نحو باغرام حيث تنتظرهم غرفة العمليَّات. كان المستوصف غاصًّا؛ ففي اليوم السابق، فجَّر أحد المتعاونين الأفغان، وهو عامل تنظيف، نفسَه بحزامٍ ناسفٍ قربَ قاعة الطعام، صائحًا الله أكبر، والحصيلةُ قتيلان وعشرة جرحى، والسببُ يقالُ إنَّ جنودًا بالوا على مصاحفَ عشراتِ قناني البودوايزر التي عبُّوها.

قد يكون الخبر صحيحًا؛ ففي غوانتانامو، كانوا بالفعل يلقون بشرائح لحم الخنزير في أقفاص الأسرى. دائمًا ما تجد القاذورات لنفسها موضعًا في النزعة القوميَّة. على أيِّ حال، ما كان من ضرورةٍ لإيجاد سريرٍ لتومسون، فعند وصوله، كان قد ماتَ، وكانت مقصورة القيادة دبقةً من الدم. وهذه المرَّة كان الأمر مؤكَّدًا. صُبَّ ما شئتَ من الماء على تومسون، وأبدًا لن ينبعث من سكونه. لذا، عذرًا، فكلارك لا يأبَه حقًّا بأن ينطق أمام الطفلَيْن كلماتٍ مثل «مومس حرَّانة»، فلا بدَّ لهما أن يعرفا ذات يومٍ في أيِّ عالمٍ خرائيّ يعيشان.

قال كلارك:

- لقد أهلكني هراؤكم. اذهبي للتسوُّق يا أبريل، واصطحبي معك الصغير. ليام، ستكفَّ عن اللعب بالڤيديو، وترافق أمّك لتعينها في حمل الأكياس. تعالي يا صوفيا نعيدُ الضفدعة إلى المأرضة.

أخذت صوفيا تنظر إلى أُمِّها التي تناولت مفاتيح السيَّارة في صمت، ثم أمسكت يد ليام الذي أخذ يتذمَّر؛ ثم تبعت الصبيَّةُ والدها الذي صعد إلى الطابق العلْويّ حاملاً بيتي التي استعادت كلَّ حيويَّتها في الصحن.

في المأرضة، كان ثمَّة أيضًا مجسَّمٌ صغيرٌ لبرج إيڤيل، ملصقٌ على حصاة، لأنَّ آل كليفمان كانوا قد ذهبوا منذ أربعة أشهرٍ، إلى باريس، في فرنسا، احتفاءً بذكرى الزواج. فحجزوا شقَّة من غرفتيْن في بيلفيل، ونام الطفلان على الكنبة - السرير في غرفة المعيشة. وزاروا نوتردام الباريسيَّة، وقوس النصر، وجابوا شارع مونمارتر والشانزيليزيه. وعلى الرَّغم من كلِّ ذلك، أصرَّت صوفيا على زيارة «البرمائيَّات». فاستسلمت لإلحاحها أبريل، واصطحبتها إلى حديقة النبات، وهناك رأت الصبيَّة لأوَّل مرَّة سمندلاً، ذاك الحيوان المذهل، القادر على ترميم إحدى عينيْه، أو حتى جزءٍ من دماغه.

ثم غادرت صوفيا و ليام ووالدتهما، في رحلةٍ مباشرةٍ إلى نيويورك، رحلةٍ منتظمة، لكنَّها كانت من الاضطراب حتى إنَّ الطفليْن لم يكفَّا عن الصراخ طيلة نصف الساعة الأخيرة. أمَّا كلارك، فلم يعد معهم؛ إذ تلقَّى مهمَّةً جديدة، أُرسل بموجبها من باريس إلى وارسو، ثم من وارسو إلى بغداد، هذه المرَّة لكي يرافق، في طائرة C17، دبَّابتيْ أبرامز، وقنبلة انفجارٍ ضخمة، «أمّ كلّ

القنابل»، قنبلة من عشرة أطنان، وعشرة أمتار، وحش. وبقي كلارك مدَّة تسعة أسابيع، ثم عاد في نهاية المطاف إلى شاطئ هوارد، حاملاً معه دائمًا رائحة دم تومسون الدافئة والمعدنيَّة.

إنَّ ذكاء صوفيا مبعثُ فخرٍ لأبريل، ومع ذلك تراها تلوم نفسَها على ما ينتابها من غيرةٍ تجاه ابنتها، تغار من حيويَّتها وفضولها. حين كانت أبريل في سنِّ صوفيا، ظلَّت ملتصقةً بوالدتها، تلوّنُ رسومَ الحيوانات، خاصَّةً منها المهورَ. وعندما اضطرَّت هي وشقيقاتها إلى نقل والدتهنَّ التي بدأت تفقد عقلها، وجدَت المئاتَ من تلك الرسوم. أمرٌ لا يُصدَّق: مهورٌ أرجوانيَّة، مهورٌ نيليَّةٌ، مهورٌ خضراءُ، وأخرى برتقاليَّة، من كلّ ألوان قوس قزح، مهورٌ دائمًا وأبدًا. كانت قد نسيَتها. ثم إنَّها لا تتذكَّر شيئًا من تلك الحقبة، فقد غادرت منزل والديْها في سنٍّ مبكِّرةٍ جدًّا، لكي تتزوَّج من هذا الفتى الأشقر الطويل والهشّ، المرهف الإحساس، والشديد العناية، الفتى الذي كتب لها قصيدةً جميلةً، على ورقةٍ مزَّقها من دفترٍ، وسلَّمها لها في صمت، محرَجًا من جرأته: اقرعو الأجراس Swing the bells العبوا الغمّيضة Play hide and seak لقد قبَّلتُ أبريل على وجنتيْها I kissed April on her cheek أجل، في ذلك الزمن، كان كلارك كَيِّسًا. لمَّا لم يكن يحمل شهادةً، فقد حاول أن يكون وكيلاً عقاريًّا، ثم مدرِّبًا للسياقة، لكنَّه سرعان ما كان يفقد أعصابَه، مرَّةً مع زبونةٍ متردِّدة، ومرَّةً مع سائقٍ مبتدئٍ، فلم يستطع الاحتفاظ بأيِّ وظيفة. وكان أن منحه الجيشُ عملاً، وأعاد إليه اعتبارَه. حلقوا رأسَ الفتى ذي الثانية والعشرين الذي يبدو في الثامنة عشرة، وأعطوه قبَّعةً عسكريَّةً سوداء، ثم - وهذا الأهمّ - مكافأة خمسة عشر ألف دولار. بفضل المال وضمان راتبٍ منتظم، استطاعت أبريل أن تتفاوض على قرضٍ، وأن تشتري في خضمِّ انهيار العقار منزلاً على شاطئ هوارد، طُرد منه سكَّانُه للتوّ لإفلاسهم. ساخطين، حطَّموا ساعةَ خروجهم كلَّ ما طالَه معوَلُهم، فكسروا المغاسلَ، والحوض، والمطبخ، بل وحتى الجدار الفاصل في غرفة النوم. في غضون سنواتٍ قليلة، حين انفصل عن القارَّة القطبيَّة الجنوبيَّة المكعَّبُ الجليديّ، ثويتس، ذاك المكعَّب الهائلُ بسُمكه البالغ كيلومتريْن، وحجمِه المعادلِ لولاية فلوريدا، حينَ انفصل وذاب، بلغ الماءُ أساساتِ المنزل. لكنَّ أبريل وكلارك، ما كانا ليخمِّنا حدوث ذلك، لذا أصلحا كلّ ما أفسدَه السكَّانُ السابقون، حتى إنَّ أبريل صبغت المنزل بمفردها، وإن كانت في مرحلةٍ متقدِّمةٍ من حملها.

أبريل العطاء، أبريل الظلال April tender, April shady أيا سيِّدتي الحلوة والقاسية O April blooming with pastel أبريل الزاهية بألوان الباستيل my sweet and cruel lady

colours وبمرور الأشهر، ترسَّخت ثقة كلارك بنفسه، حتى انقلبت تسلُّطًا. لم تعد ترى فيه ذاك الفتى اللطيف الذي كان يكتب لها القصائد. غيَّرته التداريب العسكريَّة، أكسبته عضلاتٍ وغِلظَة. حتى حين يضاجعها، انقلبَ في السرير الشابُّ الهشّ، شديدُ الخجل، الذي كان يراعي جسدها الأنثويّ الصبيَّ، إلى رجلٍ وحشيٍّ، أنانيّ. وتلك هي اللحظة التي بدأت فيها تخاف منه، ولكنْ عندما أنهى كلارك فترة التمرين، واجتاز الامتحان النهائيّ، كان ليام قد وُلد، وصوفيا في الطريق.

أبريل عالقةٌ في العاصفة الجليديَّة April caught in the icy storm أبريل العذبة، دافئة جدًّا في نُعاسِها April soft, so sleepy warm ثم بعد سنواتٍ، فتحت أبريلُ العطاءِ، أبريلُ الظلالِ، بالصدفة كتابًا مهملاً في منزل أختِها، ففغرت فاها كسمكة شبُّوطٍ جرفها الماءُ إلى الشاطئ. إنَّ قصيدتَها، قصيدتَها الجميلةَ التي كُتبت لها فقط، لم تكن في الواقع إلاَّ قصيدة «Fall for April» لشاعرٍ إنجليزيٍّ مغمور؛ تلك الورقة التي أعطاها كلارك في موعدهما الأوَّل، والتي ما تزال كحمقاءٍ تحتفظ بها، مطويَّة إلى أربع في محفظتها، ما هي في الواقع سوى نصٍّ درسَه في الصفِّ ونسخَه بعناية. وقد عادت إلى المنزل مع الطفليْن، وأمضت تلك الليلة تبكي في غضبٍ وحزن، تبكي صورةً من الماضي انقضت، تبكي ذكرى دُهست بالأقدام، صورةَ كلارك حاملاً في يده، بكلِّ ما في المراهقة من طيش، صفحةً ممزَّقة من دفتر.

أبريل، أنا مغرمٌ بك April, I fall for you *

رفع كلارك سياج المأرضة، وأمال الصحنَ، فسقطت الضفدعة، ارتدَّت على الطحالب، ثم غاصت فورًا في قشرة جوز الهند التي تتَّخذها بِركةً.

- ينبغي إطعام بيتي يا بابا. لا بدَّ أنَّها جائعة.

- دعيها ترتاح يا عزيزتي. وأنت أيضًا ستستحمَّين، وتلعبين في حوض الاستحمام مثل بيتي.

صوفيا لا تجيب. تسمع إغلاق الباب في الأسفل، فانكتامَ وقعِ خطى أمّها و ليام، وأبواب السيَّارة تصطفق، ثم انطلاق المحرِّك. كلارك يفتح الصنابير، يفحص درجة حرارة الماء، يصبّ بضع بلُّوراتٍ من أملاحٍ عطرة، ويزيل حذائه. صوفيا تتلكَّأ. يقطِّبُ حاجبيْه: - عجِّلي يا صوفي، اقفزي في الماء، ليس لدينا كلّ الوقت، كما في باريس...

جرس الباب يرنّ فيتوقَّف الأب. يتواصل الرنين، تسمع صوفيا صوت قفل، ويرفع كلارك عينيْه إلى السماء.

صوت امرأة:

- سيِّد كليفمان؟ سيِّدة كليفمان؟ أنا الشرطيَّة تشابمان، من مكتب التحقيقات الفدراليّ.

- حسنًا، يا صوفي، أنا سأنزل. وأنت ادخلي الحوضَ، وابقي في الرغوة، وأغلقي الصنبور حين يمتلئ الحوض إلى النصف، اتَّفقنا؟

خرج كلارك من الحمَّام، سمعت صوفيا، في الطابق الأرضيّ، صوتَ والدها يعلو، ثم صوتَ رجلٍ يُجيبه في صرامةٍ، ثم صوتَ رجلٍ آخر. الشجارُ متواصلٌ، ونقرٌ على باب الحمَّام.

صوتٌ نسائيٌّ:

- هل أستطيع الدخول يا صوفيا؟

أجابت البنت:

- نعم يا سيِّدتي.

دخلت سيِّدة مبتسمة، امرأةٌ سوداء، مسرَّحة الشعر. فكَّرت صوفيا «إنَّ شعرها قصيرٌ كشعر أمِّي، لكنَّها تبدو أقلّ تعبًا. جَثت ضابطة مكتب التحقيقات الفدراليّ، وداعبت وجنة الطفلة بلطف، بمهنيَّةٍ؛ فقد أكَّد علم الأعصاب أنَّ اللمس هو عاملٌ أساسيٌّ لتهدئة الأطفال وطمأنتهم. ثم ناولت المرأةُ صوفيا منشفةً: - مرحبًا يا صوفيا، اسمي هيذر. الضابطة هيذر تشابمان. جفِّفي نفسك بسرعة، وارتدي ملابسك، وسأنتظرك في الخارج، اتَّفقنا؟ هل تعرفين أين ذهبت أمّك؟

- ذهبت للتسوُّق مع ليام.

خرجت المرأة من الحمَّام، وتناولت هاتفًا خلويًّا: - صوفيا كليفمان معي. ينبغي أن تجدوا أبريل كليفمان هي الآن على الأرجح في أقرب فرعٍ من فروع متاجر مايسيز، سيَّارتُها شيڤروليه ترايكس سوداء، ولديكم رقم لوحتها. إنَّها مع ابنها ليام.

ارتدت الفتاة الصغيرة ملابسها، وكانت المرأة تنتظرها عند العتبة، فمدَّت إليها يدَها. في الطابق السفليّ خمد الصراخُ، ووالدها لم يعد هناك.

- تعالي يا صوفيا. سنذهب إلى أمّك وأخيك ليام، سنقوم بجولةٍ معًا في السيَّارة.

- هل سنعود بعد ذلك إلى المنزل؟ ينبغي أن أُطعم بيتي.

- بيتي؟

- إنَّها ضفدعتي يا سيِّدتي. كنَّا نظنُّها ميِّتة، لكنَّها فقط تيبَّست، مثل السمندل.

كانت المرأة قد أخرجت هاتفها الخلويّ، فدسَّته من جديد.

- لا تقلقي بشأن ضفدعتك، سنهتمّ بها أيضًا. كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. ناديني هيذر. اتَّفقنا يا صوفيا؟

- نعم يا سيِّدتي.

جوانا

الجمعة 25 يونيو 2021

فيلاديلفيا

قال شون بريور: جوانا، إنَّ دماغَكِ كاتدرائيَّةٌ على الطّراز القوطيّ.

حدَّقت المحامية جوانا فاسرمان في عينيْ شون بريور، مُخفيةً ذُعرَها: أحقًّا؟ كاتدرائيَّة؟ على الطراز القوطيّ؟ القوطيّ البرَّاق على الأقلِّ، على الأقلِّ. لِمَ لا تاج محلّ، أو الأهرامات، أو قصر سيزار في لاس فيغاس؟ ظلَّت مبهوتةً لوهلةٍ، ثم تمكَّنت في نهاية المطاف من أن تجد جوابًا.

- على الأقلِّ هذا أفضل من أن يكون لي دماغ رجل.

- عفوًا؟

- سيمون دو بوفوار؛ كان والدُها يقول لها إنَّ دماغَها «دماغ رجل».

ضحك الرئيس التنفيذيّ لشركة فالدو ضحكةً مكتومةً، ضحكةَ عليمٍ مطَّلِعٍ، كما لو كان أقربَ الأصدقاء إلى سيمون، ووالدها وكلبهم. بينما ضحكت جوانا في سرِّها. في أفضل الأحوال، سيملك بريور فكرةً عامَّة مبهمةً عن هذه اللعينة المسمَّاة سيمون، لكنْ حين يكون المرء رئيسًا لشركة صيدلةٍ عملاقة، شركة تزنُ ثلاثين مليار دولار، فمن غير المسموح له بأن يُبدي أدنى هفوة... يا للتعاسة!

وكانت جوانا قد تنقَّلت إلى مقرّ فالدو في فيلادلفيا مع محامٍ شريكٍ، شابٍّ، يتابع الملفَّاتِ ويحملها. منذُ سبع سنواتٍ وشركة الأدوية عميلٌ لمكتب دينتون و لوفل، تَعهَدُ إليه بمعظم القضايا الضريبيَّة والعروض؛ ومنذ ثلاثة أشهر وجوانا تعمل معهم؛ ومنذ شهريْن وبريور محاورُها المباشرُ. ومنذ لقائهما الأوَّل، سألها بريور، بلكنة أهل تكساس البطيئة التي يعتني بها، وابتسامةِ

اللواحمِ الكبيرةِ التي لا تخشى مُفترسًا: - أخبريني يا ميتر، هل تعرفين لماذا اخترتُك من بين كلّ تلك الوجوه البليدة في مكتب دينتون ولوفل؟

- دعني أُخمِّن يا سيِّد بريور؛ لأنَّني الأولى على دفعتي في جامعة ستانفورد، ربَّما؛ لأنَّني امرأةٌ شابَّة، بلا شكّ؛ لأنَّني سوداء، بالتأكيد؛ وأيضًا لأنَّني أربح كلّ قضاياي ضدَّ البيضِ العجزة الذين درسوا معك في جامعة هارفارد.

قهقه بريور.

- بلى يا ميتر، وأيضًا لأنَّكِ الوحيدة التي تجرؤ على الردّ بمثل هذا الجواب.

- أمَّا أنا، يا سيِّد بريور، فقد قبلتُ بك عميلاً، فقط لأنَّك قادرٌ على تحمُّلي.

أضاف بريور، إذ لم يكن يطيقُ ألاَّ تكونَ له الكلمة الأخيرة: - لا تنسَي أيضًا أنَّني خرِّيج جامعة كارنيجي ميلون.

تعادُلٌ. منذ تلك المباراة صار شون بريور وجوانا فاسرمان يتظاهران بأنَّهما أعزُّ الأصدقاء. يتظاهران بالحديث ندًّا لندٍّ. وقد التزم بريور بذلك التزامَ شرف؛ إنَّ لحظات أحاديثهما هي اللحظاتُ التي تشهد له بالانخراط في الامتزاج الاجتماعيّ والعرقيّ، اللحظات التي يفخرُ فيها وريثُ مليونيرٍ، لا بل ويستمتعُ، بقدرته على الحديث، دون أن يُبدي ذرَّةَ ازدراء، مع شابَّةٍ زنجيَّةٍ موهوبة، شابَّةٍ من هيوستن حاصلة على منحةٍ دراسيَّة، وتستحقُّ الميز الإيجابيّ، نجلة كهربائيٍّ وخيَّاطة. - لقد استخبرَ عنها، وعرف كلّ شيء.

وعلى الرَّغم ممَّا يفصل بينهما - ثلاثة وثلاثون عامًا، ومليارا دولار من الأسهم، وطقم أسنانٍ برَّاق - إلاَّ أنَّهما يرفعان الكلفة أثناء الحديث، ويفرطان في استخدام اسميْهما الشّخصيَّيْن، ممَّا يلوّنُ أحاديثَهما بلمسةٍ من النفاق السامّ. ولو أنَّهما كانا يتكلَّمان إحدى اللغات اللاتينيَّة لخاطبَ أحدُهما الآخرَ بصيغة المفرد. وعلى شاكلة البرجوازيّ الذي يعتبر نفسَه صديقًا لبستانيِّه، أقنعَ بريور نفسه بوهم الصداقة ذاك، في حين لم تنخدع جوانا بشيء.

إنَّها تُميِّز في ابتسامة بريور تلك الدلالات التي لا سبيل إلى وصفها، دلالات الجنوب الأميركيّ، تلك الشمائل واللطائف الرمزيَّة الدقيقة التي تتخلَّل جميع العلاقات العرقيَّة؛ تُميِّز فيه

الموقفَ العفويّ الذي يدفع سيّدةً ثريَّةً بيضاء أنيقةَ الشعر إلى أن تجود على سائِقها الأسود بأشدِّ الابتسامات إشراقًا، ابتسامة عطفٍ ساحقة، ابتسامةً يُقرأ فيها يقينُها الجامحُ بالنقص الطبيعيّ لهذا الأسود سليلِ العبوديَّة؛ ابتسامةً سامَّةً، لم تتزحزح قيدَ أنملةٍ، منذ أيَّام «ذهب مع الريح»، ابتسامة شهدتها جوانا طيلة طفولتها ترتسم على الوجوه البيضاء المطليَّة بالبودرة، وجوهِ زبونات أمّها الخيَّاطة.

ذات يومٍ - والقرن العشرون يكاد ينقضي - ساعة الخروج من المدرسة، وبينما الصغيرة جوانا تنتظر الحافلةَ المدرسيَّة، توقَّفت سيَّارةُ ليموزين سوداء أمامها، وأُنزلت النافذةُ الخلفيَّةُ المظلَّلة كاشفةً عن إحدى زميلاتها. عرضت عليها الزميلة أن تصعد، بابتسامةٍ تكشف عن مدى فرحتها لمجرَّد إمكان البقاء مع جوانا بضع دقائق أُخر.

أضافت الأمّ:

- طبعًا يا جوانا، اصعدي معنا، سنقوم بلفَّةٍ بسيطة، حتى نوصلك إلى البيت. لا مشكلة.

«لا مشكلة». لقد فهمت جوانا: إنَّ الأمّ قد خضعت مكرهةً إلى إلحاح ابنتها. وكان أن صعدت الطفلةُ إلى السيَّارة الألمانيَّة الكبيرة، وجلست في الخلف، مع صديقتها. أرادت السيِّدة، خلف المقود، أن تُبديَ التهذيب، فبادرت إلى الحديث: - وإذن يا جوانا، ماذا تريدين أن تصيري في المستقبل؟ ليسَ خيَّاطة مثل أمّك، أليس كذلك؟

لم تُجب جوانا. ولمَّا دخلت إلى المنزل، ارتمت في حضن أمّها، وعانقتها، بعينيْن بلَّلهُما الدمع، ثم أخرجت كراريسها. غطرسةُ عبارةٍ قيلَت، صنعَت من جوانا أبَرَّ البناتِ.

واليومَ، بعد عشرين عامًا، صارت جوانا تعرف من أين أتت، وإلى أين هي ذاهبة. وتعرف في المقام الأوَّل أنَّ في قضيَّتها الآنيَّة، قضيَّة مبيد الهيبتاكلوران، حيثُ أغلبُ المدَّعين من النساء، وكلّهنَّ تقريبًا سوداوات، فإنَّ تولية زمام الأمر محاميةً سوداء عُرفَت بالشراسة، سوف يخلط الأوراق ويَحدّ من ضراوة الخصوم. ذاك على أيِّ حالٍ ما يأمله بريور. لا بل حتى إنَّ جوانا قد خمَّنت أنَّه، لفرط ما كان يريدها محاميةً، قد أوعز إلى مكتب دينتون ولوفل أن يستقطبَها، وأن يوافق على مطالبها الماليَّة المُعجزة. وما إن عُيِّنت في المكتب حتى أوكلوا إليها زبونًا واحدًا أوحدَ: فالدو. لا بل أكثر من ذلك، رفَّعوها مباشرةً، وهذا أمرٌ نادرًا ما يحدث، إلى رتبة شريك.

يقع مكتب بريور في الطابق الأعلى من مبنًى شاهقٍ يعود إلى سنوات 1930، وتطلُّ نوافذهُ الواسعة على نهر ديلاوير. حين يزوره زائرٌ، لا يستطيع بريور مقاومة أن يتمشَّى في المكتب، متَّخذًا هيئةَ صاحب المكانِ الراضي عمَّا يمتلكه، وأن يتظاهر بالاستغراق في تأمُّل النهر، شابكًا ذراعيْه، رافعًا ذقنه على شاكلة موسوليني. وفي كلِّ مرَّةٍ تزوره فيها المحاميَّة، تتركه يغنم تلك الثواني الطويلة التي يدَّعي فيها التأمُّلَ، خاصَّة وأنَّها تحضر رفقة شخصٍ ثانٍ من مكتب المحاماة، وأنَّه يدفعُ مقابل كلّ دقيقةٍ مائة دولار. وقد وضَّحت له ذلك ذات مرَّة. وردَّ عليها بريور بجملةٍ ساخرة لطيفة استخرجها من بطن ذاكرته: لولا المبالغة في تقدير المال، لما كانت له من قيمة... جملة ليست له، ولكنَّ بريور يحبّ أن يقتبس. في عالمٍ يحكمه المديرون، عالمٍ ينفر من كلِّ ثقافةٍ أدبيَّة، جعلَ هو من الأدب أداةً قويَّةً للهيمنة الرمزيَّة. ولمَّا بدأت ترتسم ملامحُ الخطر من قضيَّةٍ جنائيَّةٍ بخصوص الهيبتاكلوران، المبيد الحشريّ الذي تمَّ إطلاقه دون التحقُّق من استيفائه جميعَ الاختبارات، وأبدى مجلسُ الإدارة أمارات القلق، سحق بريور ببراعةٍ مبدأَ التحوُّط: (يا رفاقي الأعزَّاء، دائمًا ما أفكِّر في قصيدة رالف والدو إيمرسون الجميلة التي تنتهي بهذه الأبيات: «لا تذهب حيث تقودك الطريق. اذهب حيث لا توجد طريقٌ بعدُ، واترك أثرًا جديدًا». لذا نعم، في نضالنا الأبديّ لإطعام البشريَّة، سنكون قد تركنا أثرًا).

الهيبتاكلوران... إذا ما كانت جوانا في هذا المكتب، فإنَّما بفعل هذا الجُزيْء النشط الذي يمنع بعض الحشرات من تجاوز مرحلة اليرقة. خلال سنوات 2000، تمكَّنت شركة فالدو من تركيبه، لكنَّ براءة الاختراع قد صارت الآن ضمن إطار الملكيَّة العامَّة، وبالتالي تنتجُ الجزيْءَ المذكورَ شركاتٌ أخرى. لكنْ من الواضح أنَّه مادَّةٌ مسرطنةٌ عاليةُ الخطورة، حتى وإن أُخذت بجرعاتٍ منخفضة، كما أنَّها تُعطِّل عمل الغدد الصمَّاء. والآن، وقد أطلق مكتب أوستن بيكر دعوى جماعيَّة ضدَّ فالدو، فإنَّ الشركة قد تضطرّ إلى دفع مئات الملايين.

- دعنا نتحدَّث في قضيَّتنا، فضلاً يا شون. بوجود خمسةٍ وستِّين مريضًا، حتى الآن، يتَّهمون فالدو بسوء التقدير، فإنَّ الكلفة قد تكون باهظة.

تحبُّ جوانا كثيرًا كلمة سوء التقدير imprécaution، هذه الكلمة المستحدثة التي تنطوي على صفة عدم التعمُّد. كما لا تأنف من استعمال ضمير «نحن» الذي يدلّ على مدى تلاحم مكتبِها مع مصالح زبائنه.

واصلت الكلامَ:

- قل لي يا شون، هل يمكن لأوستن بيكر أن يقدِّموا أيّ دليلٍ على أنَّ فالدو كانت على علمٍ مسبقٍ بخطر هذا الجزيْء، وأخفت ذلك عمَّن استعملوه؟

- لا أرى كيف.

- إذا ما سُئِلتَ يوم الجلسة سؤالاً مماثلاً، أجب بأيّ شيءٍ سوى «لا أرى كيف». إنَّ هذه العبارة منحرفة، وسوف أعترض عليها. ابدأ أوَّلاً بالتذكير بأنَّ الجُزيْء غير مؤذٍ.

- بالطبع هو كذلك. إنَّ الاختبارات الطبِّيَّة التي أجريناها آنذاك، تتعارض مع الدراسات المستقلَّة التي يحتجّ بها أوستن بيكر.

- ممتاز. لا بأسَ من التذكير. سيكون كلامَ خبيرٍ ضدَّ كلامِ خبير. مشكلتنا يا شون هي مهندسُك السابق فرانسيس غولدهاجن الذي يقول إنَّ فالدو اختارت عدم الأخذ بتحليلاته التي أثبتت مدى ضرر الهيبتاكلوران.

- كانت لدينا تحفُّظات على البروتوكول الذي اتَّبَعه، فرفضنا خلاصاتِه. ثم إنَّنا أجرينا تحقيقًا، حياتُه الخاصَّة تثبت أنَّه يمكن أن يكذب، على الأقلِّ على زوجته.

تنهَّدت المحاميَّة. إنَّ الفوز في أمثال هذه القضايا قد يضرّ بصورة المكتب على المدى المتوسِّط. ولكنَّ خسارتَها على المدى القصير ليست خيارًا.

- لا أريد أن أُسيء إليه بهذه الطريقة. فالدو لن تكسب من ذلك، ولا العدالة ستنتصر.

- إنَّ العدالة، لو تعلمين يا جوانا، شبيهةٌ بالحبِّ الأموميّ، الجميع تقريبًا سيميلون إلى... بما أنَّنا نتحدَّث عن العائلة يا جوانا، كيف حالُ أختك؟

أدركت المحاميَّة فورًا أنَّه يعرف. بالطبع يعرف. لقد حقَّق بريور، وبحثَ في نقاط ضعفِها. بريور يعرف أنَّ في فبراير الماضي قد شُخِّص عند شقيقتها الصغرى التهابُ الأقنية الصفراويَّة الابتدائيّ. كما يَعرف أنَّ طالبةً شابَّةً، شأنَ إلين، لا بدَّ أنّها اتَّخذت تأمينًا صحِّيًّا تقليديًّا، قبل أن تُدركَ مرعوبةً أنَّ تأمينها لا يغطِّي هذا المرض الفريد. ويظنُّ بريور أنَّ لولا وضعيَّة إلين لما قبلت جوانا

بالمنصب، والراتب الضخم، لدى دينتون ولوفل. لولا عمليَّة زرع الكبد التي كلَّفتها مائتي ألف دولار، لكانت أُختُها في عداد الموتى؛ زِدْ على أنَّها، من الآن فصاعدًا، ستحتاج كلّ سنةٍ مائة ألف دولارٍ على الأقلِّ، مائة ألف دولارٍ فقط لتنجو عشر سنوات، أو ربَّما خمسة عشر، تنجو آملةً في أن يقاوم جسدها الواهنُ المرضَ، في انتظار أن يَجِدَّ علاجٌ. على أنَّ بريور مخطئ. إنَّ الراتب عاملٌ أساسيّ في قبول المنصب، لكنَّ جوانا ترغب في أبعد من ذلك، ترغب في أن تقف على ذروة تلِّ المالِ، وتراقبَ من قمَّتها مدى انتقامِها.

واصل الرئيس التنفيذيّ بصوتٍ جهوريّ، حمَّلَه بكلِّ الأسف القادرِ على إظهاره: - إنَّ ما تُعاني منه فظيعٌ. صدِّقيني، قلبي معكم...

- تعاطُفك... يسعدني.

- إن كانت أختكِ بحاجةٍ إلى أيِّ شيءٍ يا جوانا، فنحن أفضل من يساعدك؛ عيادة، أدوية، بروتوكولات جديدة.

- شكرًا يا شون. في الوقت الراهن ننتظر أن تنجح عمليَّة زرع الكبد. لكنَّني أرحِّبُ بمساعدتك. رجاءً، دعنا نعود إلى الدعوى الجماعيَّة ضدَّ هيبتاكلوران. سأطلب من زميلي الميتر سبنسر أن يلخِّص لك مشروع دفاعنا.

ما كاد المحامي الشابّ ينتهي من عرضه، حتى أومأ شون بحركةٍ بسيطة من ذقنه تفيدُ الموافقةَ على استراتيجيَّة الدفاع المقترحة. صافحهما مشيرًا إلى أنَّ الاجتماع بالنسبة إليه قد انتهى. وإذ همَّت جوانا بالانصراف، استوقفَها.

- جوانا، أريد أن أعرض عليكِ فرصةً. أن تحضري معنا اجتماع نادي دولدر مساءَ غدٍ السبت. تعرفين دولدر، أليس كذلك؟

أومأت جوانا. بلى إنَّها تعرفه. نادٍ مغلق، أكثر سرِّيَّةً حتى من نظيره بيلدربيرغ. لكنْ في حين يجمَعُ بيلدربيرغ كلَّ عام، خلف أبوابٍ مغلقة، مائةَ شخصيَّة من عالم الأعمال والسياسة، فإن دولدر لا يجمع أكثر من عشرين شخصًا، عشرين من الرؤساء، هم نخبةُ «البيغ فارما»؛ وطيلة خمسين عامًا، لم يعرف أحدٌ موعدَ تلك الاجتماعات، ولا ما يُقال فيها. ربَّما يتمّ التفاوض على أسعار

الأدوية، وتُعقد صفقاتٌ بين الأصدقاء، وتُحدَّدُ المبادئ الموجِّهةُ على المدى الطويل. أصحابُ نظريَّة المؤامرة يجدون ضالَّتهم في الموضوع.

ابتسم بريور.

- سأقدِّمك باعتبارك مستشارتي الشخصيَّة، وأنا بالفعل أعتبرك كذلك. الاجتماع السنويّ يُعقد هذه المرَّة في الولايات المتَّحدة، لذلك عُهِد إليَّ، أنا الأميركيّ، بشرف إلقاء خطاب الافتتاح. الموضوع سيهمّك، هو «نهاية الموت». سوف يروقك الموضوع العامّ: «نهاية الموت». سيقدِّم جوليوس براون، أجَل المرشَّح لنوبل، أعمالَه في علم تطوُّر الأجنَّة، ثم يليه متدخِّلان سوف يذهلانك. اعذريني لإبلاغك متأخِّرًا جدًّا، لكنَّكِ تعرفين البارانويا التي تسود في أوساطنا. سيُعقَد الاجتماع في مانهاتن، صالون فان غوخ، في ساري، حيّ أوبر إيست سايد. هل تستطيعين القدوم حوالى الساعة الثامنة مساء؟

حاولت جوانا أن تجيبه قائلةً أجل، إنَّه شرفٌ يا شون، لكنَّك للأسف أخبرتَني متأخِّرًا، وأخشى أنَّني... لكنَّها غريزيًّا وضعت يدها على بطنها في حركةٍ واقيةٍ بدائيَّة. إذ ثمَّة أمرٌ يجهله بريور: جوانا حامل.

حدث ذلك قبل سبعة أسابيع بالضبط: بين الساشيمي الذي تناولته بسرعةٍ، واجتماعِ الشركاءِ، قامت بالاختبار في مراحيض دينتون ولوفل. وعندما ارتسمَ على الكاشفِ شريطانِ قرمزيَّان، شعرت جوانا بأنَّ صدرها ينفجر من الفرح.

إنَّ الرجلَ الذي تحبّه جوانا رسَّامٌ في الصحافة. نهايةَ شهر أكتوبر من العام المنصرم، رفع أحدُ زعماء النازيَّة الجديدة شكوى ضدَّ رسمٍ من رسوماته، اعتبرَه مهينًا، وترافعت هي عن صحيفته في المحكمة وفازت بالضربة القاضية. والآن صارت قضيَّة «كيلر ضدَّ فاسرمان» مرجعًا: أن تقولَ بواسطةِ رسمٍ أو أيّ وسيلةٍ تعبيريَّةٍ أخرى، إنَّ من يدَّعي تفوُّق العرق الأبيض، يفتقرُ إلى المادَّة الرماديَّة، فذلك لا يعتبر إهانةً، وإنَّما رأيًا، لا بل مجرَّدَ تشخيصٍ لواقع. كانت القضيَّة سهلةً. ومساء المحاكمة نفسها، دعاها آبي فاسرمان إلى العشاء في تومباس، مطعمٌ باهظٌ بالنسبة إليه، وعند نهاية الوجبة، مستسلمًا لبداهة القلب، سألها متلعثمًا عن مشاريعها للقرون القادمة. كبح نفسَه، فلم يقُل إنَّه قد خُلق ليُحبَّها ويتبعَها، على الرَّغم من أنَّه كان يظنُّ ذلك صادقًا. وكذلك جوانا لم تكن تشكّ في

مشاعرها. أهداها يراعًا، تفضَّلي يا جوانا إنَّه قلمٌ ماركة واترمان، اسمه لا يختلف كثيرًا عن اسمي الألمانيّ... اسمي الذي أودُّ أن تحمليه، كما أريد أن أحملَ اسمَك. تناولت جوانا القلم، وفتحته، ثم كتبت به على مفرش المائدة القطنيّ الأبيض، ببساطةٍ جوانا وودز - فاسرمان، متجنِّبةً أن تدمع. وقد سمح لهما ربُّ المطعم بأن يأخذا معهما المفرش.

وقد أرادا على الفور طفلاً، وفَعَلا الضروريّ للحصول عليه، فعلاه في أحايين كثيرة، ولفتراتٍ طويلة، وفي أماكن عديدة. بثَّ الطبيبُ الحُكْم: بعد عودة جوانا من أوروبا مستهلّ شهر مارس، في تلك الرحلة البغيضة، حيث قرَّرت أنَّها إن نجت، ستتزوَّجه؛ وقبل زواجِهما مستهلَّ شهر أبريل، التقت البويضةُ بالحيوان المنويّ وقرَّرا الاندماج. لن يوفيا أبدًا تفوُّقَ الرجل الأبيض حقَّه من الشكر، إذ كان السبب في لقائهما. حتى إنَّ آبي، وهو يهوديّ، واسمه مختصر لأبراهام، قد اقترح تسمية الطفل، إن كان صبيًّا، أدولف. ضحكت جوانا وقالت شرطَ أن نتَّخذه اسمًا ثانيًا. وعلى الفور، لامت نفسها على شعور السعادة الذي يتملَّكها، في الوقت الذي توشك أختها أن تعانيَ احتضارًا طويلاً. بيد أنَّ سعادةً وزنُها بضع غرامات، ما انفكَّت تكبر في أحشائها، وتجتاح كلّ شيء.

ألحَّ بريور:

- جوانا؟ دولدر؟ مساءَ غدٍ؟

المسألة معقَّدة؛ كانت تخطِّط للاحتفال بشهر حملها الثالث مع والديْها... لكنْ من جهة أخرى، لقاء الشيطان ومراقصته، لا يخلو من غواية.

لم تُمنح المحاميةُ الوقتَ لاتِّخاذ قرار، إذ رنَّ على مكتب بريور هاتفٌ أسود ثقيل، هاتفٌ عتيقٌ مصنوعٌ من الباكيليت، فأجاب على الفور ساخطًا: - ألم أنبِّهكم إلى عدم إزعاجي... حسنًا... سأُعلمها.

ثم التفت بريور إلى جوانا وبابتسامةٍ مخاتلة، قال لها: - لا بدَّ أنَّ الأمر سيفاجئك، لكنْ ثمَّة من ينتظرك خلف هذا الباب. عميلان من مكتب التحقيقات الفدراليّ. ما زلت أعوِّل عليكِ غدًا، إن وافقا على إطلاق سراحك طبعًا.

قضيَّة ميزل

إنَّ يومَ 22 أبريل، اليوم الذي هوى فيه ڤيكتور ميزل من الشرفة، يومُ خميسٍ.

تأخَّر غداءُ كليمنس بالمر في مقهى روستان، وكانت تتأهَّب للخروج في نزهة، في حدائق لوكسمبورغ، المجاورة لها، وإذا برسالةٍ تصلها من عند ميزل، مطلقةً رنَّةً صغيرةً على حاسوبها. إنَّ كليمنس تحبّ ڤيكتور: هو مؤلِّفٌ موهوب، قد يُعطي انطباعًا بالارتجال، ولكنَّه في الحقيقة عميقُ التأمُّل. كُتُبه دائمًا قويَّة البناء، سلسةٌ ومكتوبةٌ بعناية، ولا تتشابه أبدًا، إنَّ ميزل أحد الأسباب التي تجعل من مهنة بالمر بهجةً. صحيحٌ أنَّ المجد قد أبطأ عنه، لكنْ من يدري، ربَّما في يومٍ من الأيَّام نرى الجمهور... لا أحد بمنأى عن النجاح. على أيِّ حال، ميزل لا يهتمّ. الإخفاقات تتوالى؛ لقد بلغت روايته الأخيرة القوائمَ الأولى من جوائز ميديتشي، والغونكور، ورُنودو، قبل أن تختفيَ، بعد خمسة عشر يومًا، في التصفيات الثانية؛ اتَّصلت به، ساخطةً آسفةً، تحاول أن تواسيه، ثم ما هي إلاَّ ثوانٍ حتى كان هو من يواسيها، وقد سألها عمَّا إذا لم تكن مشغولةً في الغدِ، إذ لديه دعوتان إلى مسرح الأوديون. كلاَّ، إنَّ كلّ شيءٍ ينزلقُ على ميزل، كما ينزلق الماءُ على ريش بطَّة.

بغريزة الناشر، حوَّلت كليمانس الملفّ إلى آلتها القارئة. لكنَّها ما لبثت أنْ لاحظت العنوان: الخلل، عنوانٌ قاسٍ، حادٌّ، أقسى وأحدّ من عناوين كُتبه السابقة كلّها، ولمَّا كانت الرسالة قد وصلتها خاليةً من أيِّ نصٍّ، لا تحملُ غير الملفّ، فقد فتحت الملفّ. أصابها الذهول.

إنَّ كليمانس بالمر تقرأ بسرعةٍ، فتلك مهنتُها. وما هي سوى ساعةٍ حتى كانت قد أتت على النصّ. لا يُشبه الخللُ أيّ شيءٍ ممَّا أبدعَه ڤيكتور من قبل. ليس روايةً، ولا مسارَّةً، ولا متواليةً من الجمل البرَّاقة والصيغ اللامعة لا رابط بينها. إنَّه كتابٌ غريب، ذو إيقاع مقلق، يصعب تركه، وقد استشفَّت فيه صدى كلّ أولئك الذين أثَّروا في ميزل، من جانكليفيتش إلى كامو، وغونتشاروف، وغيرهم كُثر. نصٌّ أسود، بلا حدود، حيث حتى السخرية مؤلمة: (الربّ، لشدّ ما تنضحُ الذهنيَّة

الدينيَّة بالهراء. كلّ يقينٍ هو طعنةٌ في الذكاء. لكي يصيِّرَ المؤمنُ الموتَ مصيبةً بين مصائبَ أخرى، فقد ضحَّى بعقله. إذا ما كان الشكُّ قد صيَّرني عصاميًّا، تعلَّمَ الحياةَ بمفردِه، فإنَّ ذلك لم يمنعني من أن أستمتع بكلِّ لحظةٍ. لم تطغَ عليَّ قطُّ العاطفةُ الروحانيَّة، حتى وأنا أواجه البهاءَ المجيدَ لسحابة. وأنا أوشك على الموت غرقًا، أحاولُ السباحةَ، ولا أصلِّي لأرخميدس. واليومَ، وأنا أغوصُ، تنفتح عينيّ على هاوياتٍ لا تسري فيها أيّ مبرهنة).

بغتةً داخَلَ كليمانس القلقُ، فقرَّرتْ أن تتَّصل من فورها بمييزل. اتَّصلت به على المحمول، ثم على الهاتف الثابت. أجابتها الشرطة. فلمَّا علمت بالمر بما وقع لمييزل، انهارت، تقوَّضت. كانت تُجيب على أسئلة الشرطيّ، وحزنٌ صادقٌ يجتاحها، غضبٌ أسود يتمكَّن منها. متى كانت آخر مرَّةٍ التقت فيها مييزل؟ بداية شهر مارس، لكي يحتفلا بجائزة الترجمة التي حصل عليها، تعشَّيا في حانة ليب، حيث تناول هو أكلته الأبديَّة، نقانق الأوندوييت، بينما طلبت هي سلطةً باريسيَّة، وشربا نبيذَ بيك سان لو. ولم تنتبه آنذاك إلى شيء، لم تلمس في كلام صديقها أدنى إشارةٍ لما سيُقدم عليه. أعادت قراءة الخلل في ضوء الفاجعة التي يُنذر بها. انتبهت إلى أنَّه وقَّع الكتاب باسم ڤيكتور مييزل، على هذه الشاكلة Victضr Miesel، فغيَّر حرف o في ڤيكتور إلى رمز ض الذي يرمز إلى المجموعة الفارغة. عبثٌ مأساويّ.

حاولت بالمر أن تتَّصل بمن استطاعت أن تتَّصل بهم. لم يكن لمييزل أبوان، ولا أخ أو أخت. ثمَّة فقط إلينا ليسكوف، مدرِّسة الروسيَّة في المعهد الوطنيّ للُّغات والثقافات الشرقيَّة، وكانت قد فارقت مييزل بعد علاقةٍ عاصفةٍ دامت عامًا، وهي بالمناسبة من سلالة نيكولاي ليسكوف الذي ترجمه ڤيكتور. ولمَّا اتَّصلت بها الناشرة، قالت باقتناعٍ واضح: «Boje Moü،» «يا للفظاعة!»، ثم عجَّلت بالاستئذان. فخطرت ببال كليمانس تلك الجملة التي قرأتها منذ قليلٍ في كتاب مييزل: «لا أحد يعيش ما يكفي لكي يُدرك إلى أيِّ درجةٍ لا أحد يهتمّ لأمرِ أحد».

تكفَّلت الناشرة بكلِّ شيء، الاتِّصال بالأصدقاء، الدفن، المدنيَّ طبعًا، ونشرت الخبرَ على صفحة جريدة لوموند:

ببالغ الحزن، تنعى منشورات شجرة البرتقال، في شخص كليمانس بالمر، وكلّ الفريق، وفاةَ ڤيكتور مييزل، الكاتب والشاعر والمترجم، وصديق الدار.

حرَّرت بلاغًا مطوَّلاً لوكالة فرنسا للأنباء، ذكرت فيها ترجماته المرموقة، وأعماله التي تلقَّت قبولاً نقديًّا حسنًا. وأضافت أنَّ مخطوطًا استثنائيًّا سوف يُنشر قريبًا لمييزل، مخطوطًا أنهاه مباشرةً قبل أن يُقدم على ما فعله. ضمَّنت البلاغَ ثلاثة مقاطع من الخلل، ثم صبَّت قليلاً من الويسكي في كأسها، على الرَّغم من أنَّها لا تشرب، وارتشفت ببطءٍ الشرابَ الأسكتلنديّ الذي كان مييزل يحبّه.

صباح اليوم التالي، وسط «المجلس المصغَّر»، وهذا في الواقع وصفٌ ساخرٌ، لأنَّ جميع موظَّفي الدار حاضرون، بما في ذلك المتدرّبان، قرأت بدايةَ النصِّ بحزمٍ. أقرَّ المديران المسؤولان عن المجموعة نشرَ الكتاب، وألحَّ مدير التسويق على ضرورة التعجيل بإخراج الكتاب، من غير أن يجرؤ على التصريح بالدافع الحقيقيّ: واقعة الموت؛ إنَّ النقَّاد والقرَّاء سيُعجبون بقصَّة الكتاب، قصَّةِ أنَّه وُقِّعَ مباشرةً قبلَ القفزة الكبرى. وثمَّة مثالٌ يشهد على ذلك، مثالٌ حدث منذ ثلاث عشرة سنة، ما كان اسمُ ذلك المؤلِّف؟ واقترح مسؤول المكتبة تغيير العنوان، ألا نستطيع تغيير العنوان بحيث يُثير النهايةَ المأساويَّة؟ أجابته كليمانس بالمر بحزمٍ، كلاَّ، لا يمكن. فلنُضف إذن إلى الغلاف شريطًا أو غطاءً؟ كلاَّ. لنكتب على الأقلِّ Victor بدلاً من Victضr، تيسيرًا للبحث الببليوغرافيّ، خاصَّةً وأنَّ الكتابة الأولى أيسر وأكثر عمليَّة، أليس كذلك؟ كلاَّ.

ثم إنَّ الكتابَ صُحِّح نهاية الأسبوع، وصُفِّفَ يوم الاثنين، وأُرسلت نُسخُ التجارب الأولى من فورها إلى الصحافة، ونهايةَ الأسبوع سُلِّمَت إلى المطبعة بروقة العمل، وانطلق الطبع في اليوم نفسه الذي أُحرق فيه جثمان ڤيكتور مييزل بمحرقة الأب لاشيز. وقبل حتى أن يُذرَّى رمادُه كان الكتاب قد وصل عند الموزِّع. رقمٌ قياسيٌّ، لم يُشهد له مثيلٌ في عالم الطبع، منذ سيرة الأميرة ديانا. وفي الأربعاء الأوَّل من مايو، كان الخلل مصفوفًا في كلِّ المكتبات. لقد قرَّرت بالمر أن تطبع منه عشرة آلاف نسخةٍ، لكي تُعطي الكتابَ كلّ الحظوظ، وأضافت إلى الغلاف شريطًا أزرق لا يحمل أكثر من هذه الكلمة البسيطة: مييزل.

نجاحٌ فوريّ. خصَّ الفريقُ الثقافيّ لجريدة ليبيراسيون الكتابَ بصفحتيْن كان قد وعدَ الناشرة بهما؛ أمَّا صحيفة لوموند التي كانت قد تجاهلت معظم أعماله السابقة، فقد تداركت الأمرَ، فخصَّت المؤلِّفَ بمقالٍ رثائيٍّ طويلٍ، قالت فيه إنَّه «ينبغي تهنئة منشورات شجرة البرتقال على نشرها أعمالَ مييزل»، وجمَّع برنامجُ المكتبة الكبيرة كلَّ ما استطاع أن يجدَه من ڤيديوهات لمييزل، ليصنع منها

بورتريه للرجل؛ وكذلك خصَّته قناةُ فرنسا الثقافيَّة بثلاثة برامج: لقد انطلقت قضيَّة ميزل. أعادت كليمانس على وجه السرعة طبعَ شطرنج خسِر، بل وحتى تلك الرواية التي تحمل عنوان ستُلاقينا الجبالُ، والتي كانت نسخها الباقية مكدَّسة في المخزن تنتظر الإتلافَ.

نُظِّمت لقاءاتٌ، وقبِلت بالمر المشاركة في بعضها. وراح ممثِّلون يقرأون مقاطعَ من أعمال ميزل في المكتبات، بل إنَّ بيت الشعر في باريس نظَّمَ «ليلة ميزل»، حيث قرأ ممثِّلٌ شهيرٌ بصوته الجهوريّ، أمامَ قاعةٍ ممتلئةٍ عن آخرها، في أربع ساعاتٍ، الخللَ الذي «هزَّ كيانَه». وكانت إيلينا بين الجمهور، دامعةَ العينيْن. أن تطبع كتابًا في شهر مايو، فذاك أمرٌ يُضعف من حظوظك في الفوز بجوائز الدخول الأدبيّ، لكنَّ اسمَ ميزل ما فتئ يتردَّد همسًا وسط لجان الجوائز، يقولون إنَّه «عملٌ لا يمكن مجانبَتُه». وبدأ اسمُ جائزة ميديتشي يتردَّد.

وكان شهر مايو نفسه الشهر الذي أُسِّست فيه جمعيَّةُ أصدقاء ڤيكتور ميزل، وهم جماعةٌ متباينةٌ من الزملاء والمعجبين، وبالطبع لم يكونوا جميعهم قد عرفوا ميزل، ولا حتى قرأوا له. وقد صار لڤيكتور ميزل الآن عددٌ كبيرٌ من «الأصدقاء الخُلَّص»، بدءًا من المدعوّ السيِّد ت.، وهو متأنِّقٌ ذو صوتٍ عالي النبرة، يرتدي على الدوام سترةً سوداء ضيِّقة؛ وصولاً إلى المدعوّ ساليرنو - سيلڤيو، ليفيو؟ - «صديقه منذ عهدٍ بعيدٍ» الذي لم تسمع به قطُّ كليمنس بالمر. وسرعان ما أطلقت الجماعة على نفسها اسم أفيمي (أصدقاء ڤيكتور ميزل)، ثم غيَّرته إلى «الخلَلِيُّون». انضمَّت إيلينا إلى الجماعة، ثم أعادت صياغةَ قصَّة حبّهما التي لم تعرف نجاحًا، فرفَّعت الآنسةُ ليسكوف نفسَها شيئًا فشيئًا إلى المرتبة المأساويَّة والباعثة على الفخر، مرتبة أرملةٍ رسميَّة.

وكانت كليمانس بالمر تراقب كلّ ذلك من مسافةٍ، وبشعور امتعاضٍ مبهم. أصلاً أن يُصيبَ المرءُ المجدَ في الخمسين، أشبه شيءٍ بأن تُقدَّم له صلصة الخردل لحظةَ التحلية. إنَّ الصيت الذي حقَّقه المؤلِّفُ بعد وفاته يكرب الناشرة بأشدّ ممَّا يكربها إهمالُها الجائرُ. ماذا كتب ڤيكتور؟ «كل المجد ليس إلاَّ خدعة؛ يُستثنى من ذلك ربَّما المجدُ الذي نحوزه في سباقِ الركض. لكنَّني أشكّ في أنَّ كلّ من يدَّعي تخلِّيه عن المجد أنَفةً، ليس في الواقع إلاَّ غاضبًا من اضطراره إلى التخلِّي عنه».

سْلِيم بوي

الجمعة 25 يونيو 2021

إيكو أتلانتيك، لاغوس، نيجيريا

يتعثَّر القنصلُ الإيطاليّ في لاغوس كلَّما خطا خطوةً تُدنيه من حلويات البُتي فور. لا توافقُه نيجيريا، ولا الكحول. أوغو داركيني يترنَّح ويتمايل، وحين أفلت من كأسه بعض الشمبانيا، فلطَّخ بها الباركيه العجيب لغرفة الاستقبال الهائلة الأبعاد، في فندق إيكو أتلانتيك، اعتذر بصوتٍ خشنٍ عطشان.

اقترب داركيني من نظيرته، القنصل الفرنسيَّة، الواقفة بجانب البوفيه، كما يقترب غريقٌ من طوق نجاة. وكان فستانها الأصفر، بدوائره الحلزونيَّة المذهَّبة، يبدو له ذا قُدرةٍ تنويميَّة، مثل بطن الأب أوبو[3]. منذ أن حلَّت، في الحفلات النيجيريَّة، أرديةُ الداشيكي والدرَّاعات التقليديَّة، محلَّ فساتين فرساتشي وبِذل السموكينغ أرماني، صار على المرء بذلُ الكثير من الجهد إنْ كان يريد ألاَّ تُهمِلَه الأنظار. ما إن لمح النيجيريُّون الثلاثة الذين كانوا يتحدَّثون مع القنصل الفرنسيَّة، الإيطاليَّ حتى انفضُّوا من حولها، كأنَّما ينذرُ بالوباء. تموُّجاتُ الفستان تستحوذ على نظرة القنصل، فيشعر بموجة غثيانٍ تغشاه.

- بوونا سيرا، هيلين. لديكِ فستانٌ جميل، فستان تابافيزيقيّ... أقصد باتافيزيقيّ[4]. اعذريني.. مع أنِّي لم أشرب سوى كأسيْن.

- مساء الخير يا أوغو، كنت أسأل عن أخبارك. ظننتُك عدت إلى إيطاليا، بعد ما حدث. علمتُ أنَّ ابنتك عادت مع أمّها إلى سيينا.

تصنَّع أوغو داركيني ابتسامةً. كلاًّ، إنَّ هيلين شارييه لا يمكنها أن تفهمَ، لا يمكنها أن تتمثَّل الأيَّام التي قضاها يساوم خَطَفَةً، من مدمني الميثامفيتامين، لكي يستعيد ابنته ذات الأربعة عشر ربيعًا، ويجاهد كي يطرد عن ذهنه صور الجحيم الذي تعيشه ابنته ريناتا، وخوفَه من أن يقدِم أحد أولئك الأوغاد على بتر إصبعٍ من أصابعها أو أذنٍ من أذنيْها، تعجيلاً للحصول على السبعين ألفَ دولار. وقد عهد بالنقود إلى «مستشارٍ أمنيّ» يدعى تايوو، شخصٌ مريبٌ لكنَّه لجأ إليه بتوصيةٍ من مديرٍ مساعدٍ في شركة التنقيب عن البترول، إيني. وكان الشخص المريب قد اضطلع بدور الوساطة حين خُطف ابن المدير المساعد، قبل سنتيْن. تمَّت المبادلة مع عصابة الأريا بويز، تحتَ فوَّهات بنادق الكلاشينكوف من الجانبيْن، في أحد أزقَّة أبابا، قرب الحاويات، قبالة كنيسةٍ إنجيليَّةٍ تومض فيها لافتةٌ كُتب عليها «Pray as you go». حينئذٍ لم تكن الفدية المطلوبة سوى خمسين ألف دولار. الغلاءُ لم يستثنِ شيئًا.

خُطفت ابنتُه على الرَّغم من أنَّ الجميع حذَّروه، الجميع بدءًا من سفير إيطاليا في أبوجا إلى عامل الهاتف في القنصليَّة. جميعهم قالوا له، انتبه لابنتك حين تذهب وتعود من المدرسة الدوليَّة يا سيِّدي القنصل، إنَّ الناس هنا تعيش بدولارٍ واحدٍ لليوم، لذا يُعتبر الخطفُ بِزنسًا مثل أيّ بزنسٍ آخر غيره، لا بل إنَّه بزنس مُدِرٌّ أكثر من أيِّ بزنسٍ آخر. لكنَّ هذا المرور من لاغوس كان ضروريًّا، إنْ هو أراد أن يحصل في غضون سنةٍ أو اثنتيْن على منصبٍ مماثلٍ في أثينا. وأصرَّت ماريًّا على مرافقته كي تستكشف ابنتُهما ريناتا إفريقيا. وليومٍ واحدٍ، ليومٍ واحدٍ فقط، رقَّ لإلحاح ابنته، وسمح لها بأن توغل، بدون حراسةٍ مسلَّحة، خارج حدود المنزل المحروس. يومٌ واحدٌ فقط.

قالت القنصل الفرنسيَّة متنهِّدةً: - خيرًا فعلنا إذ عادتنا إلى إيطاليا، لأنَّ لاغوس من أسوأ إلى أسوأ. الكهرباء تعمل ثلاثين دقيقة ثم تنقطع بالساعات. لا أدري كيف يحفظ الناسُ هنا الأطعمة بدون مجمِّد. في القنصليَّة، لولا المولِّدات لما استطعنا العمل، ولولا الصهريج لما حصلنا على ماء.. وقس على ذلك كلّ شيء يا أوغو، كلّ شيء.

أجل، قِس على ذلك كلّ شيء. أوغو يعرف. منذ أبصر لاغوس، أوَّل مرَّةٍ، من نافذة الطائرة، ومن خلال سحابة التلوُّث البنِّيَّة، ألفاها كيلومتراتٍ مربَّعةً من الأحياء الفقيرة الملتصقة بعضها ببعض، وملايينَ من سقوف القصدير الصدئة، شبكة من الفوضى، من غير أن ننسى الازدحام المروريّ الهائل الذي تلوُّنه بالأبيض والأسود، تلك الحافلات الصغيرة، الشبيهة بخنافس

كولورادو، الحافلات الخطيرة لدرجة أنَّ المطالَبات بحظرها ترتفعُ، سدًى. وفي كلِّ صيف، حين تهطل الأمطار الغزيرة، تتحوَّل الشوارع إلى مستنقعاتٍ موبوءة، فتستعيد كلمة لاغوس معناها البرتغاليّ «بِرك». منذ عقود والمدينة موكولةٌ إلى نفسها، بلغ فيها الفساد مبلغَ أنَّ شركات الأشغال العموميَّة الأجنبيَّة، ترفض توقيع عقودٍ مع البلديَّات. حتى الدولةُ هجرت المدينة، وطيلة خمس سنواتٍ لم يزُر لاغوس أيّ رئيسٍ نيجيريّ.

يوميًّا، يسمع أوغو الأخبار المأساويَّة. مثلاً خبر تلك المراهقة التي اضطرَّت إلى أن تعبر الطريق السريع لكي تصل إلى صنبور الماء المشروب الوحيد في المنطقة، فدهستها سيَّارةٌ، ومرَّت من فوقها عشر سيَّاراتٍ أُخر دون أن تتوقَّف منها سيَّارة. وخَبَر الرجل الذي أصابته نوبة صرعٍ، فانهار أرضًا - حدث ذلك بالأمس، وناروما، طبَّاخة القنصلِ، شاهدةٌ على الواقعة - وتركه الجميع ينتفض ويرغي، وربَّما مات. وخبر ذاك الشيخ، في حيِّ الصفيح بأوشودي، الذي ارتمى تحت عجلة البلدوزر محاولاً استنقاذَ ملابسَ وقعت منه، فلم يوقف البلدوزر حركتَه لحظةً.

إن كنت تحسب نفسَك قويًّا، فتعالَ إلى لاغوس، وسوفَ ترى.

وضعت القنصل كأسَها، ونادت شابَّةً سوداءَ، ممتلئة الجسم، ترتدي فستان داشيكي بنفسجيًّا، فلبَّت الشابَّة النداء وقبَّلتها في حماس.

- آه، هيلين! أبحثُ عن مديرة مجلَّة فاشن ويك لاغوس، لكنَّني لا أدري أين يمكن أن أجدها...

- سواحيلا، اسمحي لي بأن أُعرِّفك على نظيري الإيطاليّ، أوغو داركيني. سواحيلا هي مندوبنا الثقافيّ في لاغوس منذ سنة.

ابتسمت المرأة وصافحت اليدَ الخاملة التي مدَّها إليها القنصل الإيطاليّ. وعند مدخل القاعة، سطعت الفلاشات، وتعالت الصيحات.

قالت المندوبة الثقافيَّة: - أوه، إنَّه سْليم بوي! سيقدِّم حفلاً، بعد ساعتيْن من الآن، في ڤيكتوريا آيلند. طبعًا تعرفين سليم بوي يا هيلين.

كلاَّ، هيلين لا تعرفه.

غنَّت المندوبة الثّقافيَّة ضاحكةً: - «Money not worth it worth it worth it»، لكنْ يا هيلين، ألا تدخلين على يوتيوب؟ منذ ثلاثة أشهر أو أربعة كان يتمتَّع بشهرة محلِّيَّة، أمَّا الآن فقد فجَّر كلّ التوقُّعات، أغنيته Yaba Girls، تجاوزت مليارًا من المشاهدات في بضعة أسابيع. قنبلة في وسائط التواصل، مثلما حدث مع ذاك الكوريّ منذ عشر سنوات، عرفتِ الآن؟... سليم بوي؟ وأنت يا سيِّدي قنصل إيطاليا؟

ردَّ أوغو في أدبٍ: - كلاَّ يا سيِّدتي المندوبة الثقافيَّة، أنا أيضًا لم أسمع باسمه قطّ. الموسيقى التي أسمعها بالأحرى هي موسيقى فيردي وبوتشيني، وأقصى ما يمكن أن أبلغه هو باولو كونتي.

وهذه المرَّة أتى الدور على سواحيلا لتنتقم، فأبدت الجهل بالأسماء التي ذكرها.

- Yaba Girls أغنية بإيقاع هيب هوب آر إن بي، أو بالأحرى بوب إفريقيّ. تكريمٌ لأُمّه التي كانت تُدير متجرًا في يابا، بالفاشن ديستريكت.

سحبتهما بحركةٍ من يدها.

- هيَّا معي إذن، سوف نحضر مؤتمره الصحفيّ. لقد موَّلت الوزارة إحدى حفلاته في باريس، شهر مارس الماضي.

سار القنصلان في إثر المندوبة الثقافيَّة التي مضت تشقّ، في حماسةٍ، طريقها وسط الحشد الذي ما انفكَّ يزداد تماسكًا، حتى بلغت المغنِّي وصاحبته، وصيحات المعجبين والباباراتزي التي تهتف: - سليم بوي! سليم بوي! قبّل سوومي، لنلتقط لكما صورة!

أطاع أمبراطور البوب الأفريقيّ كلام المصوّرين، وقبَّل تحت بريق الفلاشات، الممثِّلة الشابَّة، بعدَ أن ثنى ركبتيْه، لأنَّه كان طويلاً بقدر ما كانت خطيبتُه الجديدة قصيرةً. استسلما طويلاً لعدسات المصوّرين، طائعين راضين. ربَّما تكون هذه هي السعادة! لا يكاد فيمي أحمد كادونا، الملقَّب بسْليم بوي، يصدِّق نفسه. منذ ثلاثة أشهر فقط كانت شهرته لا تتجاوز لاغوس الصغرى، أي حيَّ بِكهام، وجنوبَ لندن؛ وفي أفضل الأحوال، ويستشيس في ضواحي هيوستن، وعلى الرَّغم من أنَّه استعادَ، على طريقته الخاصَّة، أغاني شهيرة لڤيلاَّ كوتي، فإنَّ حفليْه بباريس، ونيويورك، لم يحرزا النجاح المتوقَّع.

وكانت الساعة الأخيرة من رحلته باريس - نيويورك، تلك الرحلة التي كادت تودي بحياته، والتي استعمل فيها عددًا من أكياس التقيُّؤ، هي الساعة التي انفتح فيها لذهن سْلِيم بوي باب أغنية Yaba Girls. أغنيةٌ تحكي بكلماتٍ بسيطة، تعلُّقَه بحيّ طفولته، بصبايا «الإبرة والمقصّ»، أغنيةٌ تُعبِّر عن عرفان الصغير فيمي لأُمّه التي كانت تبيع الحليَّ في السوق، وتصلِّي له دومًا، أُمّه التي ماتت حديثًا، ستكون أغنيةً عذبةً، مدهشةً، وإيقاعيَّة.

وفي رحلة عودته إلى لاغوس، قرَّر، استثناءً، ألاَّ يكون الڤيديو - كليب هذه المرَّة على شاكلة ڤيديوهاته المعتادة؛ لن يستعرض درَّاجاتٍ ضخمةً، ولا سيَّاراتٍ بمحرّكاتٍ نفَّاثة، ولن يعرض فتياتٍ، شبه عرايا، يرقصن على الشاطئ أو يهتززن معه على السرير في ڤيلاَّ باذخة، ولن يملأ عنقه بسلاسل الذهب أو يحصي دولاراته مبتسمًا. كلاَّ، لن يفعل ما يفعله الجميع، إنَّه يرغب في تقديم شيءٍ مغاير، سوف يصوِّر كرامةَ عامَّة الناس، العمَّال المتعبين، والبائعات في المتاجر، والخيَّاطين، والمكوَجيّين وهم يعملون، ضاحكين راقصين، في درجة حرارة خمس وأربعين في الظلِّ، ولن يعمد إلى أيّ ألوانٍ غير بُقعٍ من قماش الواكس الإفريقيّ. وهو، سْلِيم بوي، يجوب الشوارع القذرة، بزيِّه الأبيض، مغنيًّا بالإنجليزيَّة واليوروبا، مصافحًا هذه، وتلك، في احترامٍ وتواضعٍ، جديريْن بالتبجيل الذي يكنُّه الصبيُّ لطفولته السعيدة. هو، سْلِيم بوي، سيكسر قواعد أجواء الأفرو - راب، سيتجنَّب مؤثِّرات الرجع والصدى، وترديد الصوت، وغيرها من المؤثِّرات المستهلَكة، سوف يسند اللحن بعزف ساكسفون، حيث يجاوبُه العازفُ، ويناوبُه بلطف. حتى إنَّ سْلِيم بوي قرَّر من يكون العازف. إنَّه رجلٌ أبيض، مسنٌّ، مهزول، شبه أصلع، عازف موهوبٌ من كيبيك، سبق أن عزف مع مغنِّي الراب الكنديّ دريك، سيجعل منه رمزًا للعالم القديم الذي يسلِّم المشعل للعالم الجديد.

صوَّروا الكْليب في شوارع يابا، خلال يوميْن، وعلى الفور نزَّلاه على النتّ، فجالت الأغنية أرجاء العالم. والآن صارت لأغنية Yaba Girls أربع صيغ ريمكس، وكان سْلِيم بوي مفاجأة مهرجان كواشيلا، حيث غنَّى إلى جانب بيونسيه. وأنجز ديو مع إيمينيم، واستضافته أوبرا وينفري في برنامجها. بلى، قد تكون هذه هي السعادة.

عقب عودته من جولةٍ في إنجلترا، اشترى سْلِيم بوي، على الرَّغم من كلِّ ما سبق، سيَّارة لامبرغيني صفراء، وشقَّةً هائلةً، في الطابق الأخير من برج بإيكو أتلانتيك، برجٍ لم توضع فيه بعدُ أيّ طوبةٍ؛ لا يمكن أن نتنكَّر لطبيعتنا إلى الأبد. وعلى العموم، ذاك ما يريده الشباب في نيجيريا؛

يريدون أن تُباعَ لهم الأحلام، يريدون أن يشربوا الشامبانيا في سيَّارات السباق، يريدون أن يزوروا الشقَّة بشرفتِها المطلَّة على البحر، يريدون من يقول لهم إنَّهم وإن كانوا يستيقظون كلَّ صباحٍ في كوخ القصدير العفن، وسط إطارات العجلات المهملة، والجرذان النافقة، إلاَّ أنَّ الغنى والمجد على بُعْد خطواتٍ منهم، ينتظرانهم عند ناصية الشارع! صحيحٌ أنَّهما ينتظران واحدًا من مليونَ منهم، لكنْ فيما يهمّ ما دام كلٌّ منهم على يقينٍ من أنَّه هو ذاك الواحد من المليون، أنَّه هو المختار.

تمكَّن القنصلان والمندوبة الثقافيَّة من بلوغ المنصَّة التي كان يقف عليها سْلِيم بوي. لم تكن الأسئلة واضحةً لأسماعهم، ولكنَّ المغنِّي، خلف الميكروفون، يبدو أنَّه يفكِّر ثم يُجيب.

- أريد أن أتحلَّى بالأمل بخصوص إيكو أتلانتيك، آمل أن يكون فرصةً ذهبيَّة للاغوس ولنيجيريا، وأن تستفيد كلّ الساكنة من تشييد المدينة الأكثر طموحًا في إفريقيا.

هزَّت القنصل الفرنسيَّة رأسَها، دهشةً: إنَّ هذه النظريَّة البرَّاقة والعبثيَّة، ما تزال صامدة.

التفتت إلى داركيني: - بالمناسبة، ما رأيك يا أوغو في هذه البشاعة التي يدشّنونها، مبنى بعد مبنى، وهم يحشون أنفسهم بحلوى البيتي فور؟

عبس القنصل الإيطاليّ. بلى، إنَّ إيكو أتلانتيك، هذه الجزيرة المصطنعة التي اغتصبوها من المحيط، شناعةٌ. ما تزال مجرَّد أرضٍ خلاء، لكنَّ مائتي ألف من أغنى أغنياء لاغوس سيلوذون بناطحات سحابها البرَّاقة، يحتمون فيها من عنف المدينة الهائلة، بواسطة جسورٍ يحميها حرَّاسٌ مسلَّحون. وفي قلعتهم الحصينة تلك سيكون لهم محطَّةُ توليد كهرباء خاصَّةٌ بهم، وكذا محطَّة معالجة مياه الصرف، ومطاعمهم، وقصورهم، ومسابحهم، وموانئ شخصيَّة ترسو عليها يخوتهم...

استأنفت هيلين الكلام: - دبيْ أفريقيا، كما يقولون. حتى إنَّهم رفعوا أساساتها عدَّةَ أمتارٍ، تحسُّبًا لصعود الماء. ومن أعلى مبانيهم سيتأمَّل الأغنياء لاغوس بأحيائها، وسكَّانها الأربعين مليونًا، يغرقون، من كورامو بيتش إلى مدن الصفيح في ماكوكو، سيتأمَّلون تلك المجاري في الهواء الطلق... آسفة يا أوغو، لكنَّني أجد الأمر فظيعًا. وهل تدري ما الأفظع؟ إنَّه عالم الغد. لقد استسلم الناس، وصارت كلّ جهةٍ تحاول أن تنجو بنفسها، لكن لا أحد سينجو في نهاية المطاف. ليست لاغوس من يبتعد عن الحضارة؛ إنَّما نحن، نحن جميعًا، في كلِّ مكان، نحن من يقترب من لاغوس.

- أنتِ تبالغين يا هيلين.

- أودّ لو كنت كذلك يا أوغو.

فجأةً، عاد الصمت إلى قاعة المؤتمر. طرح صحفيٌّ سؤالاً على سْلِيم بوي.

- إزي أونيِديكا، عن صحيفة بونش. سْلِيم بوي، يُقال إنَّك ستغنِّي أغنيةً جديدة، مع دكتور فيك؟ أهي أغنيةٌ تدافع عن المثليَّة؟ هل أنت مثليّ؟

استقرَّ في القاعة صمتٌ ثقيلٌ كأحجار البناء. إن كانت أفريقيا بأكملها جحيمًا للمثليّين، فإنَّ نيجيريا هي الحَلْقة التاسعة منه. ثمَّة القانون الذي يتوعَّدُهم بالسجن أربعة عشر عامًا، ثمَّة الشرطة التي تتعقَّبهم وتبتزّ أموالَهم، وثمَّة ساكنةٌ بأكملها تنفُرُهم، باشمئزازٍ وكراهيّة، يحرِّكها ضدّهم الحقدُ الذي يغذِّيه قساوسةٌ وكُهَّانٌ في الجنوب، ومسلمون يطبِّقونَ الشريعة في الشمال. لا يمرّ يومٌ من غير أن يُقتلَ شبابٌ، أن يُغتالوا، لا يمرّ يومٌ من غير أن يضطرّ مغنٍّ أو ممثِّلٌ إلى أن يدفع عن نفسه تهمةَ المثليَّة، بصوتٍ يرتعد رعبًا. ثم ها المغنِّي المرهف الدكتور فيك، منذ ثلاثة أشهرٍ، من غير أن يفصح عن ميله إلى الرجال، يجرؤ على أن يكسر التابو بأغنيته المسالمة، ومع ذلك الملتبسة: Be Yourself.

أجاب سْلِيم بوي:

- هذه أسئلةٌ كثيرة. نعم، سوف أُغنِّي أغنيةً مع الدكتور فيك، وعنوانُها True Men Tell the Truth. لكنَّ عبارة «أغنية دعمًا للمثليَّة» لا معنى لها. حين أغنِّي أغنية My Nollywood Girl، فإنَّما أُغنِّي للحبّ وليس «دعمًا للغيريَّة الجنسيَّة». هل تدرك الفرق؟ ثم لك عندي سكوب صحفيّ: لقد علمت للتوّ، أي منذ دقائق فقط، أنَّني سأسجِّل قريبًا في لندن أغنيةً مع إلتون جون. بعد غد يُرسل إليَّ طائرته الخاصَّة.

ألحَّ الصحفيّ بالسؤال: - لكن، هل أنت مثليّ يا سْلِيم بوي؟

- هل تريد مواعدتي؟

ضحك الصحفيّ، فأثخنَ سْلِيم بوي الطعنَ: - لِمَ لا تطرح هذا السؤال بالأحرى على سوومي؟

ابتسمت الشابَّة ضرورةً، ثم قبَّلت سْلِيم بوي في فمه بشراهةٍ مرحة ولعوب. وتواصلت القبلة غير آبهةٍ بتصفيق الصحفيّين، إلى أن أوقفها سْلِيم بوي بلباقةٍ، وأضاف: - لكنْ حين أقرأ أنَّ سكَّان قريةٍ هشَّموا بالحجارة رأسَي صبيَّيْن في السادسة عشرة من عمرهما، بدعوةٍ من واعظٍ، لا لشيءٍ إلاَّ لأنَّهما قبَّلا بعضهما بعضًا، فإنَّني أقول إنَّ بلدنا يحتاج تغييرًا. أنا وسوومي متَّفقان في هذه النقطة. لا نستطيع أن نُجبر إنسانًا على أن يخالفَ حقيقتَه. نحتاج التسامح، نحتاج الحبّ. كيف لنا أن نظنّ أنَّنا سنكون أكثر سعادة إن نحن آذينا غيرنا؟

عمَّت المكان الجَلَبة، وانهالت الأسئلة. التفت سْلِيم بوي إلى مدير أعماله قلقًا، فأنهى مدير الأعمال المؤتمر. ولو كانت للفنَّان حرّيَّةُ الكلام، لحكى لهم مصير توم، عشيقه الأوَّل، أيَّامَ كان في الرابعة عشرة من عمره، توم الذي أحرقته الجموع الهائجة أمام عينيْه حيًّا، ولحكى هروبَه هو في الليل، حافيَ القدميْن، مفزوعًا، مرعوبًا، مدمَّى الوجه، ركضَه في إبادان يلاحقه الحشد العدوانيّ، ولحكى لهم علاقاته الحاليَّة القصيرة جدًّا والمحفوفة بالخطر، ولحدَّثهم عن اضطهاد المثليّين في نيجيريا، وعموم إفريقيا، ممَّا يضطرّهم في نهاية المطاف إلى الهروب، إلى اللجوء إلى بلدان البيض الباردة حيث يحظون، على الرَّغم من كلِّ شيء، بالحقِّ في التنفُّس. مع الدكتور فيك سيغنِّي أغنية True Men Tell the Truth، ويا للسخرية، يا للكذب، لا بل يا للخيانة! لكنَّ سْلِيم بوي يعرف أنَّ استمراره بالعيش في لاغوس رهينٌ باختراع حياةٍ موازيةٍ، لدرجة أنَّه أبرم هذا الاتِّفاق مع سوومي، نجمة نوليوود الصاعدة، سوومي الشهيَّة التي، بالطبع، تحبّ الرجال والنساء على حدٍّ سواء.

فجأةً، انتبهت هيلين إلى رجلٍ طويلٍ أسود يرتدي بذلةً قاتمة. انتحى جانبًا، وأخذ يراقب المغنِّي خلسةً.

التفتت إلى القنصل الإيطاليّ، وأشارت بذقنها إلى الرجل: - أوغو؟ الرجل الذي يلتقط صورًا بهاتفه، هل تراه؟ أقدِّم لك الملحق التجاريّ البريطانيّ. جون غراي. لا أراهنك على أنَّه اسمه الحقيقيّ، لكنَّني بالمقابل على يقينٍ من أنَّه في خدمة البريطانيّين. وهو ليس الوحيد. ثمَّة اثنان غيره

من فريق الأمن بالقنصليَّة. وثمَّة، بخاصَّةٍ، نصف دستةٍ من الأشخاص الغريبين الذين لم يسبق لي أن رأيتُهم. إنَّهم من جهاز الاستخبارات البريطانيّ.

- لديكِ قدرةٌ هائلة على الملاحظة يا هيلين. هل أنتِ أيضًا عميلةٌ للسلطات الفرنسيَّة؟

- كلاَّ يا أوغو، طبعًا لا. والدليل: لو كنت كذلك هل تعتقد أنَّني كنت لأقول لك لا.

- قطعًا. أوه، هل تعرفين، يا هيلين، قصَّة الجاسوس الأميركيّ الذي أُرسل في مهمَّةٍ إلى الاتِّحاد السوفييتيّ... لقد أراد صاحبنا أن يسلِّمَ نفسَه، فقصد اللوبيانكا.

- قصد ماذا؟

- اللوبيانكا... مقرّ الكا جي بي في موسكو... الخلاصة، قال لهم «أنا جاسوس، وأريد أن أسلِّم نفسي. سأله عامل الاستقبال: - لحساب من تعمل؟

- الولايات المتَّحدة الأميركيَّة.

- حسنًا، توجَّه إلى المكتب 2».

توجَّه الجاسوس الأميركيّ إلى المكتب 2، وقال: - «أنا جاسوسٌ أميركيٌّ وأريد أن أسلِّم نفسي.

- هل أنت مسلَّح؟

- نعم أنا مسلَّح.

- اذهب إلى المكتب 3 من فضلك». ذهب إلى المكتب 3، وقال: - «أنا جاسوسٌ أميركيٌّ، وأنا مسلَّح، وأريد أن أُسلِّم نفسي.

- هل أنت في مهمَّة؟ أجاب الجاسوس وقد بدأ ينزعج: - نعم أنا في مهمَّة. اذهب إذن إلى المكتب 4». ذهب إلى المكتب 4، وقال: - «أنا جاسوسٌ أميركيٌّ، وأنا مسلَّح، وأنا في مهمَّة، وأريد أن أسلِّم نفسي.

- هل أنت حقًّا في مهمَّة؟

- نعم.

- اذهب إذن لإتمام مهمَّتك اللعينة، واترك الناس تعمل!»

ابتسم أوغو لنكتته. وأمَّنت هيلين على جودة النكتة التي كانت تعرفها، إذ إنَّها من جملة ما يحكي من نكتٍ في «المسبح»، أي مقرّ مكافحة الجاسوسيَّة الفرنسيّ. وقبل أن تعيَّنَ قنصُلاً في لاغوس، كانت عيونَ المديريَّة العامَّة للأمن الإقليميّ، في كينيا، وفي جنوب إفريقيا.

لم يتحرَّك العملاء خطوةً، وظلَّت عيونهم مسمَّرةً في سْلِيم بوي.

- لا ندري ماذا يصنعون هنا، ومنذ متى يهتمّ جهاز الاستخبارات البريطانيّ بالراب الإفريقيّ والأر إن بي؟

أدريان وميريديث

الخميس 24 يونيو 2021

فاين هال، جامعة برينستون، نيو جرسي

أمام قسم الرياضيَّات في برينستون، وهو مبنًى أنيق من زجاج وطوبٍ أحمر بمعمارٍ عصريٍّ بدأ يتقادمُ، نصبَ الطلاَّبُ طاولاتٍ بركائز، وأقاموا خيمةً بسرداق أبيض، وأشعلوا نارَ شواء. إنَّهم يشوون النقانق احتفالاً بحصول تانيزاكي على ميداليَّة فيلدز، وقد تنبَّه المتخصِّصُ في حساب الاحتمالات، أدريان ميلير، إلى نفسه وهو ينظر إلى زميلته ميريديث هاربر بابتسامةٍ متوتِّرة، يناوِبُها بسحنةٍ عاطفيَّةٍ بليدة. في المرَّة الأولى التي رأى فيها أدريان ميريديث، ألفاها بشعةً بشاعةً صريحة. إنَّما أمثال ذلك الانطباع تكون عابرةً، وهذا ما يمكن أن يؤكِّده أفضلُ المؤلِّفين. وقد مرَّ شهران مُذ قدِمت الطوبولوجيَّة البريطانيَّة، ميريديث، فصارت الآن تجذبه على نحوٍ مدوّخٍ، بساقيْها المفرطيْن في النحافة، وشعرها الكستنائيّ المفرط في الهدوء، وطبعها المتحفِّظ على الدوام.

ولكي يتشجَّع فيبادرها بالحديث، شرب أدريان بيرةً، ثم أتبعها بأخرى. إنَّ الشرب على معدةٍ فارغة قد يدفع به إلى التوهُّم.. لقد قالت له ميريديث ذات يومٍ - من غير قسوة - «إنَّه يشبه الممثِّل رايان غوسلينغ، في صيغةٍ متدهورةٍ، ورأسٍ أميَل للصلع»، أمَّا الآن، فيُشبه شخصًا ثملاً. يقدّرُ نسبةَ حظوظه في 27%. وكان يمكن لحظوظه أن تصل حتى 40% لو أنَّه لم يعبَّ هذا القَدْرَ من الكحول، لكنَّ الثمل بالمقابل يخفّض إلى 60% نسبةَ الألمِ الذي قد ينجُم عن رفضٍ محتمل. فخلُص رجلُ الاحتمالات إلى أنَّ مع هذه النسبة لتخطِّي ألم الرفض، الأفضل له أن يكون ثملاً.

لقد قضى أدريان أكثرَ عمرِه في حساب الاحتمالات، وفي الاستماع لموسيقى باخ والبيتش بويز. لم يُنشئ أسرةً، ولا طفلاً يحملُ اسمَه، اللّهمَّ إلاَّ إن رفعنا إلى مرتبة النسلِ مقولةً غامضةً كان قد صاغها. ميريديث هي أوَّل عاطفةِ حبٍّ يشعر بها منذ زمنٍ بعيدٍ، حتى إنَّه الآن يقول لنفسه، إنَّها

الحبّ الوحيد الذي شعر به. وهي الآن بمفردها تحت شجرة الأكاسيا العظيمة، تبدو رشيقةً في فستانها القطنيّ الأسود. حاول أن يقصدها رأسًا.

قال من البداية:

- لقد شربتُ.

أجابت ميريديث التي بالفعل قد لاحظت اضطراب مشيته: - أشاطرك الرأي.

- وأنا أفوح برائحة البيرة! فعذرًا.

- ليس لي ما أقوله يا أدريان، فأنا أيضًا أفوح برائحة البيرة.

ثم أرَته القنّينةَ الفارغة التي كانت تُمسكها في يدها، ومالت عليه في حركةٍ حلوةٍ في عدمِ دقَّتِها، ونفخت في أنفه بنَفَسٍ رطبٍ تُعطِّره رائحةُ الجنجل[5]. استنشق يا أدريان، هذا عطرُ الانزعاج والملل. لأنَّ ميريديث تعيش الملل في برنستون. اللّندنيَّةُ لا تحبّ هذه المدينة، حيث المطعم الصينيّ - الذي يظلّ مفتوحًا حتى وقتٍ «متأخِّر» - يبدأ في إطفاء الأنوار وإشعالها، ما إن تدقّ الساعة التاسعة، إيذانًا بقرب موعد الإغلاق. ولا تحبُّ هذا الحرم الجامعيّ الذي يحاول التشبُّه بهوغوورت[6]، بأبراجه المحصَّنة، وأجراسه العائدة إلى القرن التاسع عشر، والتي شُيِّدت على النمط القروسطويّ. ولم تتآلف وهؤلاء الطلبة الذين يحسبون أنفسهم قد خرجوا رأسًا من فخذ الإلٰه جوبيتر، والذين، بدعوى أنَّ آباءهم قد دفعوا نظير تعليمهم ستِّين ألف دولار، يقصفُونها طيلة الوقت بإيميلات، يسألون فيها أسئلةً تافهة حول مبرهنة غروموف؛ أسئلةً يريدون لها أجوبةً فوريَّةً، في حين أنَّ بوسعهم إيجاد أجوبةٍ بتصفُّحٍ سريع لويكيبديا، خاصَّة وأنَّ البوَّابةَ المخصَّصة للمبرهنة المذكورة قد حُرِّرت على نحوٍ جيِّد. وتكرهُ هؤلاء المدرِّسين الذين ينظرون إليها بتعالٍ، ويعتبرون أنَّ جامعتها الأصليَّة، سانت أندروز، لا يمكن أن تضاهي جامعة برينستون، ما داموا هم من جامعة برينستون، وهذا «من البيِّن بنفسه». أمَّا أدريان فلا ينطبق عليه ما سبق، ولولا شيءٌ من تبلُّدٍ يطبعُه، لأدرك منذ مدَّةٍ بعيدةٍ أنَّها معجبةٌ به. فهو، قياسًا إلى كونه رجلَ احتمالاتٍ، يبدو حالمًا، وله عيْنان خضراوان تضفيان عليه هيأةَ مُنظِّر أرقامٍ، وإنْ كان يضع نظَّاراتٍ من فولاذ على شاكلة مُبرمِجٍ، ويرخي شعره طويلاً على هيأة مبرمج ألعابٍ، ويرتدي تي - شرتات قديمةً تعتورُها الثقوبُ كأنَّه

متخصِّصٌ في الجبر - الـ تي شرت الذي يرتديه الآن تحديدًا يُضفي عليه مظهرًا بخيلاً مزريًا ـــــ؛ على الرَّغم من كلِّ ذلك كانت ترى فيه شيئًا من ذكاء. لو أنَّه كان شخصًا سيِّئًا، لكان اختار، منذ زمنٍ بعيدٍ، طريقَ علوم المال. إنَّه عبقريٌّ، لكنَّه خجول. وحين أتاها يتمتم: «ميريديث، كنت أريد أن أسألك... إيه... أنت تشتغلين على... الفضاءات المتماثلة... وعلى...».

قاطعته:

- كلاَّ يا أدريان، كلاَّ بالمطلق. أنا الآن أشتغل على محاولة أن أثمل بكامل وعيي. فأنا سعيدة، إذ أرى تانيزاكي، والذكوريَّ برنير، حصلا على جائزة فيلدز، نظير أعمالهما في مسائل تتعلَّق بالأسطح البينيَّة الطبولوجيَّة - الهندسيَّة - الجبريَّة، وهو ميدانٌ شاركتُ في كلِّ مقالاتهما التي تتعلَّق به، إن لم أكن كتبتُها. ثم إنَّني أسكنُ في ترينتون، في بيتٍ أرضيٍّ عفنٍ، حيث الماء باردٌ في يومٍ، ودافئٌ في اليوم الذي يليه، وسيَّارتي الهجينة تويوتا معطَّلةٌ منذ ستَّة أيَّامٍ، ويبدو أنَّ بها مشكلةً في البطَّاريَّة، وانفصلت منذ سنةٍ عن رجلِ حياتي - أو الرجل الذي كنت أحسبه رجلَ حياتي ـــــ، والنتيجة، دعني أحسبُ. آه.. النتيجة أنَّني منذ أربعة أشهر لم أضاجع رجلاً. نحن في آواخر شهر مايو؟ آه.. ستَّة أشهر إذن، ستَّة أشهر... ولم يكن الأمر حتى فظيعًا. وأنت يا أدريان؟ كيف حالك؟ هل أمورك على ما يرام؟ ما أخبار المنزل والسيَّارة والجنس؟

لم يكد الحديث يبدأ، حتى اتَّخذ بالنسبة إلى أدريان منحًى مُزعزعًا. حاول أن يتكلَّم بأكبر قدرٍ من الثبات: - إيه... سيَّارتي ليست معطَّلة. والماء عندي ساخن... وأنا...

- لِمَ تجرُّ معك إذن، حيثما حللتَ، هذه الهيئة الحزينة، هيئةَ كلب كوكر غرقَ في وعاء طعامه؟ أظنُّ أنَّني سأشرب هذه البيرة، وأزيد واحدةً أخرى.

- إن كنتِ تريدين الغوص في الغيبوبة سريعًا يا ميريديث، ثمَّة تيكيلا في قاعة تورينج، في الخزانة، خلف أقلام اللبَّاد.

- فكرة نيِّرة.

وضعت ميريديث قنِّينتها، وسارت متعرِّجةً على العشب، حتى باب البهو، فدفعتهُ في حركةٍ خرقاء. لحق بها أدريان، وقد داخله شيءٌ من قلقٍ، حريصًا على ألاَّ ينظر - أو ألاَّ يفرط في النظر -

إلى عجيزتها بينما ترتقي الدرج بسرعةٍ. ولمَّا بلغت باب القاعة، مالت على الحائط.

- أنا بريطانيَّةٌ يا أدريان.. لذا أُحذِّرك، إن حاولت اغتصابي، سأتركك تفعل، وسأفكِّر في المَلِكة.

- لقد أفرطتِ في الشرب يا ميريديث.

- وأنت لم تشرب ما يكفي.

أدارت ميريديث مقبض الباب، ودخلت مترنِّحةً، فكادت تهوي، ثم اقتعدت كرسيًّا، وقد أصابتها دوخةٌ. نظرت حواليْها.

- أين تلك التيكيلا؟

- لا أظنُّها فكرةً عاقلة...

- تعال اجلس بجانبي. ولا تُحدِّثني عن العمليَّات الاحتماليَّة، فليتك تعلم كم لا آبه بها، اللحظة.

أطاعها أدريان، وأخذ ينظر إليها مرتبكًا.

- أوه.. اللعنة! قبِّلني يا أدريان. أنت تتحرَّق رغبةً في ذلك. والآن، هنا، لا أعبأ إن كنت تحسنُ التقبيل أم كنت رديئًا فيه.

- أنا...، ميريديث، أؤكِّد لكِ... مع أنِّي، معجب بكِ، لكنْ...

- أجل، لأجل.. ليس هذا بالوضع الرومانسيّ، لكنْ فيمَ يهمّ ذلك؟ لاحقًا سنضحك عليه، حين نتذكَّره ونحن بين أطفالنا. قبِّلني وإلاَّ بكيتُ، أو ربَّما أصرخُ «النجدة!»

قال أدريان وقد استبدَّ به القلق فجأةً: - ميريديث، أرجوكِ. هذه الأمور لا مزاح فيها.

- آه.. لقد انطلت عليك الحيلة! أنا فقط أمزح. لمَ أنتم، يا معشر الرجال، تفقدون كلّ قدرةٍ على الفعل حين تكون المرأةُ هي المبادرة؟

سحبته ميريديث إليها بغتةً، وألصقت شفتيْها بشفتيْه. لشفتيْها مذاقُ الفراولة، وقد أغمضت عينيْها، وظلاَّ معًا، متلاصقيْن، لحظاتٍ طويلة، من غير أن يجرؤا على تقبيل بعضهما بعضًا، وإذا بجيْب سترة أدريان الداخليّ يهتزُّ، ثم ينطلق منه رنين صاخب. انزاح عن ميريديث الذاهلة قَدْرَ ذهولِه هو، وأخرج من جيبه هاتفًا ذكيًّا رماديًّا، وأخذ يتأمَّله في دهشة.

سألته ميريديث على الفور:

- زوجتك؟

والحالُ، أنَّها ما كانت لتعبأ بالأمر، لو أنَّ المتَّصل زوجته.

- لستُ متزوِّجًا.

بعد ثلاث رنَّاتٍ، صمت الهاتف بغتةً، ودام صمتُه خمس ثوانٍ، ثم عاد إلى الاهتزاز والرنين. وهذه المرَّة، رنَّ المتَّصل مرَّةً واحدةً فقط، وقطع الاتِّصال. لم يستطع أدريان أن ينزاح بعينيْه عن الهاتف. الآن، حقًّا؟

- إن لم تكن زوجتك، فالأكيد أنَّه شخصٌ لحوح.

- سُحقًا، سُحقًا. آسف، يجب مهما كلَّفني الأمر... ميريديث، يجب أن...

هُرع خارجًا، ركض في البهو، وبعد عشر ثوانٍ رنَّ الهاتف مجدَّدًا. ثلاث رنَّاتٍ، رنَّة، ثلاث رنَّات. تلكم هي الشِّفرة الجديدة. أتاه صوتٌ رجوليّ، واثقٌ وإن افتقد الانتظام، صوتٌ عسكريّ.

- بروفسور أدريان ميلر؟

ردَّ متردِّدًا:

- إيه.. نعم.

- طوطو، يبدو لي...

انتظر الصوتُ، وانتظرَ، ثم أخيرًا أتاه صوتُ ميلر باهتًا: - إنَّنا لم نعُد في كانساس.

«طوطو، يبدو لي... أنَّنا لم نعد في كانساس...» هراء. وليس لأدريان أن يلوم إلاَّ نفسه، ليس له أن يلوم إلاَّ مزاج فكاهته الطفوليّ أيَّامَ كان صبيًّا، حين اتَّخذ لنفسه، قبل عشرين سنةً خلت، تلك العبارة المقتطعة من كلام ساحر أوز، من غير أن يدري أنَّه سيضطرّ إلى إكمالها تأكيدًا لهويَّته. ومنذ عشرين سنةً كذلك وهو يمتلك هذا الهاتف الذكيّ الذي يبدَّل له، على الدوام، والذي ينبغي، مقابل ألف دولار شهريًّا، أن يتركه مشغَّلاً على الدوام، وألاَّ يتركه أبدًا، بحيث يردّ على الاتِّصالات، مهما كانت الظروف، ويكون جاهزًا مستعدًّا على الفور. وحتى اليوم لم يرنّ الهاتف قطّ.

صاحت ميريديث:

- أدريان، تعال قبِّلني حتى لو كان المتَّصل زوجتك!

واصل الصوت:

- استعدّ يا بروفسور ميلر. في غضون دقيقةٍ، تصل سيَّارة شرطة أمام مبنى فاين هال، لتقودك إلى نقطة الالتقاء.

- أمام فاين هال؟ تعرفون أين أنا؟

- طبعًا يا بروفسور ميلر. موقعك محدَّد بمسافة ثلاثة أمتار تقريبًا. حين تنطلق بك السيَّارةُ، سنعيد الاتِّصال بك لكي نربطك بمركز العمليَّات.

صاحت ميريديث من قاعة تورينغ: - أدريان؟ أنت تُفسد كلّ شيء يا أدريان، كلّ شيء.

هُرع أدريان إلى الباب، كانت ميريديث ما تزال كما تركها، لم تبرح مكانها، ولا تحرَّكت من كرسيِّها، وقد تشعَّث شعرها وعَلَتْها مسحةُ غضبٍ.

- أنا آسف يا ميريديث. الأمر مهمّ، أنا... سوف أشرح لكِ لاحقًا.

نزل أدريان درجات السلَّم، أربعًا أربعًا؛ وصاحت ميريديث بجملةٍ تذكر فيها علماء احتمالاتٍ جرحى دامين، وسفرًا إلى الجحيم سيخوضُه أدريان، ولكنَّ أدريان كان قد بلغ البهو.

*

لكي نفهم لمَ على أدريان ميلر أن يُجيب على الهاتف المصفَّح ذي اللون الفحميّ، في هذا اليوم، 24 يونيو 2021، ينبغي أن نعود إلى يوم 10 سبتمبر 2001، يومَ كان أدريان يحتفل بربيعه العشرين، وكان أصغر طلاَّب الدكتوراه في فريق الاحتمالات لدى البروفسور روبيرت بوزي بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا. وشهد اليوم التالي ليومنا المذكور، حالةَ جنون بقرٍ في اليابان، وتصريحاتٍ سياسيَّةً عقب هجومٍ انتحاريّ ضدَّ القائد مسعود، ارتكبه عضوان تونسيَّان من تنظيم القاعدة، والإعلانَ عن عودة مايكل جوردان ليلعب في صفوف ويزاردز واشنطن. وسيوافق اليومُ، بخاصَّةٍ، أوَّلَ أيَّامِ عمل بِن سليني، الذي عُيِّن مديرًا للعمليَّات فيما يعرف بالـ FAA، إدارة الطيران الفدراليَّة. وساعتيْن بعد شرب القهوة وأكل كعك الترحيب به في منصبه الجديد، قرَّرَ إيقاف أربعة آلاف ومائتي طائرة. قرارٌ منفردٌ لم يسبق له مثيل.

ويوم 11 سبتمبر، في الساعة 8 و14 دقيقة، أبدى مراقبو بوسطن قلقًا من انقطاع إرسال طائرة الخطوط الجوّيَّة الأميركيَّة 11. وبعدها بستِّ دقائق، اتَّصلت مضيفةٌ على متن الطائرة بالرقم الذي تستطيع الاتِّصال به، أي رقم الحجوزات بالخطوط الجوّيَّة الأميركيَّة. وأعلمتهم باختطاف الطائرة، وبوجود قتلى عديدين في المقصورة. ولمَّا تأكَّدوا من هويَّة المتَّصلة، كانت الساعة قد بلغت الثامنة و25 دقيقة، فأعلمَ أحدُ المشرفين جهازَ مراقبة النقل الجوّيّ. فاكتشف بِن سليني والمراقبون الجوّيُّون، على تردُّد الرادار، أنَّ طائرة الخطوط الأميركية 11، تتَّجه إلى نيويورك. تفرض القاعدةُ في حال حدوث اختطافٍ - ولنضرب صفحًا عن كتيِّبِ الإرشادات الذي ينصّ على أنَّ الربَّان، وهو في حالتنا هذه مقتولٌ طعنًا، ينبغي أن يُدخل في جهاز الإرسال الرمزَ 7500 - إخطارَ القيادة العامَّة للملاحة المدنيَّة. وفي مقرِّ القيادة العامَّة، ينبغي أن يتَّصل منسِّقٌ «متخصِّصٌ في حوادث الاختطاف» بمصلحةٍ من مصالح البنتاغون، وهذه المصلحة تُحيل الأمر على مكتب وزير الدفاع، فيُحاطُ الوزيرُ علمًا بالحدث، فيُصدرُ قرارَه، ثم يمضي القرار في الاتِّجاه المعاكس، نازلاً كلّ درجات سلّم التراتبيَّة المذكور آنفًا. وحينئذٍ فقط يكون بمقدور مسؤولي المركز الوطنيّ للقيادة العسكريَّة تحريك طائراتٍ مقاتلة، لاعتراض الطائرة المخطوفة. ولمَّا كانت نهايةُ الحرب الباردة قد أدَّت إلى تقليص القواعد الجوّيَّة المتأهِّبة للتدخُّل، من ستٍّ وعشرين قاعدةً إلى سبعٍ فقط، فإنَّ القاعدتيْن الوحيدتيْن الباقيتيْن على الساحل الشرقيّ هما قاعدتا أوتِس، قرب بوسطن، وقاعدة لانغلي، في مقرّ المخابرات المركزيَّة (CIA)، قرب واشنطن.

يستغرق ما سبق الكثير من الوقت، لدرجة أنَّ المراقب في بوسطن اضطرّ، في خضمِّ الاستعجال، إلى الاتِّصال مباشرةً بقاعدة أوتيس. ولمَّا لم يكن هو المخوَّل بالاتِّصال بالقاعدة، فقد فرضت القاعدةُ عليه الاتِّصال بالقيادة العسكريَّة لجهة الشمال - الشرقيّ، بمدينة روما، في ولاية نيويورك. فاتَّصل بالقيادة العسكريَّة، ومرَّةً أخرى تمَّ تنبيهه إلى أنَّه لا يحترم قواعد التسلسل. على أنَّ الكولونيل روبرت مار، وإن نبَّهه إلى عدم احترام التسلسل، إلاَّ أنَّه اقتنع بكلامه، فتحرَّك هو أيضًا من غير أن يستأذن وزارة الدفاع، فأمر قاعدة أوتيس أن تجهّز طائراتٍ مقاتلة للإقلاع.

قبل تقرير لجنة 9/11 بمدَّةٍ، علم البنتاغون أنَّ سلسلة اتِّخاذ القرار قد تعطَّلت بأكملها، في اليوم المذكور. فأحدثَ لجنة عملٍ داخليَّة، مهمَّتُها اقتراح طريقة عملٍ مغايرة لمواجهة وضعيَّة الأزمة. وتلك اللجنة هي المسؤولة عن كلّ ما يتَّصل بالعمليَّات الشكليَّة في شعبة الرياضيَّات التطبيقيَّة بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا. وهنا يظهر اسم أدريان ميلر.

كان أدريان آنذاك متخصِّص احتمالاتٍ شابًّا، ضمن فريق البروفسور بوزي، رئيسِ «الرياضيَّات التطبيقيَّة» بمعهد ماساشوستس. وقد ناقش أدريان لتوِّه أطروحة دكتوراه عالج فيها سلاسل ماركوف، وتأشير كندال... وكي لا نطيل الكلام، كان أدريان مهتمًّا بنظريَّة الأرتال (الطوابير). وكان مولعًا، على وجه التخصيص، بقانون ليتل الذي ينصّ على أنَّ العدد المتوسِّط للوحدات ضمن نظامٍ ثابتٍ، يساوي متوسِّط تردُّدها على النظام، مضروبًا في الوقت الذي تقضيه داخله. لكنْ لنضرب صفحًا عن كلّ ذلك.

ولأنَّ كلّ من في المختبر كانوا مشغولين، والعقودَ مع وزارة الدفاع تقضّ مضجع بوزي، فقد عُهد إلى أدريان، على سبيل المقلبِ، بنمذجةِ العوائق وإيجادِ طريقةٍ لتقليص عدد المراحل وآماد التدخُّل. وقد استعان أدريان بتينا وانغ، طالبة الدكتوراه الذكيَّة لدى البروفسور بوزي، كي تساعده في الجزء النظريّ للرسوم البيانيَّة التي كانت تشقّ عليه بعض الشيء. فكانا يشتغلان حتى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، ويأكلان على عجلٍ أكلاً رديئًا، ولا ينامان إلاَّ قليلاً، ويفصحان عن كلّ ما تضمرُه نفساهما من أفكارٍ سيِّئة حول وزارة الدفاع، ثم حين يشعران بنفسيْهما عاجزيْن عن القيام بأيِّ فعل، يركبان سيَّارة أدريان، الهوندا العتيقة، ويقصدان في عزِّ الليل لاكي سترايك الذي لا يقفل أبدًا، لكي يلعبا البولينغ. وذات ليلةٍ، عقب مجادلةٍ حول فرضيَّة إيرغوديك والتوزيع الثابت، عاشا مغامرةً هي أقربُ إلى الجنسيَّة منها إلى الإيروتيكيَّة. ذكرى جميلة على أيّ حالٍ!

لقد عمل أدريان وتينا، خاصَّةً، على إحصاء كلّ المتغيّرات التي يمكنها أن تؤثِّر في الملاحة الجوّيَّة، وعيَّنا لها قِيمًا إحصائيَّة، وحدَّدا كلّ ما يمكنه أن يُحدث كارثةً - أو حتى اضطرابًا بسيطًا في تدفُّق الرحلات - وتجاوزا كلّ توقُّعات البنتاغون. نموذجهما يأخذ بعيْن الاعتبار كلّ شيء: سلسلة الأحداث، طريقة التواصل، سوء الفهم اللغويّ، اختلاف الوحدات - قدم، متر..! - خطأ قيادة الطائرة، العطب الميكانيكيّ، المشكل التقنيّ، الطقس، الاختطاف، القرصنة المعلوماتيَّة، التوجيه الخاطئ، غياب الصيانة، وعديد الأشياء الأخرى... وقد حدَّد الباحثان سبعةً وثلاثين بروتوكولاً أساسيّة، بالإضافة إلى نحو سبعٍ إلى عشرينَ من الطرق العرضيَّة لكلِّ بروتوكولٍ منها، أي ما يناهز خمسمائة وضعيَّة أساسيَّة، وعددًا مماثلاً من الحلول. حين نجح ريتشارد ريد، في شهر ديسمبر من سنة 2001، من تجاوز مراقبة الأمن في المطار مخفيًا متفجِّراتٍ في باطن حذائه، فإنَّ حالتَه تطابقُ متغيِّرًا من متغيّرات البروتوكول A12؛ أمَّا حادثة برمنغهام - مالقة حيث انفجر زجاج قُمرة القيادة، فيُعتبر مثالاً من أمثلة البروتوكول K 7؛ وطائرة إيرباص التي خرجت من مسار الهبوط في هاليفاكس، بسبب الثلج، F 4؛ والبركان الإيسلنديّ الذي أطلق دخَّانه مانعًا كلَّ إقلاعٍ، E 13؛ ربَّان الخطوط الألمانيَّة المصاب بالاكتئاب الذي صدمَ بطائرته جبلاً، D 25.

وبعد خمسة أشهرٍ من العمل، سجَّلا توصياتهما في مذكِّرةِ دفاعٍ - سرِّيَّةٍ، من ألفٍ وخمسمائة صفحةٍ تقريبًا. عنوناها بعنوانٍ رصين: الملاحة الجوّيَّة المدنيَّة؛ تشخيص الأزمة، واقتراحُ أمثل وضعيَّةٍ لسلسلة اتِّخاذ القرار، وبروتوكولات الردّ / الأمن. ومع أنَّ حاصل عمريْهما كان واحدًا وأربعين عامًا (أو ربَّما لأنَّ حاصل عمريْهما كان كذلك)، فقد وقَّعا نتيجة عملهما، بأسماء «بروفسور ت. وانغ، ودكتور أ. ميلر، وعَلي، قسم الرياضيَّات التطبيقيَّة، قسم الرسوم البيانيَّة، قسم الاحتمالات، معهد ماساشوستس للتّكنولوجيا. واسمُ عليٍّ الذي أُضيف إلى اسمَيْ وانغ وميلر، هو اسم هامستر المختبر. كانا طفليْنِ في المحصّلة.

لم يُفلت منهما شيءٌ؛ ولو أنَّ البنتاغون طلب منهما تقديم كلّ الإجابات الممكنة للحالتيْن ملك وكتابة، لقدَّما كلّ الأجوبة آخذين بعين الاعتبار ثلاث حالاتٍ وليس حالتيْن فقط: حالة ملك، وحالة كتابة، والحالة الثالثة النادرة، الحالة التي قد تسقط فيها القطعة النقديَّة على حاشيتها، مستقرَّةً في وضعٍ عموديّ. لكن عشرةَ أيَّامٍ بعد تسليم التقرير، في أبريل 2002، أعادت إليهما وزارة الدفاع

التقرير مع سؤالٍ مكتوبٍ بقلم لبّاد أحمر: «وماذا لو واجهنا حالةً لا تخضع إلى أيّ وضعيَّةٍ من الوضعيَّات التي تمَّت دراستُها؟»

رفعت تينا عيْنها إلى السماء: يعني فرضيَّة أن تبقى القطعة النقديَّة معلَّقةً في الهواء.

وكان أن أضافا في خمسة أيَّامٍ بروتوكولاً أخيرًا لتلك «الحالة الأخيرة التي لا تخضع لأيّ وضعيَّةٍ من الوضعيَّات المدروسة». وعلى خلاف كلّ الحالات السابقة التي أوصى فيها أدريان وتينا بأن يشرف على البروتوكول، مسؤولٌ واحدٌ ووحيد، مدنيًّا كان أو عسكريًّا، فإنَّ الرياضيَّة قرَّرت أنَّه «بالنظر إلى الطابع اللاعقلانيّ للأحداث التي تستدعي البروتوكول الأخير»، فإنَّ أمرَ تدبيره سيُسندُ إلى عالِميْن اثنيْن. وكتبتْ اسمها واسم أدريان. وأوصت بأن يزوَّد كلٌّ منهما بهاتفٍ مصفَّحٍ مخصوصٍ للبروتوكول المذكور، هاتف يجب عليهما أن يحملانه معهما على الدوام، وألاَّ يطفئانه أبدًا. ولمَّا كان أدريان شغوفًا كَلِفًا بكتاب دوغلاس أدام، دليل المسافر إلى المجرّة، وبـ «سؤاله الكبير عن الحياة، والكون، وما تبقَّى»، السؤال الذي أجاب عنه الحاسوب المسمَّى «أفكار عميقة»، وهو ثاني أكبر حاسوب في كلِّ الأزمنة، بعد سبعة ملايين عامٍ ونصف من الحساب: «42»، فإنَّ البروتوكول سيحمل الرقم 42.

ولكي يبدو جدِّيًّا، أو بدافعٍ من المرح، أضاف أدريان جملةً - مقطعًا هي بمثابة الشفرة التي تعلن انطلاق البروتوكول: 1: متَّصل: طوطو، يبدو لي...

2: ... أنَّنا لم نعد في كانساس.»

حين خرج أدريان من المختبر، كانت سيَّارة شرطةٍ تنتظره أصلاً، وقد توقَّفت مباشرةً أمام حفل الشواء، حيث المقانق تُشوى في مرح. حيَّا الشرطيّ أدريان، كما لو كان جنرالاً برتبة أربع نجومٍ، وصوَّبَ الزملاء كلّهم الأنظار إلى أدريان. أمَّا هو فقد ردَّ تحيَّة الشرطيّ بتحيَّةٍ خرقاء مرتجلة، وصعد إلى المقعد الخلفيّ بعد أن صدم رأسه بسقف السيَّارة. وانطلقت السيَّارة، صفَّارتُها تدوّي، وأضواؤها الوامضة مشعَّلة. إنَّ أدريان يمضي مبتعدًا عن مضاجعة ميريديث، وموغلاً صوب المجهول.

في مكانٍ ما من المجرَّةِ إذن، رمى أحدهم بقطعةٍ نقديَّة، وظلَّت القطعة النقديَّة معلقةً في الهواء.

المزحة

الساحل الشرقيّ للولايات المتَّحدة الأميركيَّة، المياه الدوليَّة

N65 49 23 "W" 27 25 41

فحص ماركل ميكروفونه، سدًى. لقد قَطع مطار كيندي الاتِّصال. خشخشةٌ في الخطِّ، فصمتٌ طويل جدًّا، ثم أتاه صوتٌ أجهر ممَّا سبقه.

- إلى طيران فرنسا 006 مايدياي، اسمي لوثر ديفيس، قائدٌ في العمليَّات الخاصَّة لفدراليَّة إدارة الطيران. هلاَّ حدَّدتم أنفسكم، أدخِلوا رمز إعادة البثّ 1234.

تجهَّم ماركل، وأدخل جِيد الرمز. ليس في كلِّ يوم تلوح مناسبةُ الحديث إلى قائدٍ من العمليَّات الخاصَّة لفدراليَّة إدارة الطيران...

انقطاع مجدَّدًا. ثم عاد الصوت: - شكرًا. هنا لوثر ديفيس، فدراليَّة إدارة الطيران. هل تستطيع أن تخبرني بتاريخ ومكان ميلادك يا قبطان ماركل؟

زفَر ماركل، وأطاع:

- 12 يناير 1973، بيوريا، إلينوي.

- هل تستطيع أن تمدّني بأسماء جميع الركَّاب على متن رحلتكم؟

- مطار كيندي، لا أدري ما إذا كنتم تقدِّرون الوضع، أنا أحاول الهبوط بطائرة 787 مُصابة بأعطال...

مجدَّدًا صمتٌ طويل، فانقطاعٌ في الاتِّصال، ثم صوتٌ آخر، أنثوي.

- طيران فرنسا 006؟ هنا كاثرين بلومفيلد، قيادة دفاع الطيران لأميركا الشماليَّة. هل تسمعني؟

قيادة دفاع الطيران، حقًّا؟ قطَّب ماركل حاجبيْه.

- هنا طيران فرنسا 006، ما المطلوب منَّا؟

- لدواعٍ أمنيَّة ينبغي أن تقطعوا شبكة الوايفاي على متن الطائرة.

نفَّذ ماركل الأمر من غير أن يجادل.

واصل الصوت الكلام:

- شكرًا. الآن اطلُب من جميع الركَّاب إطفاء هواتفهم وأجهزتهم الكهربائيَّة.

- الهواتف والآلات الكهربائيَّة أصلاً مطفأة. لقد واجهنا مطبَّات و...

- حسنًا. إلى المساعد الأوَّل فافرو، خلال الدقائق القليلة القادمة، احرص أنت والطاقم على جَمع كلّ - وأُشدِّد على كلِّ - الآلات التي قد تُمكِّن من الاتِّصال بالعالم الخارجيّ: ألواح ذكيَّة، هواتف، أجهزة إنذار طبِّيَّة، أجهزة ألعاب، حواسيب.. إلخ. ولا تنسَ نظَّارات الواقع الافتراضيّ، والساعات الذكيَّة. لا ينبغي التساهل البتَّة. أيُّها القائد ماركل، نحن نواجه خطر قرصنةٍ خارجيَّةٍ موجَّهةٍ ضدَّ آلاتِ الملاحة، ويُمكن للآلات الإلكترونيَّة أن تكون بمثابة حوامل يستغلّها القراصنة. ولك أن تُقدِّم للركَّاب التفسيرات التي تراها ضروريَّةً لضمان تعاونهم.

- لكنَّنا قد نُثير مخاوف...

- وليكنْ. قُل لهم إنَّ جميع آلاتهم ستُعادُ إليهم بعد ساعةٍ، ما إن تحطُّوا بمطار نيويورك. أيُّها الضابط فافرو، إنْ واجهتَ مقاومةً من الركَّاب، فشدِّد على مسألة السلامة، وعلى خطورة أن تتداخل إرسالات الأجهزة. لديك كامل الصلاحيَّات لسحب الأجهزة. إنَّنا نتَّبع بروتوكولاً شديدَ الدقَّة.

سأل فافرو فجأةً في قلق:

- لكنْ... الآلات... كيف لنا أن نخزِّنها؟ الهواتف تتشابه، فكيف نعيِّنُ هاتف كلّ راكب؟

- استعمل أكياس التقيُّؤ، اكتب عليها أرقام المقاعد بقلم لبَّاد، تدبَّر أمرك. وطمئن الركَّاب بأنَّهم سيستلمون أجهزتهم بعد أن تحطّ الطائرة.

غمغم مساعد الربَّان مجدَّدًا بـ «نعم» مبهمة. ثم قام ليستنقذ الأجهزة من أيادي الركَّاب، بينما يشرح لهم ماركل في الميكروفون كلّ التعليمات، من غير أن يغفل شيئًا. وكان مساعد الربَّان يتوقَّع من الركَّابِ موجةً من الاحتجاج، لكنَّ الحالُ أنَّ معظمهم أذعن للأمر بلا ممانعةٍ، ربَّما بدافعٍ من الخوف الارتداديّ الذي خلَّفته فيهم المطبَّاتُ، أو بفعل تهديدات القرصنة الإلكترونيَّة، أو قد يكون مفعولُ السلطة الصارمة في صوتِ قائد الطائرة. لا بل حتى الممانعين القلَّة، اضطرُّوا إلى أن يمتثلوا لمعارضة جيرانهم. فلم تدم العمليَّة التي كان يفترض أن تكون شائكةً إلاَّ دقائق. فلمَّا تأكَّد لضابطة قيادة دفاع الطيران أنَّ الأجهزة قد خُزِّنت في المقصورة، استأنفت التعليمات: - هذه التدابير تشمل أيضًا الطاقم على متن الطائرة. بمن فيهم أنت. هواتفكم وحواسيبكم. أيُّها القائد ماركل، لديك كامل السلطة على هذه الطائرة. لذا عليك...

قاطعها ماركل حانقًا:

- أنا قائد المركبة يا سيِّدتي من قيادة دفاع الطيران... بديهيّ أنَّ لي كامل السلطة على هذه الطائرة، لكنْ أنتِ من...

- سيِّدي القائد ماركل، يتعلَّق الأمرُ بقضيَّة أمنٍ قوميّ. وسوف نتَّبع معًا البروتوكول 42.

بهت ماركل. لم يسمع قطّ بما تسمِّيه البروتوكول 42.

- طيران فرنسا 006، اتِّجاهكم الجديد هو قاعدة ماكغواير الجوِّيَّة، بنيو جيرسي.

قاعدة ماكغواير... هناك احترقت، سنة 1937، السفينة الهوائيَّة الألمانيَّة هندنبورغ، فصارت حُطامًا وهي مشدودةٌ إلى حبلِ الإرساء. انعطف ماركل انعطافةً كبرى صوب الجنوب الغربيّ، وقرَّر أن يُخبر الركَّاب «عذرًا يا قوم، نظرًا لإصابة الطائرة بأضرارٍ بليغة، سنضطرُّ لتوجيه الرحلة صوب نيو جيرسي». وهذه المرَّة، تعالت أصوات كثيرين بالاحتجاج، وبعضهم صاح صيحات استنكارٍ من القرار السخيف، خاصَّةً أنَّ مع غروب الشمس قد بدأت أسطح ناطحات

السحاب في مانهاتن تلمع. وكان بوسع ماركل أن يُلهي الركَّاب بأن يحكي لهم قصَّة كارثة هيندنبورغ، ولكنَّه حدس أنَّ الوقتَ غير مناسب.

عادت قيادة نيويورك إلى الاتِّصال: - كينيدي أبروش مجدَّدًا. أيُّها القائد ماركل، سأوصلك بمركز القيادة العسكريّ القوميّ للبنتاغون. ولم يجد ماركل الوقت ليردّ حتى أتاه صوتٌ آخر، صوتٌ رجَّاليّ. صوتٌ أنفيٌّ تطغى عليه نبرة اليانكي، نبرة نيوهامبشير.

- قائد ماركل، معك الجنرال باتريك سيلفيريا، مركز القيادة العسكريّ القوميّ. أتكلَّم بتفويضٍ من وزير الدفاع. بعد ثلاث دقائق ستلحق بك ثلاث مقاتلاتٍ من البحريَّة الأميركيَّة. لقد أقلعت للتوّ من حاملة الطائرات يو إس إس هاري ترومان، وسوف ترافقك حتى المياه الإقليميَّة. في حال حاولتم الهرب، أو امتنعتم عن تنفيذ الأوامر، فقد صدرت لهم التعليمات بأن يقصفوا طائرتكم.

هذه المرَّة تجاوزت الأمور كلّ حدّ. انفجر ماركل ضاحكًا. أخيرًا فهم كلّ شيء.

- قائد ماركل؟ هنا الجنرال سيلفيريا، من مركز القيادة العسكريّ القوميّ. أنت هنا؟

لم يعد ماركل يستطيع كبح ضحكه، ضحكَ حتى سالت دموعه. أيّ مزحةٍ هي! سحقًا لهم من عصبةٍ ملاعين، أولئك المراقبين في مطار كينيدي، كاد ينطلي عليَّ المقلبُ، قيادة دفاع الطيران لأميركا الشماليَّة، ثم البروتوكول 42، والآن البنتاغون... عاد إلى جهاز الإرسال.

- مرحبًا يا جنرال الغفلة سيلفيريا! أهذا أقصى ما تفتَّق عنه مزاحكم؟ الحقّ أنِّي صدَّقتكم، لكنْ أن تطلبوا منِّي إنزال الطائرة هنا «قويَّة شويَّة!» أترون الوقت مناسبًا للمزاح، بعد العاصفة التي اجتزناها؟ لكنَّكم أخطأتم في الحساب، رحلتي الأخيرة بعد غدٍ وليس اليوم. لكنَّني أعترف: كهديَّة تقاعدٍ، أعتبر ما فعلتموه أفضل من كعكة جزرٍ بليدة.

- طيران فرنسا 006؟ هنا الجنرال سيلفيريا من البنتاغون. سأربطك بحاملة الطائرات يو إس إس هاري ترومان.

- نعم، ومعك الكابتن سبيكنغ! هذا أنت يا فرانكي؟ ولمَ لهجة اليانكي الزبل هذه... ما أحمقك! لقد جعلتنا نجمع هواتف كلّ الركَّاب، هل تريد أن يمزّقنا الركَّاب؟ هذا ما تريده؟

صوتٌ جديد في جهاز الإرسال، صوتٌ أحَدُّ، ولهجةٌ تكساسيَّة: - طيران فرنسا 006؟ أنا الأميرال جون بتلر، من حاملة الطائرات يو إس إس هاري ترومان.

ابتسامةٌ ساخرةٌ لا تفارق شفتَيْ ماركل.

- أهلاً يا جون بتلر الكرتونيّ. كفى مزاحًا يا فرانكي، كفَّ عن مسرحيَّة اللهجات هذه، لم يعد الأمر مضحكًا!

- قائد ماركل؟ معك الأميرال بتلر مجدَّدًا. أنا الآن في حماية طائرتيْن من طائراتنا إف / إيه - 18 هورنت. واحدةٌ منهما خلف طائرتكم البوينغ تمامًا، في وضعيَّة اعتراض، والثانية... أنظر عن ميمنتك، فضلاً.

رفع ماركل عينيْه إلى السقف، وأدار رأسَه. على بعد بضعة أمتارٍ منه، أقصى الجناح الأيمن تُحلِّقُ طائرةُ هورنت، مزوَّدة بعشرة صواريخ جَو - جَو. ومن المقصورة، أشار إليه الربَّان بإشارةٍ من يده.

- الآن، نفِّذ كلّ التعليمات.

أندري

الأحد 27 يونيو 2021

مومباي، الهند

«Fotografei você na minha Rolleiflex»... بهو فندق حياة مومباي الكبير يُذيع، بلا كلماتٍ، موسيقى البوسانوفا الخفيفة اللطيفة لستان جيتز، وجوبيم، وجواو جلبيرتو. إنَّها أغنيةٌ من سنِّ الرجل الذي يغادر المصعد بكتفيْن متهدِّليْن، ونفَسٍ مقطوع. وحين انعكست له في مرآةِ مقصورةِ المصعدِ، في أضواء النيون الخام، صورةُ سنواته الستِّين، أشاح بعينيْه.

أندري فانييه لم ينم. أرِقَ مِن فارق التوقيت الذي لا يستطيع تجاوزَه، ومن الحزن، والفِكَر السوداء. قبل أن يغادر غرفته، كتب إلى لوسي إيميلاً طويلاً، واستطاع أن يكبح نفسَه عن إرساله. لن يكون الإيميل سوى رسالةٍ في قنّينةٍ يُلقي بها إلى البحر، سدًى، بعدما قالت له لوسي في الهاتف، بصوتٍ متعبٍ، من باريس التي ما تزال غارقةً في ظلام الليل، إنَّها قد «انصرفت إلى أشياءَ أخرى». ومع ذلك كتب لها، وهو يعرف أنْ لا فائدة من الكتابة، بل إنَّ الكتابة إليها ستؤدِّي إلى نتائج عكسيَّة. لكنْ حين تفنى بطَّاريَّات الريموت، نضغطُ عليه أكثر فأكثر. هكذا طبيعةُ البشر.

غادر المعماريُّ الفندق العالميّ - الفندق الذي اجتمع فيه كلّ ما تبغضه نفسه - أبعادٌ بلا قوَّة، موادُّ بلا أناقة، وأحجامٌ مدَّعيةٌ خانقة ـــــ، غادر القطبَ الشماليّ الذي يصنعه المكيِّف، ليرتمي في أتون الصيف الاستوائيّ الهنديّ. فارتفع بغتةً الضجيجُ الذي يصمُّ الآذان، والهواء الخانق الذي لا يستحقّ اسمَ هواء. إنَّ مومباي تنزّ برائحة الإطارات المتصدِّعة والوقود اللاَّهث. على طريق بيبلين المزدحم، نادى عربةً خضراءَ خضرةً قذرة، فتوقَّفت أمامه وهي تزمِّرُ بعشرة أبواق. ناول أندري السائق عنوان الورش في حيّ كاماتيبورا، وعرض عليه مبلغًا سخيًّا، ثم انطوى إلى ثلاثٍ كي يُدخل

هيكلَه الطويلَ الذي ما يزال يحتفظ برشاقته، في فضاء العربة ذات العجلات الثلاث. انطلقت العربة حثيثًا - وما زالت تزمِّر - واخترقت حركة النقل الكثيفة سالكةً طريقًا لا يعرفُها سواها.

وكان نِلسن قد سأله أمس:

- لمَ تستقلّ العربات دائمًا؟ إنَّ سيَّارات الأجرة أقلّ مدعاةً للتوتُّر والضغط.

- أجل، لكنْ ما يجهله نلسن، بشعره الأشقر الطويل، وبدلاته ماركة هوغو بوس المفصَّلة تفصيلاً على جسده الرياضيّ، وعامَيْه اللذين قضاهما في المكتب، هذا النلسن الذي تخرَّج لتوّه من قالب المدرسة، - آه هذا الشابّ الذي أتاه قائلاً: «منذ مشروعك في الغراند مسيسيبي سانتر، وأنا أحلم يا سيِّدي بأن أشتغل لدى فانييه وإدلمان - ما زال يجهلُ أنَّ تلك الدقائق الخانقة هي رفاهيَّةٌ عند فانييه. ذاك أنَّ ما يبحث عنه، وما يجده أحيانًا، متكوِّمًا في المقعد الخلفيّ للعربة، هو سنواته العشرون التي قضاها في سيريلانكا، حيث كان برفقة صبيَّةٍ نابوليتانيَّةٍ مجنونةٍ جنونًا محبَّبًا، فتاةٍ لا يحضُره اسمُها فورًا، لكنَّه يتذكَّر نهديْها الصلبيْن وابتسامتها المشرقة. هل كان اسمُها جيوليا؟ نعم، هو ذا، كان اسمُها جيوليا، كاد ينسى ذلك.

صوب ورش سوريايا تاور، تتسلَّل العربة وسط السيل الضاجّ والنتن، مستعينةً بالدوَّاسات الجافَّة، والأبواق الحادَّة. وأندري في كلِّ ذلك، دهشٌ من غيابِ آثار الصدمات على السيَّارات، ونجاةِ مراياها الجانبيَّة من الكسر. وهذه المرَّة، استثناءً، لم يكن السائقُ واحدًا من أولئك الصبية المراهقين المنهكين الذين تتشاركُ الزمرة منهم شراء عربةٍ، ويشتغلون بها، بالتناوب، جاهلين كلّ الجهل بقوانين المرور وقواعد السير، مسلِّمين مصيرهم إلى تطبيق ويز. كلاَّ، إنَّ السائقَ اليومَ، رجلٌ ربعةٌ، ممتلئ الجسم، لا تظهر عليه أمارات السنِّ، يضع نظَّاراتٍ سوداء واسعة على شاكلة نظَّارات الطَّيارين، ويتسلَّل بانسيابيَّةٍ عنيفةٍ، بين الشاحنات والسيَّارات، ويخترق بجرأةٍ الخطّ الأبيض، غير خائفٍ من الاصطدام بعشراتِ المركبات التي تتَّجه، بأقصى سرعةٍ، صوبه. إنَّ تقدُّمه وسط السيل، من غير أن يصيبَه مكروه، لمِن قبيل المعجزة، ولا بدَّ أنَّ لتمثال بوذا البلاستيكيّ الملصق على مقوده يدًا في ذلك.

إنّ سوريايا تاور واحدٌ من أكثر المشاريع التي فاز بها مكتب فانييه وإدمنتون طموحًا، برهانٌ على المهارة العمليَّة والحسّ الجماليّ: مبنى بارتفاع ثمانين مترًا، قوامُه الزجاج وقصب

البامبو، مع تدعيم النقط الاستراتيجيَّة فيه بأعمدةٍ من صلب. واجهتُه الشماليَّة تكثِّفُ الماءَ الذي يتدفَّقُ، فيسقي الجدار النباتيَّ المزروعَ شرقًا، أمَّا الجدار الجنوب / غربيّ فيُناوب بين المناور وألواح الطاقة الشمسيَّة - لأنَّ اسمَ سوريايا يعني شمس - فيزوِّدُ المبنى بالكهرباء. سيكون بمثابة الجسر الرمزيّ بين حيِّ المتاحف وحيِّ الجامعات، وسوف يأوي شركاتٍ ناشئة تسعى إلى تعزيز صورتها، وكلّ طوابقه قد حُجزت. لا رتوش تخدشُ بساطةَ البرج: إنَّه كمالٌ تمَّ بلوغُه من طريق عمليَّات حذفٍ متواصلة. حتى منافسهم الصينيّ استسلم لروعةِ العمل.

على أنَّ مناولاً هنديًّا قد غشَّ في كمِّيَّة الخرسانة في الأساسات، والمسكين نلسن لم ينتبه إلى الأمر في وقته، لذا تأخَّر العمل أسبوعيْن. ولذا يغتنم أندري فانييه زيارته التي تدوم يوميْن، ليتوعّدَ، ويفاوض، ويُبرم اتِّفاقًا، ولا يهمّ إن كان اليوم يوم أحدٍ، وكان سيطير مساءَ اليوم نفسه إلى نيويورك، ليقف على ورش رينغ.

«انصرفتُ إلى أشياءَ أخرى»: لشدّ ما يمقت أندري كلّ هذه الكلمات التي اختارتها غريزةُ لوسي بعناية، انصرفت إشارة إلى الماضي الذي مات، والأشياء مؤكَّد أنَّها باردة، والأُخرى خمَّن أنَّها تُشير تحديدًا إلى «آخر» قد يكون حلَّ محلَّه. لقد مالت لوسي إلى القسوة، إذ ما عادت ترى، بينهما، إلاَّ ما يتعذَّر إصلاحه، وفضَّلت أن تختزل علاقتهما، وما عاشاه - على قلَّته - طيلة ثلاثة أشهر، في مجرَّد تجربةٍ تافهةٍ قصيرةٍ وجديدة - مغامرة أن تشارك الفِراش مسنًّا ما يزال قابلاً للاستهلاك، على الرَّغم من جلده البالي واسمه العتيق الذي لم يعد أحدٌ يطلقه على أطفاله اليوم. لكنْ ربَّما يكون مبالِغًا ويفرضُ على نفسه خلاصةً للأحداث أشدّ ضراوةً من تلك التي تراها لوسي، وربَّما لوسي ليست بتلك القسوة التي يتصوَّرها!

لقد عرفها منذ ثلاث سنواتٍ. حدث ذلك أثناء عشاءٍ لدى آل بلوم. وكان يشعر بالضجر، فتهيَّأ للانصراف، وإذا بامرأةٍ شابَّةٍ تحضر. آسفةٌ على التأخُّر، كان عليَّ معايرةُ الأضواء في مشهدٍ من فيلمٍ طويل. كانت لوسي مسؤولةً عن المونتاج. وعلى الرَّغم من جهود أندري في عدم إظهار الاهتمام، إلاَّ أنَّه لم يستطع أن يحوِّلَ نظرتَه عنها، لفرط ما كانت «من الصنف الذي يفضِّله». قهرته القوَّةُ في صوتها: ما كانت ترفع البتَّة نبرتَها، كلّ جملةٍ تخرج من فمها موزونةً ومُفكَّرًا فيها. كانت تفرض كلامها، وما إن تُبلور فكرتَها، بعدَ رَويَّةٍ، حتى ينبض عرقٌ ضئيلُ عند صدغها. لاحقًا سيعلم

أندري أنَّ لها، مُذ كانت في العشرين من عمرها، طفلاً اسمُه لوي، ربَّته بمفردها. ففكَّر أندري في أنَّ رزانتَها، وخلوَّها من أيّ رعونةٍ، هما ثمرةُ مسؤوليَّة الأمّ العازبة التي تحمَّلتها.

أجل، لن نبالغ إن قلنا إنَّ لوسي قد قلبت كيانَه. لو كان أصغر بعشرين سنةً لطلب منها أن ينجبا طفلاً. لكنَّ اختلاف السنِّ يجعل كلّ الأمور غير معقولة. إنَّ ابنته، جان، تكاد تكون في عمر لوسي. ومنذ فترةٍ قصيرةٍ كان قد سألَ امرأةً مازحًا: «هل تريدين أن تصيري أرملتي؟» ولم تضحك لمزحته الأرملةُ المفترضة. ولمَ صار يتَّخذ رفيقاتٍ صغيراتٍ جدًّا في السنِّ؟ أصدقاؤه يشيخون معه، لكنَّ تلك ليست حال النساء اللواتي يحببهنَّ. إنَّه يفرّ، إنَّه خائف. يستطيع أن يتعشَّى مع الموت القادمِ، لكنَّه يعجز عن مضاجعته.

تكرَّرت لقاءاتهما سنتيْن. لقاءات لا يستطيع التخلِّي عنها. ثم ذات يومٍ حدثت المعجزةُ، فقبَّلَها، لكنَّ المعجزة لم تدم سوى بضعة أشهر.

وضع المعماريُّ لائحةً بالأشياء التي أدَّت، شيئًا فشيئًا، إلى تقوُّضِ مكانته لدى المرأة الشابَّة، فخلص إلى أنَّ كلّ الطرق تؤدِّي به إلى مسألة الجسد. مُذ صارَ يبصر الموتَ في الأفق، أي منذ عهدٍ بعيدٍ، صار يضع الرغبةَ في صدرِ كلِّ علاقةٍ يُسمِّيها حُبًّا. أمَّا لوسي، فتضع الرغبةَ بديهيًّا في حاشية العلاقة.

حين كانت لوسي تعود إلى المنزل منهكةً من ساعاتٍ طوالٍ قضتها في شغل المونتاج، كان يقومُ إليها باسمًا ليحضنَها، فيقرأُ في كلِّ حركةٍ من حركاتها إشارةَ تحفُّظٍ - تحفُّظٍ قد لا يكون سوى ثمرةِ تعبٍ؛ فإن ناما خشيَ أن تصدر عنه حركةٌ مفرطةٌ في العنوةِ، فتؤدِّي إلى نفورها منه؛ فكان يقضي لياليه على مسافةٍ منها، منفيًّا إلى ما تسمِّيه «مجالها الحيويّ»، وهذا مفهومٌ لا يُثير عند جيلها ذكرى المفهوم النازيّ Lebensraum. وبمجرَّد أن تنام، كان يشتاقها. ويغرق في الشجن، يخشى أن ينامَ فيشخر، فينغِّص عليها راحتها، أو قد يحدث الأسوأ، أن تستيقظَ فتكتشف نائمًا يشاركها الفراشَ، مسنًّا قبيحًا، فاغرًا فمًا كريهَ الرائحة.

وفي الصباح، ما إنْ يرنَّ منبِّه لوسي حتى تقوم من فراشها، من غير أن تقبِّلَه؛ فيتابع هو في غبش النهار، بلا نظَّاراتٍ، الجسدَ المشتهى يغادرُ الغرفةَ ليلج الحمَّامَ. ينصت إلى صوت الماء

يتدفَّق، طويلاً، يتخيَّلها عاريةً تغلق عينيْها تحت الوابل الدافئ، فينقبض صدره من الهمّ، أو ربَّما من المهانة!

لو أنَّه كان في الثلاثين من عمره، ويملك ذاك البدنَ المتراصَّ الذي ما يزال ينعم بالخلود، ذاك البدنَ الذي لا يخشى التجاعيدَ ولا الموتَ، أكانت لوسي لتفرَّ من عشيقها الوسيم، لتلوذَ بالحمَّامِ الصباحيّ؟ لو أنَّ عشيقَها كان الوسيمَ نِلسن! أجل، لمَ لا، نلسن؟ وارتجفَ إذ خطرت له تلك الصورةُ العابرة، صورة نلسن المهيب يركب معشوقتَه الرقيقة لوسي. لقد وجدَ جوابَه، وجوابُه يصلُبُه.

مع أنَّ لوسي كانت أحيانًا تضع يدها عليه، فتتحسَّسُ صلابةَ الأسطوانة اللحميَّة، ثم تركبه منفرجةَ الساقيْن. يلجُها عميقًا. ولأنَّ تلك الوضعيَّة تمنع القبل، فإنَّه يحاول سحبَها إليه؛ لكنَّها تستعيد على الفور وضعيَّتها قائمةً، وسرعان ما تصيبُ نشوتَها. جسدُها الرشيق، المتقاطرُ عرقًا، يُعلمه بضرورة أن يصيبَ متعتَه هو أيضًا على الفور. فيباشرُ المرأةَ بقسوةٍ محاولاً أن يبلغ النشوة المحرِّرَةَ. لكنْ لا تلك الوتيرة، ولا ذلك الإيقاع، كانا مناسبيْن لهما.

ثم ما لبث أندري أنْ فَقَدَ الحذر بسبب رغبتِه، وحزنه، وهمومه، فألحَّ عليها مرَّاتٍ إلحاحًا أخرقَ، وهل يكون الإلحاح إلاَّ أخرق؟ وفي غمرة النفيِ الذي طال وجودَه، والشرخِ الذي أصاب جسدَه، عجزَ عن إيجاد مركز ثقلٍ جديد. كم من الزمن بقيَ له، ليحياه حياةَ رجلٍ؟ الزمنُ يضعضعُه، ملحقًا به الرقم الملعونَ 6، كرقمِ عشراتٍ. إن لم تكن لوسي تحبُّه اليومَ حبَّ اليقين، فإنَّ السنوات القادمة لن تزيدَه جاذبيَّةً في عينيْها.

دخلت العربةُ الورش، بلا تردُّد، وهي تطقطق وسط الوحل وألواح الخشب، حتى بلغت الكوخ النموذجيَّ المزيَّنَ بالحرفيْن الكبيريْن V & E،إشارةً إلى اسم المكتب. صعد أندري إلى الصالة الكبيرة، في الطابق الأوَّل، حيث كان ينتظره نلسن. لوسي، مع نلسن؟ كلاَّ، لم يعد يعتقد في ذلك.

اكتفى المعماريّ الشابّ بالقول: - إنَّ مهندسي سنغ سانسيت كنستركشن هنا.

- فلينتظروا. أمهلني دقائق.

قدَّم أندري لنفسه قهوةً، ووقف بإزاء النافذة، وجاس بنظرته ورشَ سوريايا تاور. الساعة الآن العاشرة، والموعد كان في التاسعة. وابتداءً من اللحظة، لا شيءَ متروكٌ للصدفة: تأخُّره المعيب، وصندلُه، وسروالُه الجينز الباهت، وقميصه الأبيض القطنيّ بياقته على طراز نِهرو، وحقيبة الظهر من نسيج. إنَّ زيارتَه إلى الورش كانت مقرَّرةً منذ زمنٍ بعيدٍ، لكنَّه ونلسن قرَّرا أن يقولا للمعمارِيّين إنَّه تكلَّف السفر إلى الهند لأجل لقائهم فقط.

زمرةٌ من مهندسي سينغ سانسيت كنستركشن، جلوسٌ، حول رئيسهم. ستُّ بِذلٍ سوداءُ مفصَّلةٌ تفصيلاً ضيّقًا، ستّ ربطاتٍ معقودة، ستَّة وجوهٍ متوتِّرة. جميعًا قاموا حين دخل عليهم أندري. وبلا تردُّد، قصد أندري إلى سينغ الذي لم يلتقيه قطُّ، ولكنَّ نلسن أرسل إليه صورتَه. رجلٌ أشيبُ الشعرِ أملَسُه، في الخمسينيَّات من عمره، جافُّ العودِ، عضِلٌ، متَّقد النظرة. وقبل أن يتمكَّن الرجل من الانحناء، وتشبيك ذراعيْه، على معتادِ الهنودِ في التحيَّة، أمسك فانييه بيده، وصافحه في قوَّة. وحتى نبرةُ الممثِّل موريس شوفالييه التي سيتَّخذها أندري للحديث، كانت محسوبةً.

Very honored, Mr Vannier, very - Good morning, Mr Singh - honored - مستر سينغ، لدينا ساعتان لحلِّ هذا المشكل. ينبغي أن أسافر إلى نيويورك هذا المساء. المشكل خطيرٌ جدًّا. جدًّا. تفهمني؟ وقبل كلّ شيء، لنقم بجولةٍ في الورش.

.Mr Vannier, we think that

ومن غير أن يمهل سينغ الوقتَ لإتمام جملته، خرج فانييه. وخرج في إثره الجميع. فانييه يحثُّ السير، ونيلسون في إثره، وخلفهم الهنود في صفٍّ، واحدًا تلو آخر.

دنا نلسن من رئيسه، وهمس له: - لقد وصلت من المختبر نتائج عيّنات الخرسانة المستعملة في الركائز الدقيقة. فيما يخصّ المقاومة، نحنُ بعيدون عن المعايير المفروضة C 115/100. نحن في حدود C90 ، أو حتى أقلّ من ذلك. نستطيع تدارك الأمر بأن نقيم ركائز أخرى، ونضرب صفحًا عن هذه. أومأ فانييه موافقًا. إنَّ نيلسون هو سلاحه السرّيّ في الهند. منذ شهرٍ حلَّ الشابّ بومباي؛ منذ شهرٍ وهو يعقد كلّ يومٍ، بإنجليزيَّةٍ تقنيَّة، يُتقنُها، اجتماعات ورش متوتِّرةٍ، مع المورِّدين؛ منذ شهرٍ وهذا الفتى ذو المظهر الشبيه بمظهر راكب أمواجٍ أستراليّ، ينصت مبهورًا إلى ما يُقال حولَه باللغة الهنديَّة التي يتقنها كلّ الإتقان، فهي لغةُ طفولته التي قضاها في مدينةٍ

ساحليَّةٍ بالمحيط الهنديّ، حيثُ ما تزال أمّه تديرُ دار ضيافة. وهل لديه شكٌّ في أنَّ إتقانه تلك اللغةَ، كان السبب الرئيس في قبوله لدى مكتب فانييه وإدمنتون، أسبوعيْن بعد حصول المكتب على مناقصة بناء سوريايا تاور؟

لمَّا بلغ فانييه قاعدة الدعامة، فتح حقيبته، وأخرج منها حاسوبًا، وجهازَ اتِّصالٍ بأنترنت الأقمار الصناعيَّة، ومقدِّرَ مسافاتٍ بالليزر. ربطَ أسلاكًا، وفحصَ معطياتٍ، وعالج مقدِّرَ المسافات، خمس مرَّات، عشر مرَّات، ثم عاود الحسابات، ثم سلَّطه على ركيزة، ثم على أخرى، بينما رجالُ سانست يسنغ يرشحون عرقًا في الشمس. واستمرَّ في عمليَّاته، أكثر ممَّا يلزمه، ثم لملم كلّ شيء، بعنايةٍ بالغة، ومن غير تعجُّل. وبعد ذلك، عادوا جميعًا إلى الكوخ.

جلس فانييه، وبإيماءةٍ دعا الجميع إلى الجلوس. تمهَّل ثواني، ثم قال بغتةً، بإنجليزيَّةٍ خاليةٍ من كلِّ نبرة: - سيِّدي سينغ، حدثَ خطأٌ، ونتائجُه ظهرت من الآن. علينا أن نصلح الآن، وإلاَّ فات الأوان. إنَّ الهندسة المعماريَّة لعبةٌ، لكنَّها لعبةٌ عالمة، لا نحتاج إلى أن نبسِّط ذلك. أمَّا البناء فلا مجال فيه للعب... إنَّه ميدانٌ يُفترض أن نقوم بأموره معًا... تفهمني؟ معًا...

هزَّ سينغ رأسَه.

وساعة الزوال، كان فانييه قد حصل على كلّ مبتغاه. التزم سينغ سانسيت كنستركشن بجدولٍ زمنيٍّ جديد، ولن تتجاوز الغرامات الهيِّنة التي يفرضها عليهم مكتب فانييه وإدلمان تكاليف الخبرة والمحامي. لا نقتل حصانًا في عزِّ السباق. ستبدأ عمليَّات الحفر ظهر اليوم نفسه، وستصبُّ الخرسانةُ ليلاً حين ينتعش الجوّ. ونظرًا للطابع الاستعجاليّ للعمليَّة، أصرَّ فانييه على ألاَّ يلتزموا بمعايير 115 C فحسب، وإنَّما أيضًا بمعايير X S2، المقاوِمة للمياه المالحة. مع الحرّ، ستجفّ الخرسانة في أسبوعيْن، وبعد ثلاثة أسابيع يكون بالإمكان البناء عليها.

ولمَّا بدأ معماريُّو سينغ سانست يتجادلون وهم يدرسون التصاميم الجديدة، انحنى فانييه على طريقة الهنود، وانصرف، يتبَعُه نلسن. وإذ ابتعدا عن الورش، تناولا من بائعٍ متجوِّلٍ بيرتَي غينغفيشر مثلَّجتيْن، وواصلا السير نحو الأرصفة. ما تزال لدى فانييه ثلاث ساعاتٍ قبل موعد طائرته إلى نيويورك.

فجأةً، بمودَّة، سأل نلسن: «بالمناسبة، كيف حال لوسي يا أندري؟ هل أنهت فيلم فون تروتا الذي كانت تشتغل عليه؟»

ابتسم فانييه ابتسامةً أمْيل إلى التجهُّم، ثم استطردَ، وراوغَ، فانتبه إلى أنَّه يخفي عن نلسن خبر انفصالهما، كأنَّما بإخباره بذلك سيجعل الفراقَ ناجزًا أكيدًا. إنَّه يشعر بالإهانة، ولأوَّل مرَّةٍ في حياته يشعر بالعار من جور الحياة عليه.

لقد انصرفت لوسي، انصرافًا ناجزًا ومؤكَّدًا، والمعماريّ يلوك عبارتها: «انصرفت إلى أشياء أخرى». Sic transit..[7] وأندري قد بدأ يقتنع بأنَّ الأسف كلّ يومٍ على امرأةٍ رحلَت، أهونُ من اشتهاءٍ لا ينقطع لامرأةٍ تنام بجانبك، في غبشِ اللامبالاة والفتور، تفصل بينكما سنوات ضوئيَّة.

وفي الطائرة إلى نيويورك، أعاد فانييه قراءة النصّ القصير الذي أهداه إلى لوسي، نصّ الخلل لڤيكتور ميِيزل، كاتبٌ لم يكن يعلم عنه شيئًا، قبل شهريْن. حاول أن يشتغل، لكنَّه لم يستطع كبح نفسه عن كتابة إيميله اليائس مرَّةً ثانية. لقد سُوِّيَ بالأرض. لم يتوقَّع البتَّة هذا التقوُّض المدوّخ.

إنَّ هذا الألمَ البواحَ هو ما أفاض الكيلَ بلوسي، وهو ما جعله يخسرها، لكنَّه لم يستطع أن يُظهر الصبر. إزاء وجع الفشل، يلوم نفسَه، يلعن قلَّة صبره. كان يحسب نفسَه عشيقًا جيِّدًا، حنونًا ومجرِّبًا، كان يحلم بأن يستبقيها بالجنس، أن يصير لها علامةً على لذَّةٍ رائعة. فكان أن تصرَّف بغباءٍ، لأنْ لا شيء أغبى من الرغبة، لا شيء أغبى من هذا الشيء الذي يُعتبر، بحسب اسبينوزا، جوهرَ الحياة؛ بغبائه حاول أندري أن يستدرج لوسي دائمًا إلى السرير، فانتهى بها المطاف إلى تجنُّبه.

قالت له لوسي «إنَّ رغبتك تضطهدني. لقد أفلحتَ في قتل رغبتي». وطلبت منه استراحةً في علاقتهما. استراحةً لم تكن بالطبع استراحةً.

مِيس أفلاطون ضدَّ دكتور اسبينوزا. وقد خسر اسبينوزا. كش ملك.

لم يكتب أندري شيئًا ممَّا يجول في خاطره، إنَّما حرَّر إيميلاً سخيفًا بلا شكّ. «وددتُ لو أقطع معكِ الطريق أطولَ ما يمكن، لا بل أن أقطع معكِ أطول الطرق الممكنة». لشدَّ ما يكره كلّ تلك الكلمات. ومع ذلك هو ذا يرسلُها. كم الساعة الآن في باريس؟ لقد حلَّ الاثنين. وما تزال نائمة.

ثم إنَّ الميلاتونين فعلَ فعله، فغاص أندري في نومٍ خلوٍ من كلّ حلمٍ. وفي مطار جون كينيدي، بينما يجتاز الجمارك، والنوم ما يزال عالقًا بأجفانه، قام الضابط بمسح جوازه، وتأمَّله مليًّا، فاستوقفَه، دقائقَ، ريثما وافاهما رجلٌ وامرأة. كانا شابَّيْن، يرتديان ملابس كاجوال أنيقة، هو بذلة سوداء، وهي بذلة رماديَّة، هيأتُهما تشبه هويَّتَهما: إف بي آي. وقد أخرجا البطاقة الزرقاء، وبادج الماريشال المذهَّب، حيث تتَّخذ العدالة صورة وجه لعبة بلايموبل حاملةً ميزانًا وسيفًا.

قالت المرأة:

- السيِّد أندري فانييه؟

أومأ موافقًا، فأَرَتْهُ صورةً على شاشة هاتفها.

- هل تعرف من في الصورة؟

إنَّها لوسي. لوسي جالسة في غرفةٍ ضيِّقةٍ تضيئها مصابيح نيون أصفر. إنَّها مرعوبة، فزعة. أجل، ذلك ما تشي به هيأتُها ونظرتُها. شيءٌ ما غير طبيعيٌّ في صورة لوسي هذه.

- طبعًا أعرفُها. إنَّها لوسي بوغارت. هل حصل لها مكروه؟ أليست في باريس؟

- التعليمات التي لدينا هي أن نطلب منك مرافقتنا، لا غير، يا سيِّدي فانييه. كان يُفترض أن يكون هنا فردٌ من قنصليَّة بلادك، لاستقبالك. سوف يلحق بنا إلى حيث نقودك. تستطيع أن ترفض، لكنْ في تلك الحالة سوف ننتظره معًا في صالة الحجز.

هزَّ فانييه رأسَه: بالطبع لا يرفض.

خرجوا من المطار، وساروا باتِّجاه سيَّارة ليموزين سوداء؛ وكان في انتظارهم رجلٌ، تناول الحقيبة من عند أندري ووضعها في صندوق السيَّارة. صعدوا إلى الخلف. وما كادوا يستقرُّون في مقاعدهم، حتى نقر الرجلُ على جدار الزجاج الكامد الذي يفصلهم عن السائق. انطلقت السيَّارة، فانتبه أندري أنَّ زجاج النوافذ كامدٌ لا يشفّ عن شيء.

قالت المرأة:

- أطفئ هاتفك وسلِّمه لي. آسفة. هذه هي التعليمات.

أطاع أندري الأمر. وقد استولى عليه الخوف هو أيضًا. خوفٌ مضاعفٌ، على نفسه وعلى لوسي.

الساعات الأولى

الخميس 24 يونيو 2021

قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، ترونتون، نيو جيرسي

حطَّت طائرةُ بوينغ 787، تالفةُ الهيكل، وتوقَّفت أقصى المسار 2، غير بعيدٍ عن طائرات الهليكوبتر بلاك هاوك، وطائرات المحرِّكَيْن الرّماديَّة الكبيرة، ذات المراوح، التابعة لسلاح الجوّ الأميركيّ. ثلاث عربات مصفَّحة اتَّخذت مواقعها بجانب المسار الطويل، وليلٌ ساخنٌ بحريُّ الروائحِ يرخي سدولَه على الأرض الواسعة التي تجتاحها نباتاتُ المريميَّة والقرنيَّة.

قرب المستودعات، تتوالى الشاحنات العسكريَّة كأنَّها عرضُ باليه لا نهاية له. وفي مزيجٍ من العجلة والانضباط، مئاتُ الجنود يهيّئون شيئًا ما داخل حظيرة طائراتٍ شاسعة، أخرجوا منها للتوّ طائرة الشحن الهائلة لوكهيد سي 5 غالاكسي التي كانت في طور المراجعة. قرب الأبواب الزلقة الضخمة تبرز، ضئيلةً، ثلاث هيئات. رزانة المرأةِ التي ترتدي بذلة شانيل سيِّئة التقليد، وأحد الرجليْن الذي يرتدي بذلةً سوداء على طريقة مِن إن بلاك، تبدّد كلّ شكٍّ: إنَّهما من جهةٍ رسميَّة. أمَّا الفرد الثالث فأكثر فرادةً: شعره طويل وأمْيَل إلى أن يكون دهنيًّا؛ ونظَّارته دائريَّة فولاذيَّةُ الإطارِ، تنزلق على أنفه؛ وقميصه الممزَّق مكتوبٌ عليه «I zero, one, and Fibonacci». ويفوح بالقليل من رائحة العرق، والكثير من رائحة البيرة.

وإن شرب أدريان قنّينتَي ماء، فإنَّ رأسُه ما يزال يدور. ما إن نزل من سيَّارة الشرطة حتى تقدَّم إليه العميلان وعرَّفا بنفسيْهما، لكنَّه نسي اسمَهما على الفور، اسم عميل السي آي إيه، وعميلة الإف بي آي. مدَّ إليهما يده في ارتخاءٍ، من غير أن يتظاهر بأيِّ تماسك.

صافحه الضابط بتحفُّظ، بل بشيءٍ من الجفاف، بأطراف أصابعه، كأنَّما يمسك زعنفة سمكةٍ طينيَّةٍ بدأها التحلُّلُ: - أعترف بأنَّني لم أتخيَّلك هكذا يا سيِّدي ميلر... أقصد صغير السنِّ إلى هذا

الحدّ...

كانت عميلةُ الإف بي آي، وهي لاتينيَّةٌ رقيقةُ الملامح، متَّقدة العينيْن، في الثلاثينيَّات من عمرها، تتأمَّل الرياضيَّ في صمتٍ. ألفته في البداية قريب الشبه من الممثِّل جون كوزاك، أو لنقل من جون كوزاك في دور الفقير، وإن كان نسخةً أكثرَ ترهُّلاً من الأصل، ثم ما لبثت أن استدركت، كلاَّ ليس حتى نسخةً مترهِّلةً من الممثِّل. ومع ذلك، قالت في مزيجٍ من الدهشة والتقدير: - نحن نحفظ تقريرك عن ظهر قلبٍ يا بروفسور ميلر. عملٌ مذهل. ونعوِّل كثيرًا على تجربتك. أظنّ أنَّك والبروفسور بروستر - وانغ قد واجهتما من قبل البروتوكول 42.

غمغم أدريان ميلر بـ «لا» لا تكاد تُسمع. لقد انقطعت صلاته بتينا وونغ، حتى إنَّه يجهل أنَّ مدعوًّا - بروستر قد دخل حياتَها، ولم يسبق له قطّ أن واجه البروتوكول 42. ولحدّ علمه، لم يقع أيّ حادثٍ يعكِّر صوف الطيران، من تلك الحوادث الواقعة في خانة البروتوكولات «الضعيفة الاحتمال»: لم يحدث قدوم كائناتٍ فضائيَّة، وهو ما تمَّ تفصيله في ثلاثة بروتوكولاتٍ فرعيَّة - «اللقاء مع النوع الثالث»، «حرب العوالم»، «النوايا الغامضة» ـــــ، وإلى كلِّ بروتوكول منها تُضافُ متغيِّرات، من بينها ظهور غودزيلا الذي أضافه إرضاءً لتينا؛ ولا حدث هجومٌ للزومبي وغيرها من مصَّاصي الدماء - أو وباءٌ تنفُّسيٌّ قاهرٌ، من صنف الإيبولا أو الكورونا ڤيروس، يؤدِّي إلى حمّى نزيفيَّة ـــــ، وذاك ما كانا قد توقَّعاه في خمسة بروتوكولاتٍ أخرى ـــــ؛ وكذلك فرضيَّةُ ذكاءٍ صناعيٍّ شرّيرٍ يسيطر على حركة النقل - سواء تلقائيًّا، بروتوكول 29، أو بإدارةٍ من قوَّةٍ خارجيَّة، بروتوكول 30 - لم تقع، وإن بدأت ملامح إمكان وقوعها تتَّضح أكثر فأكثر.

أمّا البروتوكول 42... لا يمكن أن نواجه البروتوكول 42. شرب ميلر جرعة ماءٍ، ثم انطلق: - تعلمين يا سيِّدتي... آسف، لقد نسيت اسمكما.

- ضابط أوَّل غلوريا لوبيز، وزميلي من السي آي إي، ماركوس كوكس.

- حسنًا يا سيِّدتي الضابط أوَّل غلوريا لوبيز، لكي أصدُقك القول، البروتوكول 42 هو... كيف أقول...

شرب أدريان ميلر جرعةَ ماءٍ أخرى. ولم تسعفه الكلمات. لا يستطيع أن يعترف لها بأنَّ البروتوكول 42 ما هو إلاَّ مزحةٌ ثقيلة من عالمَي رياضيَّات، مزحةٌ كلَّفت المساهمين قرابة نصف

مليون دولار، إن حسبنا فقط تكلفة عشرين سنةً من الاحتفاظ بالهواتف المصفَّحة التي ما كان عليها أن ترنَّ... تأمَّل البوينغ، الشبيهة بسيجارٍ كبيرٍ من الألمنيوم، وقد صارت تضيئها الآن أضواء كشَّافات قويَّة.

- هل تعرفين لمَ نحن بالضبط هنا؟ ما المميَّز في هذه البوينغ، إن ضربنا صفحًا عن زجاجها المتشقِّق وأنفها المهشَّم؟

صحَّح له الضابط:

- القبَّة. كذلك يسمَّى أنف الطائرة: قبَّة.

قاطعته المرأة:

- لا فكرة لدينا يا بروفسور ميلر. والهليكوبتر التي تقلُّ البروفسور بروستر - وانغ على وشك أن تصل. إنَّها تلك النقطة السوداء هناك باتِّجاه الشمال.

أضاف العميل كوكس وهو يفتح مظروفًا: - بالمناسبة، وقِّع هذه الوثيقة فضلاً يا بروفسور ميلر. إنَّها التزامٌ بالسرِّيَّة: كلّ المعلومات التي ستُكشف لك ابتداءً من هذه اللحظة، تدخل في بند السرِّيَّة. وإن رفضتَ التوقيع، فستُحالُ على المحكمة العسكريَّة بتُهمة المسّ بالأمن القوميّ. أمَّا إن خرقت مبدأ السرِّيَّة بعد توقيع الوثيقة، فستدخل في حكم قانون US 79 18، ممَّا يعني أنَّك ستُحاكم بتهمة الخيانة العظمى. شكرًا على تعاونك.

*

منذ زمن الملك آرثر وفرسانه - على الأقلِّ - يفضِّل رجال الجيش الاجتماع في شكلٍ دائريّ، ولا ريب في أنَّ مردّ ذلك إلى ما تنطوي عليه الدائرة من فضائل؛ فهي توحي بالمساواة، من غير أن تنفيَ طابعَ التراتب. كذلك قاعدةُ ماغواير تملك طاولتها الدائريَّة الكبيرة في مركز قاعةِ قيادةٍ تحت أرضيَّة، ذات إضاءةٍ صارخة، وتغطِّي جدرانَها شاشاتٌ عريضة: كثيرٌ منها تعرض لقطةَ الطائرة 787 مسمَّرةً إلى الأرض، يُصوِّرها من كلّ الزوايا فيلقٌ من الكاميرات.

وقد فضَّل أدريان وتينا الجلوس جنبًا إلى جنب ليواجها معًا دستةً من الجنرالات المدجَّجين بالنياشين، ومن النساء والرجال المنتمين إلى كلّ المصالح التي يمكن أن تتخيَّلَها، وقد وُضع أمام كلِّ شخصٍ من الحضور اسمُه في حاملٍ شفّافٍ. فضلاً عن رموز FBI ووزارة الدفاع، كانت ثمَّة الشؤون الخارجيَّة، وسلاح الجوّ الأميركيّ، وCIA، وNSA، وNorad، وFAA، ورموزٌ أخرى كثيرةٌ لم يسبق لأدريان أن سمع بها. وكذلك هو وتينا كان لهم الحقُّ في اللقب العلميّ والاسم، مكتوبيْن تحت شعار «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا» وإن لم يعد أيٌّ منهما يشتغل هناك.

لم تتغيَّر تينا كثيرًا، وإن اتَّخذت ثوبًا أكثر رزانةً من ذاك التي كانت تتَّخذه أيَّام كانت طالبة دكتوراه بذوقٍ قوطيّ. وقد وجدت الفرصة لتسرّ إليه بأنَّها ما عادت تُدرِّس، وأنَّها تزوَّجت من جورج بروستر، وهو فيزيائيّ التقت به في كافتيريا كلِّيَّة كولومبيا، ثم أضافت في لسعةٍ باسمةٍ، أنَّها ما كانت لتتعرَّف بسهولة على أدريان إذ صار مظهره مختلفًا تمامًا عن المظهر الذي عرفته به، مظهر الممثِّل كريستيان سلاتر في فيلم اسم الوردة. لقد صارت تراه الآن أقرب إلى هيئة كينو ريفز مع شيءٍ من الصلع، لكنَّها لم تُفصح له بهذا الانطباع الأخير.

صوتٌ قويٌّ غطَّى على الجلبة. صاحب الصوت، وهو رجلٌ رشيقٌ، لا يحتاج أن يبسط نتائجه في أكاديميَّة ويست بوينت، كولورادو سبرينغز، ولا إنجازاته في حُمص ومقاديشو؛ ذاك أنَّ شعره الأبيض الحليق على الطريقة العسكريَّة، وملامحه الصارمة، ثم النجمات السوداء الثلاث المطرَّزَة على ياقته، تقوم مقام سيرةٍ مكتوبة. على أنَّ زيّه العسكريّ المموَّه لا ينفع بشيءٍ كثيرٍ في هذه القاعة ذات الهيأة المدنيَّة.

- سيِّداتي سادتي، أنا الجنرال باتريك سيلفريا، من مركز القيادة العسكريَّة القوميّ، وأمثِّل هنا وزارة الدفاع التي خوَّلت لي كامل السلطة. ينبغي أن تظلّ الوضعيَّة سرًّا، وقد فضَّل الرئيس ألاَّ يُغيِّر شيئًا من برنامج زيارته إلى ريو، لكنْ اعلموا أنَّه على اطِّلاعٍ بكلِّ ما يجري. أقدِّم الحضور: عن شمالي، الجنرال بوشمان الذي يدير قاعدة ماغواير، ويستضيفُنا لأيَّامٍ. أفترض أنْ لا أحد يعرف البروفسوريْن ميلر وبروستر وانغ الجالسيْن عن يميني، إنَّهما رياضيَّانِ، ونحن مدينون لهما ببروتوكولات إدارة الأزمات التي نعتمدها منذ 9/11.

حيَّا المعنيَّان بالأمر الحضور، في إماءةٍ موافقةٍ خرقاءَ، وواصل سيلفريا الحديث: - إنَّ البروفسور ميلر يدرّس في جامعة برنستون، والبروفسورة بروستر وانغ مستشارة لدى ناسا وهيئة غوغل. سيحظيان بكامل الحرّيَّة في تطبيق البروتوكول 42، وسأعمل أنا على تنسيق العمليَّة. وقبل أن يعترض أحدكم بكون جهاز السي آي إيه غير مخوَّلٍ له التدخُّل الأراضي الوطنيَّة، فإنَّني أوضِّح لكم أنَّ البروتوكول يفرض تدخُّل جميع المؤسَّسات.

وبينما يوزِّع ضابطٌ على كلِّ مشتركٍ لوحًا إلكترونيًّا وملفًّا سميكًا عليه ملصق «معلومات سرّيَّة»، واصل سيلفريا تقديم باقي الحضور، واحدًا تلو آخر، بدءًا من الضابط الأوَّل في الإف بي أي، إلى العميل الخاصّ في سي آي إي، إلى المسؤول عن المراقبة الرقميَّة في وكالة ناسا، وهو رجلٌ في الثلاثين من عمره، ذو ملامح مزعجة تشبه ملامح مهووسٍ بإنشاء شبكات تواصل اجتماعيّ، وصولاً إلى امرأةٍ ضئيلة الجسم، ذات صوتٍ صافٍ عذب، وشعرٍ قصيرٍ أبيض وإن لم تتجاوز الأربعين، وهي جيمي بودلوفسكي، من قيادة العمليَّات الخاصَّة، متخصِّصة في العمليَّات النفسيَّة. الجميع معنيُّون، كلٌّ على طريقته، بتدبير البروتوكول 42. وبدأ ميلر يستعيد الذاكرة: الوكالات الحكوميَّة المعنيَّة بالأمر، رتبة كلّ فردٍ من الجلوس حول الطاولة، وحتى جدول أعمال هذا الاجتماع... لا ينقص شيءٌ ممَّا حدَّده هو وتينا وانغ في تقريرهما.

واصل سيلفريا الكلام:

- سوف يتعزَّز فريقنا بعددٍ أكبر من الأفراد، خلال الساعات القليلة المقبلة. وفي هذه اللحظة نفسها التي أحدِّثكم فيها يتوجَّه عددٌ من الأشخاص، من جهاتٍ مختلفة، إلى القاعدة، وسوف يساعدوننا في مواجهة الوضع. كم متخصِّصًا في العمليَّات النفسيَّة ستبعث به إلينا الإف بي آي أيُّها العميل الخاصّ بودلوفسكي؟

- ما يزيد عن مائة. وكذلك سنتدخَّل من أحد بناياتنا في نيويورك.

- شكرًا. أمامكم تقريرٌ عمَّا نعرفه حاليًّا بخصوص الوضعيَّة. الطائرة 787 المتوقِّفة على المدرَّج هي سبب اجتماعنا هنا جميعًا. لقد ربطَت الاتِّصال بمطار كينيدي اليوم 24 يونيو، في الساعة 19 و03 دقائق بالضبط. قدَّمت نفسها باعتبارها طائرة الخطوط الفرنسيَّة 006، التي أقلعت من باريس إلى نيويورك. أعلمتنا الطائرةُ بأنَّها تعاني من أعطاب وخسائر بيِّنة، وقد تمَّ توجيهها إلى

هذه القاعدة خلال الدقائق التي تلت ذلك. يؤكِّد قائد الطائرة أنَّه دافيد ماركل، والربَّان المساعد اسمُه جيدون فافرو، وتجدون هنا لائحةً مفصَّلة شاملةً بأسماء أعضاء الطاقم والركَّاب. أترك الكلمة فورًا لبريان ميتنيك من وكالة الأمن القوميّ. هلاَّ حدَّثتنا عن الألواح الإلكترونيَّة يا بريان؟

قام ضابط الأمن القوميّ. ولمَّا وقف بدا أكثر طفولةً، خاصَّةً وأنَّه كان يحرِّك في يده بحماسة مراهقٍ مستطيلاً دقيقًا أسودَ.

- مرحبًا بالجميع، أمام كلّ منكم لوحٌ إلكترونيّ مثل هذا الذي أمامي. لوحكم شخصيّ وغير مغلق. في شاشة الاستقبال ترَونَ تصميم البوينغ 787. اضغطوا على كلِّ مقعدٍ، وسوف يظهر اسمٌ في النافذة المنبثقة، مقعدًا مقعدًا، بما في ذلك مقاعد الطاقم. وتعمل ناسا على تحيين ألواحكم بمقدار ما يجِدُّ من معلوماتٍ عن كلّ شخصٍ موجودٍ على متن الطائرة. وكلَّما وُجد رابطٌ نحو صفحةٍ جديدة، أو صورةٍ أو نتفةٍ من نصٍّ، سيظهر بالأزرق. اضغطوا عليه فتظهر لكم الصفحة. ولكي تعودوا إلى الخلف، اضغطوا سهمَ الرجوع. الأمر بسيط.

وبحركةٍ من يده، حرَّك ميتنيك أمامهم صُورَ ماركل وفافرو، فالمضيفات والمضيفين. وبينما يلهو ميتنيك بلعبته، استعاد سيلفريا الكلمة: - إن كنَّا قد أطلقنا البروتوكول 42، فإنَّما لأنَّ رحلةً أخرى تحمل الرقم 006 قد حطَّت اليوم، منذ أكثر من أربع ساعات في مطار جون كينيدي، في وقتها المقرَّر، أي 16 و35 د. رحلةٌ قامت بها طائرةٌ أخرى، بقائدٍ ومساعدٍ آخريْن. بالمقابل، طائرةٌ أخرى، من صنف بوينغ، تحمل المرجع نفسه 006، مُصابة بالأضرار نفسها التي أُصيبت بها هذه الطائرة، ويقودها القائد ماركل نفسه، ويساعدُه المساعد فافرو نفسه، وعلى متنها الركَّاب أنفسهم والطاقم نفسه.. لنقل باختزال الطائرة نفسها الماثلة أمامكم، قد حطَّت على مطار جون كينيدي، ولكنْ يوم 10 مارس، في الساعة 17 و17 د. أي منذ مائة يومٍ وستَّة أيَّامٍ بالضبط.

عمَّت الجلبة وتداخلت الأصوات، وأنهاها عميل السي أي إي بأن رفع يده: - لا أفهم. الطائرة نفسها حطَّت مرَّتيْن؟

- نعم. أكرِّر: إنَّها المركبة نفسها. وقد أكَّد لنا الأمرَ أحد تقنيّي الصيانة؛ إنَّها الطائرة 787 نفسها التي كان قد شارك في إصلاحها منذ أربعة أشهر. وبحسبه، فإنَّ الأضرار في هذه أقلّ، كأنَّما

بقيت تحت وابل البرَد نصف المدَّة التي بقيتها الطائرة الأخرى. ولكنَّه متيقِّنٌ كلَّ اليقين من التعرُّف على الأضرار التي لحقت الزجاج الأماميّ والقبَّة.. إلخ. أربطُ الاتِّصال مباشرةً بقائد الطائرة.

تردَّدت هسهسةٌ خفيفةٌ في قُمرة القيادة.

- قائد ماركل، مرحبًا. معك من جديد الجنرال باتريك سيلفريا. أنا مع هيأة الأركان العامَّة المكلَّفة بتدبير الأزمات. هل لي أن اسألك مجدَّدًا عن اسمك وتاريخ ميلادك؟

تردَّد في القاعة صوتُ ماركل. صوتٌ واهنٌ متعب.

- دافيد ماركل، ولدت يوم 12 يناير 1973. سيِّدي الجنرال، إنَّ صبر الركَّاب قد نفد. يريدون النزول.

- سوف نخليهم خلال الدقائق القليلة القادمة. سؤال أخير يا قائد ماركل: ما اليوم؟ وكم الساعة؟

- أجهزة التوقيت معطَّلة. اليوم 10 مارس، وساعتي تُشير إلى الساعة 20 و34 دقيقة.

قطع سيلفريا الاتِّصال. وكانت الساعة البرَّاقة في القاعة تشير إلى تاريخ 24 يونيو، وتوقيت الساعة 22 و34 د. على أكبر الشاشات ظهرت فجأةً صورة مريضٍ عُلِّقت له الأنابيب، على سرير مستشفى.

- التُقطت هذه الصورة منذ عشر دقائق بواسطة عميلٍ من الإف بي آي في الغرفة رقم 244 بمستشفى مونت سيناي. والرجل الراقد على السرير اسمُه أيضًا دافيد ماركل. وكان قائد طائرة الخطوط الفرنسيَّة 006 يوم 10 مارس الماضي. هذا المدعو ماركل يُحتضر بسبب سرطان بنكرياس شُخِّصَ لديه منذ شهر.

التفت سيلفريا إلى أدريان ميلر وتينا بروستر وانغ اللذين أصيبا بالخرس.

- هل فهمتما لِمَ أطلقنا البروتوكول 42؟ ما النهج الذي سنتّبعه الآن؟

II

الحياةُ حُلمٌ، على ما يُقال

(24 يونيو ــ 26 يونيو 2021)

الوجود يسبقُ الماهية، بل ويسبقها بمراحل.

(الخلل) ڤيكتور مييزل

اللحظة التي

الخميس 24 يونيو 2021

قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، ترونتون، نيوجيرسي

في صفٍّ، واحدًا تلو آخر، نزل الركَّابُ، وساروا نحو الحظيرة بين صفَّيْن من العساكر المسلَّحين والمرتدين أطقمًا صفراء عازلة. عبروا بوَّابةً كاشفةً للتلوُّث الإشعاعيّ، وأُدخلوا غرفة تعقيمٍ مضادَّةً للبكتيريَّات، ثم ولجوا تحت القبَّة الهائلة، واحدًا واحدًا، كقطَرات ماء. صفٌّ من العساكر يدوِّنون أسماءَهم وأرقامَ مقاعدِهم. قلَّةٌ فقط يحتجُّون. وسرعان ما يخلفُ التوتُّرَ، فالغضبَ، الإنهاكُ والقلقُ. فقط محاميةٌ متعبةٌ، وجدت الطاقة لتوزِّعَ بطاقتها المهنيَّة على الركَّاب.

في الحظيرة، أقام الجنود حمَّاماتٍ، ومراحيض متنقِّلةً، ونصبوا نحو مائة خيمة، وموائد طويلة. وجعلوا يوزِّعون وجباتٍ ساخنة. بعض الركَّاب حاولوا أن يستريحوا على المفارش الموضوعة تحت الخِيم، لكنَّ الجلبة تحت القبَّة الفولاذيَّة كانت تتردَّد عظيمةً، الأطفال يصرخون، والشجارات تنشبُ. عشرات الجنود يجوبون المكان في دوريَّات، متفحِّصين فحصًا دقيقًا كلّ مدخلٍ ومخرج؛ وفي الركن الشماليّ، أقام الفريق الطبِّيّ مختبرًا تحت سرادق معقَّم، ودستةٌ من الممرِّضات يأخذن عيِّنةً من لُعابِ كلّ راكب؛ وفي وحدات الورشِ الذي أُقيمَ عند الركن الشرقيّ، بدأ الاختصاصيُّون النفسيُّون المتوافدون في مقابلة الركَّاب، ومساءلتهم وفق الاستبيان الذي صاغه ميلر ووونغ على عجل. أثناء الساعات الماضية، اغتنى كثيرًا البروتوكول 42.

في الركن الغربيّ، فوق الأرض بخمسة أمتارٍ، تُشرفُ منصَّةٌ واسعةٌ على الحظيرة. لقد انتقل فريق قوَّات العمليَّات إلى إحدى القاعات المشرفة على الحظيرة، بحيث يستطيع أعضاؤه أن يراقبوا من خلف الزجاج ما يجري في هذا المَنْمَل الفوضويّ الضاجّ. وتمكَّنت وكالة الأمن القوميّ من أن تحدِّد مواقع معظم ركَّابِ وأفرادِ طاقم رحلة باريس - نيويورك ليوم 10 مارس. نحو مائةٍ منهم خاضعون الآن للإقامة الجبريَّة ومراقبةِ رجال الشرطة. وقارنَ اختصاصيُّو علم الأحياء بين

حمضهم النوويّ والحمض النوويّ لنظرائهم المحبوسين في الحظيرة: النتائج متطابقةٌ تمامًا. إنَّ الطائرة المتوقِّفة في قاعدة ماغواير مطابقةٌ تمامًا لتلك التي حطَّت بالمطار منذ نحو أربعة أشهر. عرض ميتنيك، مهووسُ الأمن القوميّ، على إحدى الشاشات صورةً مزدوجةً للقُمرة.

- ترون هنا، جنبًا إلى جنب، فيديوهات كاميرا الدرجة الأولى: على اليسار، صورة الطائرة الأولى، يوم 10 مارس؛ وعلى اليمين صورة الطائرة التي حطَّت اليوم... التوقيت في الصورتيْن معًا يشير إلى 16 س 26 د و30 ثانية... الصورتان معًا متطابقتان. ونحن في عزِّ المطبَّات التي تعرَّضت لها الطائرتان. لننظر الآن إلى الصور صورةً صورة...

على الشاشةِ، والتوقيتُ يُشير إلى 16 س 26 د و34 ثانية و20 جزءًا من الثانية، بدأ الڤيديو على اليمين يتباينُ مع الڤيديو على اليسار، وصار الأمر أشبه بلعبة البحث عن الفروق السبعة: يسارًا تطير النظَّارات من فوق أنف راكبةٍ، بينما في اليمين ما تزال محتفظةً بها فوق أنفها؛ هنا ينفتح صندوقُ أمتعة، بينما يظلُّ مقفلاً هناك. ثم بخاصَّة، يُخيِّم الظلام في الڤيديو على اليسار، أمَّا في الڤيديو على اليمين فتغمر المقصورة شمسٌ ساطعة. تواصل الطائرة الأولى رحلتها، تهُزُّها العاصفة الرهيبة التي شهدها يوم 10 مارس، بينما تنبثق الثانية في السماء الصافية ليوم 24 يونيو، الساعة 18 و7 دقائق.

عمَّت الضوضاء والبلبلة حتى ظنَّ ميتنيك أنَّ عليه أن يصيحَ ليُسمِع صوتَه: هتف بصوتٍ شديد الحماس: - كما لاحظتم. كلّ شيءٍ حدث في هذه اللحظة بالضبط: 16 س 26 د و34 ثانية، و20 جزءًا من الثانية... ويتواصل اللامعقول: لقد اخترنا ثلاث كاميرات من الكاميرات الداخليَّة للبوينغ 787: واحدة في الأمام، وثانية في الوسط، وثالثة في الخلف. تفصل بين كلّ كاميرا وأخرى عشرة أمتار. بسرعة 900 كلم في الساعة، أي 250 مترًا في الثانية، تقطع البوينغ الأمتارَ العشرةَ في جزءٍ من خمسة وعشرين من ثانية؛ وهذه الكاميرات، وهنا المعجزة، تلتقط خمسًا وعشرين صورةً في الثانية... تتابعونني؟

لم يتلقَّ ميتنيك جوابًا، فواصلَ: - سأقسِّم الشاشةَ إلى ثلاثة أقسامٍ. يسارًا ڤيديو الكاميرا الأولى. في الوسط، ڤيديو الثانية، وعلى اليمين ڤيديو الثالثة. وعليه، في س 16 و26 د و34 ثانية و20 جزءًا من الثانية، تغمرُ الشمسُ فجأةً المقصورة في الكاميرا الأولى. الظاهرة نفسُها تحدث في

الكاميرا الثانية، لكن في الصورة التالية: س 16 و26 د و34 ثانية و24 جزءًا من الثانية. أمَّا في الكاميرا الثالثة، الڤيديو على اليمين، فإنَّ الشمس تسطع عند 34 ثانية و28 جزءًا من الثانية.

سأله سيلفريا:

- و؟ وهذا يعني؟

أجاب ميتنيك بهيئة المنتصر: - بين كلّ كاميرا وأخرى من الكاميرات الثلاث فارق جزءٍ من خمسة وعشرين من الثانية. كأنَّما الطائرة الثانية انبثقت من لا مكانٍ، عبر مستوى عموديّ ساكن. قبل المستوى، تكون العاصفةُ، وبعد اجتيازها، يصفو الجوّ. بحسب أقمار مراقبتنا، فإنَّ هذا المستوى كان يوم 10 مارس عند N65«o 8' 50گ9 '25 42»W ، لكنَّ الطائرة ظهرت اليوم من جديد في نقطةٍ أبعد قليلاً، جهةَ الجنوب - الغربيّ، وبين الموقعيْن تقريبًا 60 كلم.

- وإلى ما تخلص من ذلك يا ميتنيك؟

قال وهو يستدير شطر الرياضيّين: - أوه.. أنا؟ لا شيء، لا شيء البتَّة. إنَّها معطيات تنتظر أن يفحصها عباقرةُ برينستون.

سألته تينا وانغ:

- جرى الأمر كما يحدث في آلة نَسخٍ، تصويرٌ في موضعٍ، طباعةٌ في موضعٍ، وورقةٌ تخرج من آلة؟

تردّد ميتنيك. بدت له الفكرة سخيفةً لدرجة أنَّه لم يجرؤ على الإفصاح عنها.

بسط الصمتُ يديْه من جديد. لم تُركَّب المكيّفاتُ بعد، وتهيمنُ على المكان حرارةٌ رطبة. هزَّت هاتفَ رجلِ الأمن القوميّ رسالةٌ، فقرأها وتنهَّد: - رئيس الولايات المتَّحدة الأميركيَّة يلحُّ على أن تتأكَّد وكالة الأمن القوميّ من فرضيَّة وجود باخرةٍ صينيَّةٍ أو روسيَّة، عند سواحلنا يوم 10 مارس، قامت بتجارب في السفر عبر الزمن...

استحوذت على الجنرال سيلفريا كآبةٌ منغّصة. أراح رأسَه على زجاج النافذة، وجعل يتأمَّل الحظيرة التي أضاءها نورٌ ساطع. زفرَ: - من أين خرجت لنا هذه الطائرة؟ لا بدَّ أنَّ عندكِ نظريَّةً

في الأمر يا بروفسور وانغ؟ بروفسورٌ بلا نظريَّة أشبه بكلبٍ بلا قُراد.

- آسفة، لحدِّ الساعة، لا قُرادةَ عندي.

استأنف سيلفريا الكلام: - نأمل أن نجد جميع الركَّاب خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً، بما في ذلك الركَّاب الأجانب الذين عادوا إلى بلدانهم منذ 10 مارس. إلى ذلك الحين، فلتصغيا لنا نظريَّةً.

اقترح أدريان:

- ينبغي أن نغنيَ الفريق العلميّ بمزيدٍ من الأفراد. فيزياء كمِّيَّة، فيزياء فلكيَّة، بيولوجيا نوويَّة... ينبغي أن يكون الفريق جاهزًا هنا مع الفجر.

- في ثلاثين دقيقة سنجهِّز لكم لائحةَ علماء. وسنحتاج كذلك فيلسوفيْن أو ثلاثة.

سألها سيلفريا:

- آه؟ ولِمَ؟

- ولِمَ العلماء دائمًا هم من يتمّ إيقاظُهم في جنح الليل؟

هزَّ سيلفريا كتفيْه.

- لا تتردَّدوا في استدعاء أيّ اسمٍ، إنَّ لي كامل الصلاحيَّة في اختطاف أيّ حاصلٍ على نوبل فوق أراضينا. الصيغة التي نستعملها هي «نطلب منك التعاون، بأمرٍ من رئيس الولايات المتَّحدة الأميركيَّة».

- أقِم لنا كذلك قاعةً لصياغة الفرضيَّات: قاعةً واسعةً للعمل الجماعيّ، مؤلَّفةً من عدَّة فضاءاتٍ متنوِّعة، وبها الكثير من الطاولات، والمقاعد، والأرائك، والسبُّورات السوداء، والطباشير، كلّ اللازم...

قال سيلفريا بصوتٍ ليس فيه ذرَّةٌ من تهكُّمٍ: - السبُّورات ستكون بيضاء وتفاعليَّة، يناسب لكم؟

- وكذلك عقاقير ضدَّ النوم.

- سنحشوكم بالمودافينيل. لدينا مئات العلب منه...

قال أدريان مجازفًا: - يلزمنا كذلك متخصِّصةٌ في مسائل الاستمراريَّة في الزمن، ونظريَّة البيانات.

- لِمَ متخصِّصة؟ هل في ذهنك اسمٌ بعينه؟

وبالفعل، في ذهن أدريا اسمٌ بعيْنه.

- البروفسور هاربر، في برينستون. ميريديث هاربر. منذ ساعاتٍ كنَّا... نتناقش تحديدًا... في نظريَّة التوبوس عند غروتنديك في الهندسة.

- سأُرسل سيَّارةً عسكريَّة تحضرها على الفور. هل هي... موثوقة؟ أقصد فيما يخصّ الأمن القوميّ.

- قطعًا. على أنَّها إنجليزيَّة. هل يطرح ذلك مشكلاً؟

بدا الجنرال سيلفريا متشكِّكًا.

- على أيِّ حالٍ، ثمَّة ثلاثة عشر إنجليزيًّا على متن هذه الطائرة اللعينة. ما دامت ليست صينيَّةً أو روسيَّةً أو فرنسيَّة، فلا بأس. وعمومًا، سنتعاون مع أجهزةٍ بريطانيَّة.

أضاف أدريان:

- وتلزمنا آلة قهوة، آلةٌ حقيقيَّةٌ، آلة تصنع الإسبريسو.

عبس الجنرال:

- لا تطلب المستحيل.

*

قبيل الحادية عشرة ليلاً، عند الركن الشماليّ من الحظيرة، ارتفعت زوبعة دخانٍ رماديّ. كان في البداية مجرَّد نفثٍ بسيطٍ، ثم ما لبث أن أخذ يسوَدُّ ويشتدّ. صاح صوتُ رجلٍ: «النار!»

فسرت في الحشد موجةُ هلع: الركَّابُ يهرعون صوبَ الأبواب المقفلة، فيصطدمون بالعساكرِ العسسِ، وفرقُ الأمن تركض إليهم لتساعدهم.

سريعًا تمَّت السيطرةُ على النار، لكنَّ سيلفريا تناول الميكروفون وخاطب الجمع: - أنا الجنرال باتريك سيلفريا. أرجوكم لا تستسلموا إلى الهلع. سأنزل لأُقدِّم لكم الشروح التي تدينون لنا بها.

ارتفعت في الصالة جَلَبة.

وبينما يتهيَّأ الضابط للنزول من المنصَّة، سألته تينا وانغ: - ماذا تنوي أن تقول لهؤلاء الناس؟ أنصحك بألاَّ تقول لهم إنَّهم يوجدون، في نسخةٍ أخرى، في مكانٍ آخر، وأنْ لا مكانَ لهم هنا على الأرض...

- سوف أرتجل. ومن ذا الذي يدري ماذا نصنع جميعًا على هذا الكوكب اللعين؟

وبينما سيلفريا، يخطب بالميكروفون في مائتي راكبٍ، مطلقًا سيلاً من التبريرات الكاذبة، خليطًا من مسائل الأمن القوميّ، والقرصنة، والصحَّة العامَّة؛ انطلق الجنود إلى فحص الخسائر: لقد شبَّت النارُ تحت مفرشٍ، ثم ما لبثت أن عمَّت سائر الخيمة. حريقٌ بفعل فاعل.

وعلى بُعد ثلاثين مترًا من هناك، كُسِر بواسطة عتلةٍ بابٌ معدنيٌّ ضيّقٌ يفضي إلى الخارج. في خضمِّ الهلع الشامل، خفَّت يقظة الحرَّاس. وبعد ذلك بعشر دقائق، اكتشفوا أنَّ السياج المحيط بالقاعدة العسكريَّة قد نُزِعَ منه مقدار خمسة أمتارٍ، إذ اخترقته مركبةٌ. كانت المركبة رماديَّةً، بشهادة أثر الطلاء الذي خلَّفته على السياج؛ على أنَّ الموقف الذي تُركن فيه المركبات غير بعيدٍ من الحظيرة، والذي منه سُرقت المركبة بالتأكيد، يضمُّ نحو ثلاثمائة مركبة. لقد فرَّ أحد الركَّاب واختفى في الظلام.

*

عند منتصف الليل، كانت قد وُضعت لائحة العلماء من تخصُّصاتٍ متنوِّعة: حائزون، أو مرشَّحون للحصول على جوائز نوبل، وأبل، وميداليَّات فيلدز. ونصف ساعةٍ بعد ذلك، بدأ رجال الـ أف بي آي يرنُّون أجراس البيوت، قاطعين كلّ نشاطٍ ليليّ؛ وأكثرُ الأنشطة الليليَّة شيوعًا النومُ.

«الطلب المستعجل من رئيس الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، والأضواء الوامضة التي تخترق الليل؛ كلّ ذلك يفعل فعله. وما كادت تدقّ الساعة الواحدة حتى كان فيلقٌ من السيَّارات والهيلوكوبترات والطائرات الخاصَّة يشقّ طريقَه صوب قاعة ماغواير.

مريديث أيضًا حضرت، تسبقُها رائحةُ الفودكا ومعجون الأسنان. واضحٌ أنَّهم قد استلُّوها من فراشها، وحين انطلق أدريان يعرض لها الوضع - عرضًا مشوَّشًا - كان غضبها منه قد تبدَّد منذ مدَّةٍ. كانت تنصت إليه، مقطِّبةً حاجبيْها، وتنظر إلى الحشد، في الأسفل، من غير أن تنبس بكلمة.

سألها أدريان دهشًا: - ألن تسأليني أيّ سؤال؟

- وهل لديك جواب؟

هزَّ أدريان رأسَه، فاقدًا التركيز، وناولها قرص مودافيلين. أراد أن يوضِّح لها أنَّ العقار لمحاربة النوم، لكنَّها بلعته من غير اعتراض.

- كان عليك أن تخبرني أنَّك عميلٌ سرِّيٌّ يا أدريان.

- ليس... ليس الأمر كذلك بالضبط. إيه... تعالي، سأقودك إلى غرفة القيادة.

- توت توت. عالم رياضيَّاتٍ في برينستون، ما أعجبه من غطاءٍ لجاسوس..!

حين دفع أدريان الباب، فغرت ميريديث فاها أمام المنظر. همست له: - أوه.. يعجبني الوضع يا أدريان! كأنَّنا في فيلم دكتور سترينجلوف.

على الشاشات، كلُّ معطى جديدٍ إلاَّ ويزيد تأكيدًا للمستحيل. الطائرة المركونة في الحظيرة متطابقةٌ كلّ التطابق مع طائرة البوينغ 787 التي حطَّت في مطار نيويورك يوم 10 مارس. طبعًا، أُصلحت المركبة، وطبعًا تقدَّمَ الركَّابُ في أعمارهم: ففي المساء نفسه، على سبيل المثال، يُحتفلُ في شيكاغو بالشهر السادسِ لرضيعٍ، ما يزالُ في القاعدة حديثَ الولادة، لا يتجاوز الشهريْن. خلال الأيَّام، المائة وستَّة، التي تفصل بين نزول الطائرتيْن، من بين المائتيْن وثلاثين راكبًا، والثلاثة عشر فردًا من الطاقم، أنجبتِ امرأةٌ وتوفِّيَ رجلان. لكن من الناحية الجينيَّة، أفراد الرحلتيْن متطابقون. أدلى سيلفريا بالحصيلة ضمن لجنةٍ مصغَّرة، وضربَ صفحًا عن الرياضيِّين.

- والتحقيقات؟

أجابته جامي بودلوفسكي، اختصاصيَّة العمليَّات النفسيَّة: - إنَّنا نعمل على تطوير الاستبيان الذي وضعه البروفسوران وانغ وميلر. نُقحم فيه تفاصيل خاطئة، كي نستحثّ ردود الأفعال التي ستؤكِّدُ لنا الهويَّات. بدايةً، ينبغي أن تظلّ أسماء الركَّاب سرًّا.

حرَّك ضابط وكالة الأمن القوميّ مجدَّدًا لوحَه: - سنراقب شبكات التواصل الاجتماعيّ، عبر تفعيل إنذاراتٍ تحيلُ على الكلمات المفاتيح، من «بوينغ» إلى «ماغواير». وحين ينفجر خبر الأزمة، سيكون بوسعنا تعيينُ نقاط البثّ، وحصرُ ذيوع المعلومة. لكنَّنا لا نستطيع أن نوقف الإنترنت، فنحن لسنا في الصين ولا في إيران. إلى حدود الآن، صفحةٌ واحدة فقط، وهي صفحة جنديٍّ من القاعدة، أشارت إلى هذه الطائرة، وقد مسحناها. حمدًا للربّ...

قالت بودلوفسكي:

- ما دُمتَ ذكرتَ الربّ...

إنَّ لكلمة الربّ فضيلةَ أن تفرض الصمتَ. هزَّت عميلة الـ إف بي آي رأسَها، فعبرت جديلةُ شعرٍ سوداء رقيقة، في غمرة النور، كتلةَ شعرها الأبيض.

- ... حسنًا... إنّ الربّ نفسَه قد يكون مشكلة. في بلدنا، كما في بلدانٍ أخرى، عادةً ما نُثيرُ مسألة الإرادة الإلٰهيَّة. أو أفعال الشيطان. لن نستطيع الوقوف أمام موجة الخرافات وما يمكن أن يصدر عن الدعاة والمريدين من أفعالٍ طائشة. لقد بادرتُ إلى دعوة مجلس قادةٍ روحيِّين من كلِّ الأديان والمعتقدات. إنَّ مستشاري الرئيس الدينيِّين كلّهم من الإنجيليّين، ولا ينبغي أن نُلامَ على اقتصارنا عليهم. على متن الطائرة، ثمَّة مسيحيُّون، ومسلمون، وبوذيُّون... الوقت ليس في صالحنا، والدينيُّ بطبعه غير متوقَّع.

قال الجنرال:

- لديك كامل الصلاحيَّات يا جامي. بميزانيَّة تسعة مليار دولار التي حصل عليها مكتبكم، لا بدّ أن ينجح في إنجاز شيء.

سأل ميتنيك:

- ماذا عن الفرنسيّين وغيرهم من الأوروبيّين، والصينيّين، وبقيَّة العالم... ما العمل؟ هل نتصل بسفراء بلدانهم؟

- لكي نُخبرهم بأنَّنا نحتجز بشكلٍ غير قانونيٍّ رعاياهم؟ لن نفعل أيّ شيء. سننتظر قرار الرئيس. شيءٌ آخر؟

من أقصى الصالة رفع أدريان إصبعه على استحياء: - لكي نميّز ركَّاب رحلة العاشر من مارس، عن ركَّاب هذه الرحلة، تلزمنا شِفرةٌ: واحد واثنان؟ ألفا وبيتا؟ ألوان: أزرق وأخضر، أزرق وأحمر؟

اقترحت ميريديث: توم وجيري؟ لوريل وهاردي؟

حسم سيلفريا في الأمر: - أفكارٌ نيّرة، لكن كلاَّ. سنعتمد ببساطة مارتش للطائرة الأولى، التي حطَّت في شهر مارس، وجون، للطائرة الثانية التي حطَّت في شهر يونيو.

*

الوقتُ حاسمٌ. بْلِيك يدركُ ذلك. خمسة عشر دقيقة في الحظيرة كانت كافيةً ليستغلَّ ثغرةً في نظام الأمن، فيفرّ؛ ثم سبع دقائق أخرى لكي ينطلق نحو نيويورك في سيَّارة بيك - آب فورد إف قديمة، وهي من أكثر السيَّارات شيوعًا، استعارها من موقف القاعدة. دائمًا يسافر بحقيبة ظهر، لا غير. وطبعًا لم يُسلّم الطاقم الهاتفَ الذي اشتراه من باريس، والمعدَّ للاستخدام مرَّةً واحدة، وطبعًا تفادى فحص الحمض النوويّ. بلغ نيويورك في الثانية صباحًا، ألقى في حاوية زبالةٍ جواز السفر الأستراليّ الذي استخدمه في رحلة الذهاب، وترك السيَّارة في زقاقٍ مظلم، بعدما مسح عن المقود والكرسيّ كلّ أثر، وأضرم النار فيها زيادةً في الاحتياط.

إنَّها ليلةٌ صيفيَّةٌ بيّنة، بل ليلةٌ من ليالي الرمضاء، وقد اكتشف بْلِيك، مذهولاً، في جريدةٍ أنَّ تاريخ اليوم 24 يونيو، فألفى الحرارة على الأقلِّ منطقيَّة. في مقهى إنترنت 24/24 بمنهاتن، أجرى بحثًا سريعًا في أخبار الشهر الأخير. فعلم أنَّ شخصًا يُدعى فرانك ستون، قد قُتل يوم 21 مارس، في كوغو؛ لقد نفَّذَ أحدُهم عقدَه. أراد الاطِّلاع على حساباته البنكيَّة السرِّيَّة، لكنَّ كلمات السرّ قد غُيِّرَت.

دخل إلى صفحة مطعمه الباريسيّ على الفايسبوك، ثم صفحة فلورا. في صورةٍ، نُشرت يوم 20 يونيو، رجلٌ يشبهه شبهًا مدوّخًا، يحمل على ركبتيْه ابنتَه، وعلى جبينه عصابة، وقد علَّقت فلورا على الصورة: «البونيّ، المفترسُ الشرس». جسّ جبينَه: لا ندبة أو ورمًا دمويًّا. وكان بْلِيك لوهلةٍ قد افترض تفسيرًا تافهًا ومتهافتًا، إصابتَه بنسيانٍ مرضيّ. فرضيَّةٌ لم تعد الآن مقبولة.

كعادته، كان عمليًّا. ينبغي أن يجد قواعدَه: استقلَّ تاكسي إلى مطار جون كينيدي، واشترى بنقودٍ كاش، وبهويَّةٍ جديدة تذكرةً على متن الطائرة الأولى نحو أوروبا. نيويورك - بروكسيل تُقلع في السادسة والربع صباحًا. في التاسعة مساءً من يوم السبت، سيكون قد حطَّ على التراب الأوروبيّ، ومن بروكسيل إلى باريس ينطلق باصٌ كلَّ ساعة. أمام بْلِيك ساعاتٌ لينام، أو ليفهم، أو على الأقلِّ ليفكِّر.

سبعة استجوابات

مقتطفات من استجواب دافيد ماركل

درجة السرِّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجوابٌ قام به: الضابط شارل وودورث، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنيَّة.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 12:00 / المكان: قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، الجيش الأميركيّ.

الاسم العائليّ: ماركل / الاسم الشخصيّ: داڤيد برنارد/ الرمز: جون/ تاريخ الميلاد: 12/01/1973 (48 سنة)/ الجنسيَّة: أميركيّ/ الموقع ضمن الطاقم: قائد الطائرة/ المقعد: مقعد القيادة 1.

الضابط ش و: اليوم 2، منتصف الليل. مرحبًا أيُّها القائد ماركل، أنا الضابط شارل وودوورث، من قيادة العمليَّات الخاصَّة، جيش الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. أنت داڤيد ماركل، المولود يوم 12 يناير 1973، في شيكاغو، بولاية إيلينوي. بعد موافقتك، كلّ حديثنا مسجَّلٌ، ومتابعٌ من طرف وكالة الأمن القوميّ.

د. ب. م: حسنًا. لقد وُلدتُ في بيوريان وليس في شيكاغو.

الضابط ش و: شكرًا على هذا التصحيح. بدأت مسارك المهنيّ لدى دِلتا آيروايز سنة 1997، والتحقت بالخطوط الفرنسيَّة في مارس 2003. أمضيت ثلاث سنواتٍ في الرحلات القصيرة، على متن طائرات إيرباص 'A319 / 320 /321، ثم انتقلت إلى الرحلات الطويلة على متن 340/A330، والآن تقودُ طائرة البوينغ B787. صحيح؟

د ب. م: نعم.

الضابط ش و: قائد مارك، هل نستطيع فضلاً العودةَ إلى موضوع الرحلة الأخيرة، فتصف لنا السحبَ الركاميَّة، وتحكي لنا ما وقع أثناء المطبَّات الهوائيَّة؟

د ب. م: حوالى الساعة 16 و20 د بتوقيت نيويورك، جنوبَ نوفا سكوتشا، اضطررنا إلى عبور سحابٍ ركاميٍّ لم يكن مُعلنًا عنه على خارطة الطقس، وحشٌ، يمتدّ على جبهةٍ عريضة. وكانت ذروته ترتفع حتى 15000، وهذا أمرٌ غير مألوفٍ في شهر مارس. هوينا - في تقديري - بمقدارِ ألف متر، بزاوية انحراف 25 درجة على الأقلّ. اصطدمنا بجدارٍ من البرَد، استعدنا التوازن، وبعد خمس دقائق أو ستّ خرجنا من السحاب الركاميّ إلى سماءٍ صافية.

الضابط ش و: حين كنت في بيوريا، هل درست في المدرسة الابتدائيَّة؟

د ب. م: عفوًا؟

الضابط ش و: أجِب عن السؤال رجاءً يا قائد ماركل. هل تذكر اسم المدرسة الابتدائيَّة؟

د ب. م: مدرسة كيلار الابتدائيَّة. هل ستظلُّ تطالعُ لوحك الإلكترونيّ طيلة الوقت؟

الضابط ش و: إنَّه البروتوكول: هذه الأسئلة تتَّخذ عمدًا طابع الشخصيَّة. ويتمّ التحقُّق من أجوبتك مباشرةً. هل تذكر اسم مدرِّسك؟

د ب. م: نتحدَّث عن فترةٍ قبل أربعين عامًا. آه... بلى مدام براتشيت.

الضابط ش و: شكرًا يا قائد. [...] في أوقات فراغك، هل تمارس الرسم، أو الموسيقى؟

د ب. م: لا.

الضابط ش و: عند خروجكم من السحابة، هل شعرت باضطرابٍ، بألمٍ؟

د ب. م: لا.

الضابط ش و: هل تسمع في أذنك أصواتًا متواصلة، ممتعةً، منغَّمة؟

د ب. م: لا.

الضابط ش و: هل تشعر بآلام في الرأسِ، بشقيقةٍ؟

د ب. م: لا.

الضابط ش و: تهيّجٌ في العينيْن، أو التهاب في الجيوب الأنفيَّة؟

د ب. م: نعم، يحدث لي ذلك. أيّ أسئلةٍ هذه؟

الضابط ش و: أنا أتبع البروتوكول فقط، يا قائد ماركل. هل تشعر بحكَّةٍ أو حروقٍ في الوجه؟

د ب. م: لا.

الضابط ش و: هل تعرَّفت على المرأة الشابَّة في الصورة التي وصلتني توًّا، والتي تظهر أمامك على الشاشة؟

د ب. م: يبدو لي ذلك.

الضابط ش و: هل تستطيع أن تخبرني من تكون؟

د ب. م: أظنّ أنَّها مدام براتشيت...

الضابط ش و: إنّها باميلا بريتشيت، وليس براتشيت، منذ أربعين سنة. عمرها اليوم 84 عامًا. وما تزال تقطن ببيوريا.

د ب. م: أريد لقاء رئيسك. ومكالمة زوجتي، لا بدّ أنَّها تموت قلقًا.

الضابط ش و: قريبًا سيتسنَّى لك ذلك يا قائد ماركل. هل قمتَ مؤخَّرًا بفحوصٍ طبِّيَّة؟

[...]

نهاية الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 43:00.

*

مقتطفات من استجواب أندري فانييه

درجة السرّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجوابٌ قام به: الملازم تيري كلاين، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنيَّة.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 07:10/ المكان: قاعدة ماغواير الجوّيَّة، الجيش الأميركيّ

الاسم العائليّ: فانييه/ الاسم الشخصيّ: أندري فريدريك / الرمز: جون/ تاريخ الميلاد: 13/04/1958 (63 سنة) / الجنسيَّة: فرنسيّ / الموقع بين الركَّاب: المقصورة 2 الدرجة الاقتصاديَّة / المقعد: 02k.

الضابط ت ك: اليوم 2، السابعة وعشرة دقائق. مرحبًا، أنا الضابط تيري كلاين، من قيادة العمليَّات الخاصَّة، بالجيش الأميركيّ. أنت السيِّد أندري فانييه، المولود يوم 13 أبريل 1958، في باريس؟

أ ف. ف: نعم.

الضابط ت ك: سيِّد أندري، لأسبابٍ أمنيَّةٍ أُسجِّلُ حديثَنا.

أ ف. ف: ينبغي أن أُعلِمَ شريكي. لدينا ورشٌ في نيويورك. ينبغي أن أُعلِمَه باحتجازي هنا.

الضابط ت ك: لا أستطيع أن أضمن لك أيّ شيءٍ الآن يا سيِّد فانييه.

أ ف. ف: حسنٌ إذن، في هذه الحال، أصرُّ على أن تتَّصلوا برصيف أورساي.

الضابط ت ك: رصيف ماذا يا سيِّد فانييه؟

أ ف. ف: وزير الشؤون الخارجيَّة. واسأل رئيسك في قيادة العمليَّات الخاصَّة، لا بدَّ أنَّه يعرف أرمون مِلوا.

الضابط ت ك: سأبلِّغُ المعلومةَ. هل تستطيع أن تصف لي كيف مرَّت الرحلة، وتُحدِّثني عن المطبَّات...؟

[...]

نهاية الحوار يوم 25/06/2021 الساعة: 25:07

*

مقتطفات من استجواب صوفيا كليفمان

درجة السرّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجوابٌ قام به: الملازم ميري تاما، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنيَّة.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 45:08 / المكان: قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، الجيش الأميركيّ.

الاسم العائليّ: كليفمان/ الاسم الشخصيّ: صوفيا تايلر / الرمز: جون/ تاريخ الميلاد: 13/05/2014 (7 سنوات) / الجنسيَّة: أميركيَّة / الموقع بين الركَّاب: المقصورة 1 الدرجة الاقتصاديَّة / المقعد: F 3.

الضابط م ت: اليوم 2، الساعة التاسعة إلاَّ ربع صباحًا. صباح الخير يا صوفيا، اسمي ميري، وأنا ضابطة في قوَّات الأمن. هل أنتِ بخير؟

ص ت. ك: نعم، يا سيِّدتي.

الضابط م ت: تستطيعين مناداتي باسمي، ميري. هل نمتِ قليلاً؟ هل أفطرتِ؟

ص ت. ك: نعم.

الضابط م ت: ينبغي أن تأكلي جيِّدًا. أمس خُضتِ سفرًا مُتعبًا. سأسألك بعض الأسئلة، وسأدوِّن إجاباتك كلّها على هذا اللَّوح الموجود أمامي. وسأسجِّل حوارنا كلّه. أنت موافقة يا صوفيا؟

ص ت. ك: هل قمتُ بشيءٍ سيِّء؟

الضابط م ت: كلاَّ. اطمئنِّي. وبعد حوارنا، سنذهب معًا لنلعب في الألعاب التي أقمناها أمس. تعلمين أنَّكم هنا نحو ثلاثين طفلاً. ويمكنك أن تشاهدي رسومًا متحرِّكة. اتَّفقنا؟

ص ت. ك: نعم. هل أستطيع اللعب في جهاز آيباد؟ لديَّ واحدٌ، لكنَّهم أخذوه منِّي في الطائرة.

الضابط م ت: سنُعيده إليكِ قريبًا. كم سنّكِ يا صوفيا؟

ص ت. ك: أنا في السادسة من عمري، وبعد شهريْن أصير في السابعة.

الضابط م ت: أوه، هذا جيّد. وفي أيّ يومٍ تحديدًا؟

ص ت. ك: 13 مايو.

الضابط م ت: ويوم 13 مايو سيكون بعد شهريْن؟

ص ت. ك: نعم.

الضابط م ت: أيّ هديَّةٍ تريدين في عيد ميلادك؟

ص ت. ك: ضفدعةٌ أخرى. كي لا تشعر بيتي بالوحدة.

الضابط م ت: من هي بيتي؟

ص ت. ك: ضفدعتي. إنَّها تنتظرني في المنزل.

الضابط م ت: سأُريك صورةً التقطتها أمُّك، هل تتعرَّفين على منزلكم فيها؟

ص ت. ك: نعم...

الضابط م ت: هل تستطيعين أن تقولي لي من هؤلاء في الصورة؟

ص ت. ك: إنَّهم أصدقائي، يدرسون معي في المدرسة، هذه جيني، وهذا أندرو، وسارة...

الضابط م ت: نعم يا صوفيا. ترينَ أنَّني أدوِّن كلّ ما تقولينه لي، إنَّه أمرٌ مهمّ. هذا حفل عيد ميلاد، فهل تستطيعين عدَّ الشمعاتِ على التورتة؟

ص ت. ك: نعم... هناك سبع شمعات.

الضابط م ت: شكرًا يا صوفيا. لا بدَّ أنَّ قلبك آلمك كثيرًا، في الطائرة؟

ص ت. ك: أوه، نعم. كانت الطائرة تهتزّ بشدَّة.

الضابط م ت: هل ينتابك الانطباع أحيانًا بأنَّك تسمعين موسيقى؟

ص ت. ك: لا يا سيِّدتي.

الضابط م ت: تستطيعين أن تناديني ميرين يا صوفيا. هل تشعرين أحيانًا بألمٍ في الرأس؟

ص ت. ك: لا. ليس كثيرًا.

الضابط م ت: ولا بوخزٍ في العينيْن.

ص ت. ك: كلاَّ، ولا ذلك.

الضابط م ت: خيرٌ إذن. ولا تشعرين بحكَّة في وجهك، عند الخدَّيْن أو الجبين؟

ص ت. ك: لا.

الضابط م ت: تسافرين مع أمّك، وأخيك الصغير ليام؟

ص ت. ك: إنَّه أخي الكبير.

الضابط م ت: نعم، عذرًا، لقد أخطأت. وبابا أليس معكم؟

ص ت. ك: لا. لقد بقي في أوروبا.

الضابط م ت: هل أمضيتِ عطلةً ممتعةً في أوروبا؟

ص ت. ك: نعم. لم أقم بشيءٍ سيّء؟

الضابط م ت: كلاَّ يا صوفيا، لم تقومي بأيِّ سوء. بابا في الجيش، أليس كذلك؟

ص ت. ك: نعم. هو أيضًا لم يقم بسوء؟

الضابط م ت: كلاَّ يا صوفيا. لا تقلقي. لا تبكي. خذي هذا المنديل. لا داعي للقلق، هل تريدين أن أنادي على ماما لكي تأتي وتشاركنا الحديث؟

ص ت. ك: لا.

الضابط م ت: انظري، لقد حملت معي أقلام لبَّادٍ وأوراقًا. هل تحبّين الرسم يا صوفيا؟ هل ترسمين لي رسمةً؟

ص ت. ك: ماذا أرسم؟

الضابط م ت: ارسمي ما شئت يا صوفيا.

انقطاع الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 02:09

استئناف الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 09:09

الضابط م ت: شكرًا كثيرًا يا صوفيا، إنَّه رسمٌ جميل. رسمتِ كلَّ شيءٍ بالأسود. هل انتبهتِ إلى وجود أقلامٍ بألوانٍ أخرى؟

ص ت. ك: نعم.

الضابط م ت: من هذا الرجل الضخمُ؟

ص ت. ك: بابا.

الضابط م ت: وهذه، بجانبه؟

ص. ت. ك: أنا.

الضابط م. ت: أنت مخربشةٌ تمامًا في الرسم. لِمَ؟

ص ت. ك: (صمت)

الضابط م ت: هذا فمك؟

ص ت. ك: (هزَّةُ رأسٍ موافقة).

الضابط م ت: وأمّك، ليست هنا؟

ص ت. ك: لا.

الضابط م ت: هل تحدِّثينني أكثر عن رسمك يا صوفيا. سأطلب من امرأةٍ أخرى أن تحضر، لتسمع معي، هل توافقين يا صوفيا؟

ص ت. ك: نعم [...]

نهاية الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 19:09:

*

مقتطفات من استجواب جوانا وودز

درجة السرِّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجواب قام به: الملازم داميان هبستاين، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنيَّة.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 23:07 / المكان: قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، الجيش الأميركيّ

الاسم العائليّ: وودز/ الاسم الشخصيّ: جوانا ساره / الرمز: جون/ تاريخ الميلاد: 04/06/1987 (34 سنة) / الجنسيَّة: أميركيَّة / الموقع بين الركَّاب: مقصورة الدرجة الأولى/ المقعد: 2 D.

الضابط د هـ: اليوم 2، الساعة السابعة وثلاث وعشرون دقيقة. صباح الخير، مدام وودز، أنا الملازم داميان هبستاين، من قيادة العمليَّات الخاصَّة، الجيش الأميركيّ. لقاؤنا مسجَّلٌ بعد موافقتك.

ج س. و: وأنا لم أعطِكم أيّ موافقة.

الضابط د هـ: سيِّدتي، إنَّ رفض التعاون في مسألةٍ تمسّ الأمن القوميّ، يمكن أن يُنظر إليه باعتباره شبهة. أنت السيِّدة جوانا وودز، المولودة يوم 4 يونيو 1987، في بالتيمور؟

ج س. و: حضرة الملازم هبستاين، أنا محميَّةٌ بالتعديل القانونيّ رقم 4 الذي يمنع أيّ احتجازٍ قسريّ. وأريد أن أتَّصل بمكتبي.

الضابط د هـ: أؤكِّد لك أنَّ الوضعيَّة تبرِّر تقييد حرِّيَّة التنقُّل التي فرضناها عليكم موقَّتًا.

ج س. و: حضرة الملازم هبستاين لم يوقِّع أيّ قاضٍ مذكِّرة احتجاز، فإن كانت لديكم مذكِّرة أروني إيَّاها. لا يمكنكم احتجازنا على هذا النحو. هذا ما ينصّ عليه قانون المثول أمام القاضي.

الضابط د هـ: أتفهَّم يا سيِّدة وودز، لكنْ كلّ شيءٍ سيتوضَّحُ في الساعات القليلة القادمة.

ج س. و: أنا أجمع العناصر اللازمة لرفع دعوى قضائيَّة فدراليَّة، أو ربَّما دوليَّة. سبعة وأربعون راكبًا، حتى اللحظة، قبلوا أن يمثِّلَهم مكتبي...

الضابط د هـ: هذا حقّك. هل لي أن أسألك بعض الأسئلة يا سيِّدة وودز!

ج س. و: كلاَّ، لا أظنّ. أريد مقابلة رئيسك [...]

نهاية الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 27:07

*

مقتطفات من استجواب لوسي بوغارت

درجة السرِّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجوابٌ قام به: الملازم فرنشسكا كارو، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنيَّة.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 23:07 / المكان: قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، الجيش الأميركيّ

الاسم العائليّ: بوغارت / الاسم الشخصيّ: لوسي / الرمز: جون / تاريخ الميلاد: 22/01/1989 (32 سنة) / الجنسيَّة: فرنسيَّة / الموقع بين الركَّاب: مقصورة 2 الدرجة الاقتصاديَّة / المقعد: K 03.

الضابط ف س: اليوم 2، الساعة السابعة واثنتان وخمسون دقيقة. صباح الخير، أنا الضابط فرنشسكا كارو، من قيادة العمليَّات الخاصَّة، الجيش الأميركيّ. هل تحتاجين مترجمًا يا مدام بوغارت.

ل. ب: لا.

الضابط ف س: سيِّدة بوغارت، حوارنا مسجَّلٌ لدواعٍ أمنيَّة، هل تفهمين ما أقول؟

ل. ب: أنا أتحدَّث الإنجليزيَّة، لقد أخبرتك بذلك.

الضابط ف س: أنتِ لوسي بوغارت، المولودة يوم 22 يناير في ليون، أليس كذلك؟

ل. ب: أين؟ كلاَّ. ليس ليون. في مونروي.

الضابط ف س: شكرًا على هذا التصحيح. ما أسباب تواجدك على الأراضي الأميركيَّة يا سيِّدة بوغارت؟

ل. ب: لأسبابٍ شخصيَّة... سيِّدتي، عندي طفلٌ في العاشرة من عمره، ينبغي أن أتَّصل به. لقد رفضوا أن يُعيدوا إليَّ هاتفي.

الضابط ف س: أنا آسفة، قريبًا جدًّا سيُسمح لك بالتواصل معه.

ل. ب: كان عليَّ أن أتَّصل به منذ أمس. لا بدَّ أنَّه قلق. هل لديك أطفال يا سيِّدتي؟

الضابط ف س: لا تنفعلي، يا سيِّدة بوغارت.

ل. ب: لا أحد يتواصل معنا، ويشرح لنا ما يجري. نحن محتجزون منذ ساعات...

الضابط ف س: ينبغي أن أطرح عليك عددًا من الأسئلة.

ل. ب: عِدِيني أن تتَّصلي بلُوِّي. هذا الرقم.

الضابط ف س: نعم يا سيِّدتي، هل تستطيعين أن تصفي لي سفرك، وتُحدِّثيني عن المطبَّات؟

[...]

نهاية الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 59:07

*

مقتطفات من استجواب ڤيكتور ميزل

درجة السرّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجوابٌ قام به: فريدريك كنيث وايت، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنية.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 20:08 / المكان: قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، الجيش الأميركيّ

الاسم العائليّ: ميزل / الاسم الشخصيّ: ڤيكتور سيرج / الرمز: جون/ تاريخ الميلاد: 03/06/1977 (44 سنة) / الجنسيَّة: فرنسيَّة / الموقع بين الركَّاب: مقصورة 2 الدرجة الاقتصاديَّة / المقعد: L 08.

الضابط ف ك و: اليوم 2، الساعة الثامنة وعشرون دقيقة. سيِّد ميزل، أنا الضابط فرديريك كينيث وايت، من قيادة العمليَّات الخاصَّة، الجيش الأميركيّ. لدواعٍ أمنيَّة، نسجِّلُ هذا الحوار، بموافقتك. أنت ڤيكتور سيرج ميزل، المولود يوم 3 يونيو سنة 1977، بِـ لوريون في فرنسا؟

ف س. م: وُلدت في ليل، وليس في لوريون.

الضابط ف ك و: شكرًا على هذا التصحيح، سيِّد ميزل.

ف س. م: هل لك أن تشرح لي ما يجري؟

الضابط ف ك و: أنا آسف. ما أسبابُ قدومك إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة؟

ف س. م: أتيت أستلم جائزةً عن ترجمتي رواية.

الضابط ف ك و: أنت مترجم؟ أرى أنَّك مؤلِّفٌ.

ف س. م: أنا... أكتب أيضًا روايات، وقصصًا. وعلى أيِّ حالٍ، الترجمةُ تعتبر أيضًا تأليفًا، المترجمون مؤلِّفون. المهمّ... لمَ تسألني هذه الأسئلة؟

الضابط ف ك و: هل تستطيع أن تصف لي رحلتك، وخاصَّةً المطبَّات؟

ف س. م: غاصت الطائرة، واهتزَّت بنا اهتزازًا، وكان الضجيج مرعبًا، وظننّا جميعًا أنَّنا هالكون، ثم فجأةً انتهى كلّ شيء. وهذا كلّ ما في الأمر.

الضابط ف ك و: هل تشتغل على كتابٍ ما في هاته الفترة؟

ف س. م: أترجم رواية فانتازيا لمؤلِّفٍ أميركيّ، قصَّة مصَّاصي دماء، موجَّهة لليافعين...

الضابط ف ك و: وهل تشتغل على كتاب، أكثر حميميَّةً بالنسبة إليك، كتابًا تؤلِّفُه أنت، كتابًا بعنوان «الخلل»؟

ف س. م: الخلل؟ كلاَّ. لِمَ هذا السؤال؟

الضابط ف ك و: سيِّد ميزل، هل تمارس الرسم أو الموسيقى؟

ف س. م: لا.

الضابط ف ك و: هل تستشعرُ أصواتًا متواصلة، ممتعة، منغَّمة؟

ف س. م: لا.

الضابط ف ك و: هل تشعر بآلام رأسٍ، بشقيقة؟

ف س. م: لا.

الضابط ف ك و: تهيُّجٌ في العينيْن، أو التهابٌ في الجيوب الأنفيَّة؟

ف س. م: أنت... تخادعني! هل تظنُّ نفسك في لقاءٍ مع النوع الثالث؟

الضابط ف ك و: لا أفهم يا سيِّد ميزل.

ف س. م: لقد شاهدتُ فيلم سبلبيرغ عشرينَ مرَّةً. أنا أحفظُه عن ظهر قلب: أنت تطرح عليَّ الأسئلة التي يطرحها فرنسوا تروفو على ريشارد دريفوس، حرفيًّا تقريبًا. من الأبله الذي حرَّر هذه الاستمارة؟

الضابط ف ك و: لا أدري عمَّا تتحدَّث. إنَّه البروتوكول المعتمد من طرف وزارة الدفاع، في الحالات المماثلة.

ف س. م: أيّ حالات؟ هل تظنّني قد التقيتُ بكائناتٍ فضائيَّة؟ والآن، هل ستسألني عمَّا إذا كنتُ أعاني من التهاباتٍ، أو من ضربات شمسٍ على مستوى الخدَّيْن والجبهة؟

الضابط ف ك و: إبه... نعم... وإذن، هل تشعر بحكَّةٍ أو التهاباتٍ على مستوى الوجه؟ [...]

نهاية الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 53:08

*

مقتطفات من استجواب فيمي أحمد كادونا، وشُهرتُه سْلِيم بوي

درجة السرِّيَّة: سرّ - دفاعيّ / البروتوكول 42

استجوابٌ قام به: شارل وودوورث، قطاع العمليَّات النفسيَّة، مركز العمليَّات الأمنيَّة.

التاريخ: 25/06/2021 الساعة 08:09 / المكان: قاعدة ماغواير الجوِّيَّة، الجيش الأميركيّ

الاسم العائليّ: كادونا / الاسم الشخصيّ: فيمي أحمد / الرمز: جون / تاريخ الميلاد: 19/11/1995 (25 سنة) / الجنسيَّة: نيجيريَّة / الموقع بين الركَّاب: مقصورة 2 الدرجة الاقتصاديَّة/ المقعد: N 04.

الضابط ش و: اليوم 2، الساعة التاسعة وثماني دقائق. أنا الضابط شارل وودوورث، قيادة العمليَّات الخاصَّة، الجيش الأميركيّ. أنت فيمي أحمد كادونا، وُلدتَ يوم 19 نوفمبر 1995، في إبادان، بنيجيريا.

ف أ. ك: نعم. في لاغوس. وليس إبادان.

الضابط ش و: ما سبب قدومك إلى أراضي الولايات المتَّحدة الأميركيَّة يا سيِّد كادونا؟

ف أ. ك: الجميع ينادونني سْلِيم بوي. أنا ليدر في فرقة غناء. باقي الموسيقيِّين وصلوا أمس. نقدِّم حفلاً في نيويورك غدًا. لا يمكن أن تحتجزونني هكذا.

الضابط ش و: أتفهَّمك يا سيِّد كادونا.

ف أ. ك: سْلِيم بوي...

الضابط ش و: متى موعدُ حفلك يا سْلِيم بوي؟

ف أ. ك: غدًا، قلت لك. في العاشرة ليلاً، في مِركوري لانج.

الضابط ش و: بمعنى؟ تاريخ الحفل...

ف أ. ك: 12 مارس...

الضابط ش و: سأُسمعك أغنيةً: Yaba Girls. ضع سمَّاعات الرأس، فضلاً.

انقطاع الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 02:09

استئناف الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 09:09

الضابط ش و: هل تعرف هذه الأغنية؟

ف أ. ك: كلاَّ. أغنية لا بأس بها Yaba Girls؟ يابا، حيٌّ من أحياء لاغوس. هل هذا فريقٌ نيجيريّ؟ غريبٌ. لا تذكِّرني هذه الموسيقى بأيّ شيء.

الضابط ش و: سيِّد كادونا، هل تسمع بشكلٍ متكرِّر أصواتًا ممتعة، منغَّمة؟

ف أ. ك: طبعًا، أنا موسيقيّ [...]

نهاية الحوار يوم: 25/06/2021 الساعة: 07:10

ديكارت 0.2

الجمعة 25 يونيو 2021

قاعة الفرضيَّات، قاعدة ماغواير الجوِّيَّة

إنَّ المتعبين ميَّالون إلى الشجار. أمَّا المنهكون فأقلُّ ميلاً إليه. وكانت الساعة قد بلغت السادسة حين استقرَّ أدريان، وتينا، وخبراؤهم العشرون الأوائل، في صالةٍ من صالات القيادة. وواصل الخبراء تدفُّقهم على قاعدة ماغواير، على إيقاع الهيلوكوبترات، فما كادت الساعة تبلغ السابعة، حتى بلغَ عددُهم أربعين. وُضعت الأرائك، والسبُّورات التفاعليَّة، وجهَّزَ أحد الجنود ماكينة الإسبريسو.

دقيقةٌ كانت كافية لعرضِ الوضع. تلت العرضَ عشرُ دقائق من الأسئلة، اكتفى أدريان وتينا بالإجابة عنها بتكرار اللامعقول: إنَّ هؤلاء الناس في الحظيرة، هم أنفسُهم الناسُ الذين حطَّت بهم الطائرة نفسها منذ ستَّة أيَّامٍ. ويلخِّصُ الوضعيَّةَ الحوارُ الذي دار بين أدريان ميلر وريكاردو بِرتوني - المرشَّح لنوبل 2021 في الفيزياء عن أعماله في المادَّة السوداء: - أنت تسخر منَّا يا سيِّد ميلر؟

- ليتني كذلك.

في التاسعة صباحًا، بينما تينا وانغ تواصل إدارة الاجتماعات بين التخصُّصات المتعدِّدة، في صالة الفرضيَّات، قصَدَ أدريان إلى صالة العمليَّات. رافقته ميريديث، وكذلك شخصٌ طويلٌ رشيقٌ أشيبُ الشعر، بعينيْن زرقاويْن زرقةَ الرصاص. أشار سيلفريا إلى شاشةِ لقاءاتٍ عن بعدٍ، تظهرُ فيها وجوهٌ معروفة: - بروفسور ميلر، إنَّ رئيس الولايات المتَّحدة الأميركيَّة معنا على المباشر، من ريو، وكذلك وزير الشؤون الخارجيَّة ووزير الأمن الوطنيّ.

سعل أدريان كاشطًا حنجرته، ثم بدأ: - إنَّها ظاهرةٌ خارقة يا سيِّدي الرئيس، لكنْ كما يقول آرثر ش. كلارك، فإنَّ كلّ تكنولوجيا فائقة التطوُّر سيصعب تمييزُها عن السحر. لقد توصَّلنا إلى

عشر فرضيَّات، سبعٌ منها عبارة عن مُزح، وثلاثٌ شدَّت انتباهنا، وواحدةٌ من الثلاث يميل إليها أغلبنا. لنبدأ بالأبسط.

علّق سيلفريا:

- فضلاً.

واصل أدريان الكلام: - فرضيَّة «الثقب الدوديّ»، وسأفسح لزميلتي ميريديث هاربر المجالَ لتشرحَها.

تناولت ميريديث من على المكتب قلم رصاصٍ وورقةً، طوَتها إلى اثنيْن. انتابها الانطباع بأنَّها تؤدِّي مشهدًا بيداغوجيًّا في فيلمٍ متواضع الميزانيَّة يحكي عن أحداثٍ مستقبليَّة، لكنْ ما همّها ذلك.

- شكرًا يا أدريان. لنفترض أنَّ بإمكان الزمان أن يُطوى كورقة... لكنَّه يطوى وفق بُعدٍ لا سبيل لنا إليه، بُعدٍ آخر غير الأبعاد الثلاثة التي نعرفها. إن كان كونُنا محكومًا بنظريَّة الأوتار، فإنَّ الأمر يتعلَّق بفضاءٍ فائقٍ، فضاءٍ ينطوي على عشرة أبعادٍ، أو أحد عشر بعدًا، أو ستَّةٍ وعشرين. في هذا النموذج، تكون كلّ جزيئةٍ أوَّليَّةٍ عبارةً عن وُتَيْرٍ يرنُّ برنينٍ مختلفٍ عن غيره من الأوتار، وُتَيرٍ أبعادُه تلتفُّ حولَ نفسِها. كلامي مفهوم؟...

فغر الرئيس الأميركيّ فاه، فبدا عظيم الشبه بسمكة هامور تضع على رأسِها باروكةً شقراءَ.

- وحين يُطوى الفضاء، نُحدثُ فيه «ثُقبًا»...

خرقت ميريديث هاربر الورقة بسنِّ القلم، ثم أدخلت سبَّابتها في الثقب...

- ونستطيع بسهولةٍ أن نمرّ من نقطةٍ ما في فضائنا الثلاثيّ الأبعاد، إلى نقطةٍ أخرى. وهذا ما نسمِّيه بالجِسر آينشتاين - روزين، ثقب لورينز الدوديّ بكتلةٍ سالبة...

قال الرئيس الأميركيّ وهو يقطِّب حاجبيْه: - فهمت...

- وهذا لا ينتهك قوانين الفيزياء الكلاسيكيَّة. لا نتجاوز السرعة القصوى للضوء التي يفرضها فضاؤنا الآينشتاينيّ. لكن عن طريق فتح دوَّامةٍ في الفضاء الفائق، نستطيع أن نسافر بين المجرَّات في جزءٍ من الثانية.

قال أدريان، إذ لاحظَ أنَّ ميريديث تبالغ في التجريد: - إنَّها فكرةٌ شائعة في الروايات. في رواية كثيب، لفرانك هربرت، وغيرها. كذلك أوردها نولان في فيلم أنترستيلر. أو مع المركبة يو إس إس إنتربرايز ضمن سلسلة ستار تريك.

صاح الرئيس فجأةً:

- ستار تريك! نعم، لقد شاهدته.

واصلت ميريديث:

- عادةً - أقصد مجرَّد تعبير ـــــ، نعبُر الزمان والمكان في اللحظة نفسها، ولا سببَ لأن يتضاعف أيّ شيء. لكنَّنا في حالتنا هذه نشهد تضاعف الطائرة، إذ صارت طائرتيْن...

تحمَّس ميلر:

- كأنَّما المركبة يو إس إس أنتربريز، ظهرت فجأةً في نقطتيْن من المكان، وظهر معها قبطانان كيرك، ودكتوران سبوك، و...

قاطعه سيلفريا:

- شكرًا يا بروفسور ميلر، لقد فهمنا... ماذا عن الفرضيَّة الثانية؟

- نُسمِّيها فرضيَّة «آلة النسخ»، وهي الفرضيَّة التي سنبسطُها مع بريان ميتنيك، من ناسا.

هزَّ ميتنيك رأسَه وعلى وجهه عبوسُ التلميذ المجدّ الذي لا يعبأ أنْ ذكرَه الأستاذ.

واصل ميلر:

- كما تعلمون، فإنَّ عصرَ الطباعة الحيويَّة قد بدأ...

قال سيلفريا مستبقًا انزعاجَ الرئيسِ، وراضيًا بأن يؤدِّي دورَ كانديد: - عفوًا؟ حاول أن توضِّح وتبسِّط أكثر...

- نطبَعُ المادَّة الحيويَّة بتقنيَّة الطباعة ثلاثيَّة الأبعاد. اليوم، صرنا في ساعةٍ من الزمن، نصنع قلبًا بشريًّا في حجم فأر. في غضون عشر سنواتٍ، تضاعفت دقَّة الطبع، وكذا سرعتُه، وأيضًا حجمُ المطبوع. فإن تتبَّعنا المنحنيات الأُسِّيَّة لكلِّ مجالٍ من تلك المجالات الثلاثة، مع كوننا محافظين...

قاطعه الرئيس: أنا محافظ...

فتساءل ميلر لوهلةٍ ما إذا كانت تلك مزحةً من الرئيس، ثم واصل: - وعليه، بوسعنا، خلال قرنٍ من الزمن، أن نطبع، في جزءٍ من الثانية، شيئًا بحجم هذه الطائرة، طباعةً تحاكي الذرَّةَ دقَّةً. لكن تُطرح ها هنا مسألتان: أوَّلاً، أين كانت الطابعة؟ ثانيًا، من أين أتت الموادّ الأوَّليَّة لصناعة الطائرة والركَّاب؟

تدخَّلت ميريديث:

- لكنَّ هذه الصورة، أقصد صورة الآلة الناسخة، تفترض وجودَ نسخةٍ وأصل. وبالنسبة إلى آلة النسخ الموجودة في مكتبنا، على سبيل المثال، فإنَّ النسخة تخرجُ قبل الأصل...

فكَّر سيلفريا بصوتٍ عالٍ: - فهمت... إنَّ الطائرة «النسخة» قد حطَّت يوم العاشر من مارس الماضي. والطائرة «الأصل» هي التي حطَّت اليوم. لذا ما الداعي إلى التمييز في المعاملة بين أفراد الطائرتيْن، بدعوى أنَّ الطائرة الأولى...

ختمت ميريديث كلامَه: - بدعوى أنَّ الأولى خرجت من «الطابعة» قبل الثانية...

استأنفَ ميلر الكلام: - أريد أن أُثير الفرضيَّة الثالثة. وهي الفرضيَّة التي تحظى بتأييد أغلبيَّة المشاركين، لكنَّها أيضًا الأشدُّ صَدمًا.

على الشاشة، هزَّ الرئيس رأسَه، ثم قطَّب حاجبيْه علامةً على التركيز، وقال: - تقصد أنَّ ما حدث فعلٌ إلٰهيّ؟

أجاب أدريان مندهشًا: - إيه، كلاً يا سيِّدي الرئيس، لا أحد ذكر هذه الفرضيَّة...

مسح سيلفريا جبينَه.

- هيَّا، ابسُط لنا الفرضيَّة الثالثة يا ميلر.

- نُسمِّيها «فرضيَّة بوستروم». أقصد نيك بوستروم، وهو فيلسوف في أوكسفورد، كان قد اقترح في بداية القرن...

زفر الرئيس: - يعني قديمٌ جدًّا...

- بداية القرن الحالي، وتحديدًا سنة 2002. وأترك الكلمة لأرش ويسلي، من جامعة كولومبيا، وهو متخصِّصٌ في المنطق.

دنا الرجل الطويل، ذو الشعر الأشعث، من سبُّورةٍ، ودوَّنَ فيها معادلةً: fsim = (fpfiNi) / (((fpfiNi)+ 1)) ... قبل أن يستدير إلى الشاشة، بابتسامةٍ جذَّابةٍ، وقَدْرٍ من الحماس: - صباح الخير سيِّدي الرئيس. قبل أن أشرح لكم هذه النظريَّة، أودّ أن أتحدَّث قليلاً عن «الواقع». كلّ واقعٍ هو بناءٌ، أو بالأحرى، إعادة بناء. إنَّ دماغنا سجينُ الظلمةِ والصمتِ داخل الجمجمة، ولا سبيل له إلى الانفتاح على العالم، إلاَّ عبر أجهزة الاستشعار التي نمتلكها، أقصدُ العينيْن والأذنيْن والأنف والجلد. كلّ ما نراه، أو نحسّه، يُنقل إليه عبر أربطةٍ كهربائيَّة، هي نقاط الاشتباكات العصبيَّة في جسمنا... أي الخلايا العصبيَّة، يا سيِّدي الرئيس.

- لقد فهمت، شكرًا.

- طبعًا. ثم يعمل الدماغ على بناء الواقع. استنادًا إلى عدد المشابك العصبيَّة في الدماغ، فإنَّه يقوم بنحو عشرة ملايين مليار عمليَّة في الثانية الواحدة. وهو عددٌ أقلّ من ذاك الذي يقوم به حاسوبٌ، لكنَّ الدماغ يقوم بقدرٍ أكبر من عمليَّات الوصل. لكنْ، في غضون سنواتٍ قليلة، سنتمكَّن من محاكاة دماغٍ بشريّ، فيحوز البرنامج الذي سنضعه درجةً من الوعي. لقد تصوَّرَ إريك دريكسلر، وهو مختصٌّ في النانوتكنولوجيا، نظامًا لا يتجاوز حجمُه قطعة سكَّرٍ، قادرًا على محاكاة مائة ألف دماغٍ بشريّ.

قال الرئيس:

- كفَّ عن الإلقاء بهذه المليارات، فأنا لا أكاد أفقه ما تقول، وكذلك عددٌ من رفاقي. واصل العمليَّة التي كنت قد بدأتها.

- حسنًا يا سيّدي الرئيس. أدعوك إلى أن تتخيَّل كائناتٍ خارقةً، يكون ذكاؤها مقارنةً بذكائنا أشبه شيءٍ بذكائنا مقارنةً بذكاء دودة أرض... أحفادُنا على سبيل المثال. ولنتخيَّل أنَّهم يمتلكون حواسيب قويَّة تُمكِّنهم من صنع عالمٍ افتراضيّ، يستعيدون فيه، استعادةً فائقةَ الدقَّةِ، «أسلافَهم»، فيراقبونَهم يتطوَّرون وفقَ مصائرَ مختلفة. بواسطة حاسوبٍ بحجم قمرٍ صغيرٍ نستطيع أن نحاكي، مليارَ مرَّةٍ، تاريخ البشريَّة منذ نشأةِ الإنسان العاقل. وهذه هي فرضيَّة المحاكاة الرقميَّة...

سأله الرئيس بنبرة عدم فهم: - مثلما يحدث في فيلم ماتركس؟

أجاب ويسلي:

- كلاَّ يا سيّدي الرئيس. في ماتركس الآلات هي التي تستغلُّ الطاقة الجسديَّة لأُناسٍ حقيقيّين، لعبيدٍ مقيَّدين من لحمٍ ودم. ولكي تتمكَّن من ذلك، تجعلهم يعيشون في عالمٍ افتراضيّ. أمَّا فرضيَّتُنا نحن، فتقول بعكس ذلك: نحن لسنا كائناتٍ واقعيَّة. نحسبُ أنفُسنا أُناسًا، والحال أنَّنا مجرَّد برامج. برامج متطوِّرة جدًّا، لكنَّها تظلُّ برامج. مثل العميل سميث في ماتركس، يا سيّدي الرئيس. الفرق هو أنَّ العميل سميث يعرف أنَّه برنامج.

قال سيلفريا:

- في هذه الحال، لن أكون أنا الآن أشرب قهوتي جالسًا إلى طاولة؟ ما ندركه، ونشمّه، ونراه... سيكون أيضًا محاكاةً؟ كلّ شيءٍ زائف؟

استأنف ويسلي:

- ذلك لا يغيِّر واقع أنَّك تشرب القهوة جالسًا إلى الطاولة يا سيادة الجنرال، ما سيختلف هو المادَّة التي منها صُنعت القهوة والطاولة. وليس الأمر بالصعب: إنَّ عرض الحزام الحسِّيّ البشريّ الأقصى ليس ببالغ الكِبر: لذلك فإنَّ محاكاة الأصوات والصوَر، والملمس، والروائح لن يتطلَّب جهدًا

يُذكر. حتى بيئتنا نفسها، لا يصعب نسخُها، إذ يتوقَّف ذلك على مستوى التفاصيل: إنَّ «أُناسًا صُنعوا بواسطة المحاكاة» لن يلاحظوا خللاً في بيئتهم الافتراضيَّة، ما داموا فيها، إذ ستكون لهم منازلهم، وسيَّاراتهم، وكلابهم، وحتى حواسيبهم...

همس أدريان:

- مثلما يحدث في سلسلة بلاك ميرور يا سيِّدي الرئيس...

قطَّب الرئيس حاجبيْه، واستأنف ويسلي الكلام: - ثم إنَّنا كلَّما أوغلنا في معرفة الكون بدا لنا مؤسَّسًا على قوانين رياضيَّة.

قاطعه سيلفريا:

- مع احترامي لك يا بروفسور، ألا يمكن أن نبرهن، بالتجربة، أنَّ ما تقوله هراء؟

أجاب ويسلي في مرح: - أخشى ألاَّ.. لو أنَّ الذكاء الاصطناعيّ الذي صنع نسخًا عنَّا، انتبه إلى أنَّ «إنسانًا محاكًى» سينكبُّ على ملاحظة العالم المجهريّ، فلن يكون عليه إلاَّ أن يُزوِّدَه بما يكفي من التفاصيل «المحاكاة». وفي حال حدوث خطأ، يكفي إعادة برمجة وضعيَّات «العقول الافتراضيَّة» التي أمكنها أن تنتبه إلى الخلَل؛ أي بالرجوع ثواني إلى الوراء، بضربٍ من الإلغاء، ثم إعادة المحاكاة بطريقةٍ تجنِّبُ كلَّ مشكل...

انفجر الرئيس غضبًا: - ما تقولُه سخافةٌ. أنا لستُ سوبر ماريو، ولن أُخبر مواطنينا بأنَّهم مجرَّد برامج افتراضيَّة.

- أفهم يا سيِّدي الرئيس. لكنْ، من جهةٍ أخرى، فإنَّ طائرةً تخرج إلى الوجود من العدم، وهي نسخةٌ مطابقةٌ كلّ المطابقة لطائرةٍ أخرى، تحاكيها حتى في أصغر لطخةِ كاتشب، هي أيضًا قصَّةٌ لا يقبلها عقل. هل تسمح لي أن أشرح لك هذه الصيغة التي دوَّنتُها؟

قال الرئيس ساخطًا: - هيَّا. لكن بعجالةٍ.

- سأعرض عليكم الفكرة العامَّة. أريد أن أبيّن لكم أنَّ من المحتمل أن نكون نحن أيضًا جزءًا من هذا الوعي المحاكى. ليس لحضارةٍ تقنيَّةٍ من مآلٍ إلاَّ ثلاثة إمكانات: بالإمكان طبعًا أن

تنطفئ وتنقرض قبل بلوغها مرحلة النضج التكنولوجيّ، وهو ما تسير حضارتُنا نحوَه، بخطًى حثيثة، عبر التلوُّث والاحتباس الحراريّ، والانقراض السادس، إلخ. في رأيي الشخصيّ، سواء كنَّا واقعًا أو محاكاة، فإنَّنا إلى زوال.

هزَّ الرئيس كتفيْه، لكنَّ ويسلي واصل: - ليس هذا موضوعنا. لنفترض أنَّ حضارةً واحدةً، من بين كلّ ألف حضارةٍ، لم تدمِّر نفسَها بنفسها؛ ثم بلغت مرحلةً ما بعد - تقنيَّة، وصارت تمتلك قدرةً على الحساب، ليس بوسعنا تصوُّرُها. ولنتخيَّل بين تلك الحضارات التي لم تدمِّر نفسَها، وتمكَّنت من النجاة، حضارةً واحدةً من بين ألف حضارةٍ، تملَّكتها الرغبة في أن تحاكي «أسلافها» - أو «أندادًا لأسلافها». إذَّاك فإنَّ هذه الحضارة التقنيَّة، من بين مليون حضارةٍ أخرى مثلها، ستستطيع وحدها أن تحاكي نحوَ مليار «حضارةٍ افتراضيَّة». وحين أقول «حضارة افتراضيَّة» فإنَّني أعني في كلِّ مرَّةٍ مئات الآلاف من السنين الافتراضيَّة التي تتعاقب فيها ملايين الأجيال الافتراضيَّة، وتولد مئات المليارات من الكائنات المفكِّرة، هي أيضًا افتراضيَّة. مثلاً، في خمسين ألف عامٍ من الوجود، لم يَدبَّ على الأرض أكثر من مائة مليار إنسان كرومانيون. محاكاة الكرومانيون، وأقصد بهم نحن، إذن، هي مسألةُ قوَّةِ حسابٍ لا أكثر. تفهمونني؟

لم ينظر ويسلي إلى الشاشة حيث الرئيس يرفع عينيْه إلى السماء، وواصل: - المهمّ هو الآتي: إنَّ حضارةً مفرطةً في التقنيَّة تستطيع أن تحاكي من «الحضارات الزائفة» أكثر بكثيرٍ ممَّا يوجد من «الحضارات الحقيقيّة»، ممَّا يعني أنَّنا لو أخذنا اعتباطًا أيّ عقلٍ، عقلي أنا مثلاً أو عقلك، فإنَّ نسبة إمكان أن يكون عقلاً افتراضيًّا هي 999 على 1000، ونسبة أن يكون عقلاً واقعيًّا هي 1 على 1000. ما يعني أنَّ عبارة «أنا أفكِّر إذن أنا موجود» التي ذكرها ديكارت في المقال في المنهج، قد عفا عنها الزمن. لقد صارت العبارة بالأحرى: «أنا أفكِّر، إذن أنا تقريبًا بالتأكيد برنامج». ديكارت 2.0 إن عبَّرنا بالصيغة التي وضعتها عالمة طوبولوجيا معنا في الفريق. هل تتابعني يا سيِّدي الرئيس؟

لم يجب الرئيس. تأمَّله ويسلي فرآه ما يزال محافظًا على هيأته العنيدة الساخطة، فخلص: - ترى يا سيِّدي الرئيس، كنت على اطِّلاع على هذه الفرضيَّة؛ وحتى يومنا هذا، كنت أظنُّ أنَّ ثمَّة إمكانًا واحدًا على عشرة أن نكونَ مجرَّد برنامج في قرصٍ صلب. أمَّا وقد حدث هذا «الخلل»، فقد صرت على شبه يقين من ذلك. وهذا ما يشرح مفارقة فِيرمي: إن لم نكن قد قابلنا قطُّ كائناتٍ

فضائيَّة، فهذا يعني أنَّ وجودَها، غير مبرمجٍ، في نُسختِنا من المحاكاة. لا بل إنَّني أظنُّ أنَّنا نواجه اللحظة اختبارًا. لكي أشرح أكثر أقول إنَّه ربَّما، لأنَّنا بلغنا اليوم مرحلةً نستطيع فيها أن نفكِّر في إمكان أن نكون برامج، فإنَّ المحاكاة تُخضعُنا لهذا الاختبار. يلزمنا إذن أن ننجح في الاختبار، أو على الأقلِّ أن نقدِّم فيه شيئًا جديرًا بالاهتمام.

سأله سيلفريا:

- ولِمَ ذلك؟

- لأنَّنا إن فشلنا، فإنَّ المسؤول عن البرنامج قد يُطفئ كلّ شيء.

الطاولة 14

الجمعة 25 يونيو 2021

الحظيرة ب، قاعدة ماغواير الجوِّيَّة

لقاءٌ مع النوع الثالث، حقًّا؟ حين عاد ڤيكتور من الاستجواب، كان متردِّدًا بين الغضب والضحك. ولمَّا كان المؤلِّفُ يجهل ما يخبِّئه الغدُ، فقد أراد أن يدوِّن، بموضوعيَّةٍ وببرودة أعصاب، في كتالوغٍ طويلٍ، ما يجري في هذه الحظيرة. الحظيرة (hangar) كلمةٌ عجيبة. قريبة من كلمة فَزِع (hagard) أو كلمة صدفة (hasard). أخرج دفتره، وقلمه، وحاول أن يتجرَّد من الضجيج والصيحات، وشرع في تدوين ملاحظاتٍ: استنفادُ مكانٍ غيرِ متوقَّعٍ. كلاَّ، لِمَ السيرُ في ظلِّ بيريك[8]؟ لِمَ لا يستطيع دائمًا الانعتاق من تأثير النصوص، من وصاية مؤلِّفين بعينهم. لمَ حين لا يخشى أن يكون منتحلاً، يصير مجرَّد طفلٍ يحاكي نصًّا؟

- في هدوءٍ دوَّنَ: وضعيَّة الطيران.

«التاريخ: 11 مارس 2021.

في هذه الحظيرة، أشياءٌ كثيرة، مثلاً: نحو مائةٍ من الخِيم المنصوبة، ومستشفى ريفيّ، صفوف من الطاولات الطويلة، ملعبُ كرة سلَّة أُقيمَ على عجلٍ، نحو عشرةٍ من البيوت الجاهزة، مراحيض عموميَّة، حواجز معدنيَّة في صفَّيْن، مركز «استعلامات» - ليس فيه شخصٌ نستعلم منه، مركز «عباداتٍ» تُشير إليه لافتةٌ كُتبت بستِّ لُغاتٍ، أربع نوافير ماء، وأشياء أخرى كثيرة.

الطقس: شديد الحرارة، وشديدة الرطوبة قياسًا إلى الفصل.

محاولةٌ عامَّة لجرد الأشياء الظاهرة بوضوحٍ: أوَّلاً حروف أبجديَّة، من A إلى E على جدارٍ من جدران الحظيرة، حرف H كبير دلالةً على «hôpital» (مستشفى)، كلمتا «Air France»

(على حقائب المضيفات والمضيفين)، وماركاتٌ على ملابس الركَّاب، «US Air Force» على الأرض، «Danger»، «High Voltage» على الصناديق الكهربائيَّة. شعاراتٌ على الجدران «Aim High, Fly-Fight-Win»، «Mors Ab Alto»، شعار سلاح الجوّ الأميركيّ «We're looking for a few good men».

ڤيكتور يكتب، بلا عجلٍ، كتابةً آليَّةً. إذ لمَّا كان قد قرأ الكثير، وترجمَ الكثير، وألفى الكثير من الهراء خلف الأشياء الجميلة، فقد كان يرى أنَّ من الحماقة إضافة هراءٍ آخر إلى هذا العالم. لا يأبه البتَّة بأن يتفجَّر نثرٌ مذهلٌ من مجرَّد «جرَّة قلمه على الصفحة»، ولا يحسب نفسَه «قويًّا أمام الجُملة»، ولا معنى لأن «يغلق جفنيْه لكي تظلّ عيناه متيقّظتيْن»، أو أن يعمد، في هذا المكان الذي لا روح فيه، إلى «مخاتلة العالم، كي يدوّنَ فيه تيهَه الشخصيّ»، ثم إنَّه يحذر الاستعارات. فبالاستعارات، قطعًا، بدأت حربُ طروادة. ويعلم، مع ذلك، أنَّه يكفيه أن يكتبَ جملةً تفوقه ذكاءً، لكي تحوّلَه تلك المعجزةُ إلى كاتب.

يراقب ڤيكتور كلّ أشكال الوجود المتناثرة، كلّ القلق المتحرّك داخل الحظيرة - حقًّا ما أعجبها من كلمة! - التي هي بمثابة علبة بتري[9] هائلة، من غير أن يدريَ أيَّ وجودٍ منها يعيره اهتمامَه. استسلم إلى فتنة الحيوات الأخرى، غير حياته. يريد أن يختار منها واحدةً، وأن يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن المخلوق الذي اختارَه، وأن يتمكَّن من الإقناع بأنَّه اقترب منه كفايةً، بحيث يكتب عنه بأمانةٍ. ثم ينتقل إلى غيره. ثم آخرُ غيره. ثلاث شخصيَّات، أو سبعٌ، أو عشرون؟

كم مرويَّةً متزامنةً يقبلُ القارئُ متابعتك فيها؟

إلى طاولته التي تحمل الرقم 14، يجلس أشخاصٌ آخرونَ، ومن بينهم ربَّانُ الطائرة. يُذكِّرُ الربَّانُ المؤلِّفَ بأبيه. العينان الخضراوان الرماديَّتان نفسهما، والأنف الأقنى نفسه، والفراغ في الشعر من جانبَي الوجه نفسه، الفراغ الذي لا ريب في أنَّه سيكسب المعركة ضدَّ الشعر الرماديّ الكثيف، والجذع المتين نفسه. غريزيًّا مدَّ الكاتبُ يدَه إلى جيبه، وتلمَّس المكعَّب الأحمر الصقيل. كذلك يحتفظ ڤيكتور في محفظته بصورةٍ لأبيه المتوفَّى، صورةٍ استلَّها من ألبومٍ يعود إلى ذلك الزمن الذي كان فيه الناس ما يزالون يحتفظون بصورهم في الألبومات، الزمن الذي لم تقتُل كثرةُ الصُوَرِ الصورةَ. الرجلُ في الصورة، في العشرين من عمره، ابتسامتُه فاتنةٌ ونظرته ثابتة. ذات يومٍ قال

لابنه ضاحكًا: «كنت ما أزال شابًّا أيَّامَ التُقطت لي هذه الصورة، لا أدري متى بدأ كلّ شيءٍ يتداعى». بلى، إنَّ القائد ماركل يشبه، في ضوء الفجر، ذاك الأبَ الذي لا يشبهُه ابنُه ڤيكتور إلاَّ قليلاً.

أمس فقط، كانت بذلته تجرّ عليه سخطَ أشدّ الركَّاب قلقًا، أولئك الذين تطمئنُهم الخطوط الفرنسيَّة؛ أو أشدَّهم توتُّرًا، أولئك الباحثين عن كبش محرقة. لكنَّه الآن لم يعد محطّ عدوانيَّة، إذ لمَّا رأوه جميعًا يشاركهم الكربَ العامَّ، فقد انتهوا إلى الاقتناع بأنَّه لا يحظى بأيِّ معاملةٍ تفضيليَّة، ولا يفوقُهم اطِّلاعًا على أيِّ معلومة. ولكي يؤكِّد لهم ذلك، أو ربَّما فقط طلبًا للراحة، فقد غيَّر ملابس العمل بملابس مدنيَّة. على الأرض، لم يعُد دافيد ماركل السيِّدَ الوحيد بعد الربَّ، إنَّما هو مجرَّدُ شخصٍ ودودٍ يقصدونَه للشكوى، كأنَّه الجنرال دوموريتز وقد تخلَّت عنه فيالقُه، مع التأكيد على أنَّ قائدنا يظلُّ أكثر مدعاةً للودّ من الجنرال المذكور. وعند الصباح، اجتاز هو وعددٌ من الركَّابِ فحوصًا طبِّيَّةً من غير أن يُبيَّنَ لهم السبب.

إلى الطاولة رقم 14، يجلس كذلك الرجلُ الأسود الطويل، ذو العينيْن الجميلتيْن الغامقتيْن المليئتيْن بالشجن. شعره حليقٌ وفقَ أشكالٍ هندسيَّةٍ تشبه زخارف قصر الحمراء. ينطق Johnny بدلاً من journey، وYuwa بدلاً من You are، وvishon بدلاً من vision. إنَّه مغنٍّ، وعازفُ غيتارٍ نيجيريّ. وعلى الرَّغم من أنَّه يُفترض أن يُقدِّمَ حفلاً، في اليوم التالي، في صالةٍ من صالات بروكلين، إلاَّ أنَّه اقتنع بأنْ لا فائدة في الإلحاح، فكفَّ عن الاحتجاج. على أنَّه تمكَّن من استرجاع غيتاره التايلر ذي الإثني عشر وترًا الذي ظلَّ حتى تلك اللحظة حبيسَ خزانة القمرة، وهو ذا الآن يعزف عليه مؤلِّفًا أغنيةً عذبة الإيقاع.

The way you smiled in a dazzling I remember your eyes of yesterday

way الغيتار يردِّد صوتًا فخمًا دائريًّا، والمغنِّي يُرجِّعُ بصوتٍ دافئٍ أجشّ. إنَّه فتى نحيل الجسم، يناسبه اسمُ الشهرة الذي اتَّخذَه. ابتسم لڤيكتور: - منذ مدَّةٍ طويلة لم أغنِّي غناءً صوتيًّا، بلا مؤثِّرات.

دَوزَن وترًا، ثم عاد إلى الغناء: ...But beautiful men in uniform forbid you

سأله ڤيكتور وهو يشير إلى الجنود العسس على الأبواب: - Beautiful men in uniforms?

- أجل. ذلك قطعًا سيكون عنوان أغنيتي.

ثم استأنف الغناء بصوتٍ شبه هامس: The way to the light way to the light way to the light.

ومن أقصى الطاولة تناهت وشوشةٌ، «اسمُك هو عدوّي الوحيد»، وعرف ڤيكتور على الفور أنَّ العبارة لشكسبير. «أنت لست من آل منتيغو، أنتَ أنتَ» إنَّ جولييت كابوليت هنا، وهي صبيَّةٌ يافعة تتمرَّنُ على نصِّها: «ماذا يعني مونتيغو؟ إنَّه ليس يدًا، ولا قدمًا، ولا ذراعًا، ولا وجهًا، ولا جزءًا من أجزاء المرء... أوه! اتَّخذ لنفسك اسمًا آخر! علامَ ينطوي الاسمُ؟ إنَّ ما نسمِّيه وردةً سيضوع بالعطر حتى وإن بُدِّلَ الاسم. وكذلك روميو، وإن لم يعد اسمُه روميو، سيظلُّ محتفظًا بفضائله العزيزة...».

إنَّ أداءها فائقٌ حتى في التردُّد، لا بدَّ أنَّها ستعرف كيف تبكي حين يفرض الموقفُ ذلك. قالت لڤيكتور إنَّ موعدَ اختبار الأداء الأسبوعُ القادم. سيخلون سبيلنا بعد أن نجري الفحوص، إنَّهم يجرون علينا فحوصًا، أليس كذلك؟ لا يمكنهم احتجاز الناس بلا سبب، فهذا بلدٌ حرٌّ، بلدٌ تحكمه القوانين على أيّ حال.

«نعم، بلدٌ تحكمه القوانين»، قالت امرأةٌ دقيقة الملامح، سوداء البشرة، ربطت شعرها إلى الخلف بشريطٍ فضِّيّ. إنَّها المحاميَّة، وقد جمعت إلى الآن خمسين توقيعًا لدعوى جماعيَّة تتضمَّن نحو نصف دستةٍ من الشكاوى، منها الاعتقال التعسُّفي، والاحتجاز القسريّ، ومصادرة الممتلكات بغير قانون، والحرمان من الاتِّصال بمحامٍ لمدَّةٍ تزيد عن ثمانٍ وأربعين ساعةً، إلخ. وكم ستحسب لهم كلّ دقيقةٍ من الدقائق التي تمرُّ دون أن تتمكَّن من الاتِّصال بمكتبها؟ وكيف تحسب ألمها الشخصيّ من عدم قدرتها على سماع صوت آبي، وتفكيرها فيما تسبِّبه له من قلق؟ إن طالبت فقط بألفَي دولار تعويضًا لكلِّ شخصٍ عن كلِّ يومٍ من أيَّام الاعتقال، فستكون رحيمةً مع جيش الدفاع والحكومة الأميركيَّة.

ما كانت تلك القصَّة أصلاً؟ آن، نعم. الشيطان يقتحم مكتب محامٍ، ويقول له: «مرحبًا، أنا الشيطان. أريد أن أعرض عليك صفقة.

- تفضَّل.

- سأجعل منك المحامي الأغنى والأشهر في العالم. مقابل ذلك ستتنازل لي عن روحك، وروح والديْك، وروح أبنائك، وروح أصدقائك الخمسة الأقربين؟»

حدَّق فيه المحامي بنظرةٍ مذهولة، وقال: «حسنًا. أين الفخ؟»

تجهَّمت المحاميَّة الشابَّة. كلاَّ، هي ليست الرجل الخسيس الذي تحكي عنه هذه النكتة. لكنْ في هذا العالم، لا مكانَ توجِّه إليه ضربتَك غير حافظةِ النقود، فهؤلاء الناس لا يفهمون غير ذلك. مرَّةً أخرى استعارت من صبيَّةٍ ورقةً وقلم لبَّاد، وشرعت في تحرير رسالةٍ جديدة.

تردَّدت أمُّ الطفلة، وهي شابَّةٌ شقراء: - زوجي يخدم في الجيش، ولا أريد أن أتسبَّب له في مشاكل.

- بالعكس يا سيِّدتي. قلتِ لي إنَّ زوجك بطلُ حربٍ، وإنَّه أُصيب في معركة؟ هذا يجعله محصَّنًا، ثم إنَّكِ إذ توقِّعين على هذه الوثيقة، فإنَّك تزيدينه حصانةً ضدَّ تهديد الجيش وضغطهم. سيكون ذلك عائقًا إضافيًّا أمام العدالة. في اتِّحادنا قوَّة. لن يستطيعوا استبقاءنا محجوزين مدّةً أطولَ. معك طفلان، أليس كذلك؟ ستكون الأضرار النفسيَّة عليهما بالغةً.

ردَّدت المرأة: - أضرارٌ نفسيَّة؟

ألقت نظرةً على ولدها الذي ما عاد يطالب بلوحه الإلكترونيّ، وقد هجع على الطاولة، وعلى ابنتها التي تخربشُ على الورقة كائناتٍ غامضةً، عجيبة، طويلةَ الأطرافِ مرعبةً، ثم تشطب الشخصيَّات التي ترسمُها بخطوطٍ سوداء.

وإلى الطاولة 14 تجلسُ، على وجه التخصيص، تلك الصبيَّة. لقد أثارت انتباه ڤيكتور. صبيَّةٌ تقارب الثلاثين، سوداء الشعر، رقيقةٌ كنبتةٍ متسلِّقة - وقد لام نفسَه فورًا على الصورة النمطيَّة. ذكَّرته بتلك الشابَّة التي كان قد التقاها منذ سنواتٍ، في مؤتمر الترجمة، تلك التي خرقت كيانَه، وأضاعَها إلى الأبد. إنَّ الحنين وغدٌ، يوهمك بأنَّ للحياة معنًى. وقد جلس ڤيكتور إلى جانب الصبيَّة، كالمنجذبِ بالمغناطيس، ذاك أنَّ ميزة الانجذاب دومًا هي السعي إلى تقليص المسافات.

حاول مبادلتها الحديث. كلاَّ، إنَّها كغيرها من المحتجزين هنا، لا علم لديها ولا خبر، وقد أبدت نوبةَ تعبٍ، وعادت تغوص في كتابها. معها مرافقٌ: رجلٌ، في كامل أناقةِ الستِّين، ولا يمكن أن

يكون أباها؛ ذاك ما حدسَه ڤيكتور من عنايته وتيقُّظه، ومن نظرته إليه حين حاول أن يبادرها بالحديث. شبهةُ قلقٍ، حيوانيَّةٍ، لم يستطع إخفاءها. تعارفَا. الرجلُ مهندسٌ معماريّ. ڤيكتور يعرفُه بالاسم، لكن يجهل شغلَه، إذ إنَّ عالم الخرسانة والزجاج يضجره. حتى إنَّه قد يعرض له أثناء الترجمة أن يواجه مفردةً معماريَّة (كالساكف، أو الإفريز...)، فيضطرُّ إلى البحث عنها، لكنَّه سرعان ما ينساها. يتأمَّل ڤيكتور الرجل، ومن غير أن يراه قبيحًا، يبصرُ الشيخوخةَ تخترق جلد يديْه وجبينَه المتغضِّن. قطعًا لا يتجاوز عمرُه السنوات التي حدَّدَها له. ما الذي يعجبها فيه؟ ما أدراه برغبة المرأةِ تجاه الرجل؟

قام الرجل، وسأل المرأة هل تريد قهوةً، ما دام الجيش قد وضع موزِّعات قهوة. هزَّت رأسها، فسارع إلى تلبية رغبتها. خمَّن ڤيكتور أنَّ ما فعله الرجل يدخل في باب اللباقة، تركَ لها مساحةً لتتنفَّسَ. يكفي الضغط الذي يمارسُه عليها هذا الحبسُ، فلا داعيَ إلى أن يضيف إلى الأقفال قفلَ الحضور الملازم.

الكتاب الذي تقرأه لكويتزي. ڤيكتور لم يقرأه.

سألها: هل هو جيِّد؟ ماذا؟ تقصد كتاب كويتزي؟ نعم، لكنَّه ليس بجودة «خزي». أجاب ڤيكتور: أوافقك الرأي، «خزي» هو أفضل أعماله، أليس كذلك؟ بلى، إنَّه تحفة.

ثم أشاحت عنه، فأدرك أنَّها تستثقله، فلم يلحَّ، وتناول دفترَه ودوَّن فيه، بلا تهكُّمٍ، كلمة «خزي».

E PUR, SI MUOVE[10]

السبت 26 يونيو 2021

قاعة الأزمة، البيت الأبيض، واشنطن

جمعت جامي بودلوفسكي وفريقُها، في قاعة الأزمة تحت البيت الأبيض، دستةً من الأفراد الذكور المقتنعين جميعًا بأنَّ الربَّ قد منَّ عليهم بأنْ وُلدوا على الدِّين الصحيح: اثنان من الكرادلة؛ ومثلهما من الأحبار - حبر أصولي وآخر ليبراليّ ـــــ؛ بابا أرثوذكسي؛ قس لوثيري؛ وآخرُ معمدانيّ؛ راهب مرمونيّ؛ ثلاثة شيوخ مسلمين - واحدٌ على مذهب السُّنَّة، وثانٍ على المذهب السلفيّ، وثالث شيعيّ؛ راهبٌ بوذيٌّ من أتباع مذهب الفاجرايانا، وثانٍ على مذهب الماهايانا. على الطاولة كثيرٌ من القهوة، حتى وإن كانت بودلوفسكي قد تمكَّنت من تحقيق إنجاز النوم خلال الأربعين دقيقة التي استغرقتها رحلتها على متن الهليكوبتر.

إنَّ رئيسة قسم العمليَّات النفسيَّة، قلقة. الطريقُ المستقيمة تكره الحُفَرَ، والظلاميُّ يفضِّل الكراهية على ما لا يستطيع تفسيره. وإنَّ جمود الشرائع يكابر في صدامه مع تغيّرات الكون وتقدُّم العلوم. أين يجد المنقّبُ في التوراة أو العهد الجديد أو القرآن، أو غيرها من النصوص، أدنى جملةٍ أو سورةٍ فضفاضة، أو آيةٍ غامضةٍ تفسِّرُ، أو تنبِّئ بهذه الظاهرة: طائرة تنبثق في الأفق، مطابقة تمام المطابقة لأخرى حطَّت قبلها بثلاثة أشهر؟

حين اكتشفت شعوبُ أميركا، اكتشافًا مؤلمًا، كريستوف كولومبوس، ومن بعده طوفانَ الغزاة الذين بشَّرَ بهم، كان لزامًا على الكنيسة الكاثوليكيَّة أن تجد في نصوصها ما يُبرِّر وجود تلك الشعوب. بالطبع، واستنادًا إلى كلام القدِّيس بولس، فإنَّ كلام الإنجيل قد «تردَّد حتى أقاصي العالم»، لكنْ كيف، بحقِّ الجحيم، استطاع أبناء نوح، سام، وحام، ويافث، أن يعمِّروا كلَّ الأرض؟ من أين سلكوا ليبذروا نسلهم حتى أقاصي جزر الهند الغربيَّة؟ أيكون هؤلاء الناس الجدد هم قبائل بني إسرائيل الضائعة التي يذكرها سفرُ إزرا الرابعُ، بقايا القيامة الأبوكريفيَّة[11] التي يذكرها ترتوليان؟

في نهاية المطاف، استنقذت الكنيسةُ من إنجيل يوحنَّا صيغةً وفت بالغرض: «إن لِيسوع نعاجًا أخرى، ليست من هذه الحظيرة».

إنَّ جامي بودلوفسكي كاثوليكيَّةٌ من جهة الأب، يهوديَّةٌ من جهة الأمّ. شهر يناير من سنة 1960، وقعت دكتورةٌ أشكينازيَّة، من بوسطن، في غرام شرطيٍّ من الغوييم[12]، من بالتيمور. ومن حينها لم تسر الأمور تلقائيًّا. رُبِّيَت الصغيرة جامي بين جدَّيْن وجدَّتَيْن ليس بينهم مودَّة، يهود ألمانٌ من جهة الأمّ، وكاثوليك بولنديُّون من جهة الأب، فكان أن تشكَّلت، وسط شِجارهم الدائمِ، طفلةً نزَّاعةً إلى التساؤل. منذ ابتداء أمرها، صارت شكَّاكةً، حتى قبل أن تبلورَ نفورًا دائمًا من الاعتقاد الدينيّ. وعلى الرَّغم من أنَّها عُمِّدَت - سِرًّا - من طرف جدَّيْها بودلوفسكي، إلاَّ أنَّها رفضت القيام بالمناولة، كما رفضت، بعدها بعامٍ، القيام بالبات - متسفا. كذلك ليس لها أيّ انتماءٍ سياسيّ راسخ، وإن كانت تنتخب الحزبَ الديموقراطيّ.

أثناء مقابلة العمل التي كان يُفترض أن تفتح لها أبواب قسم العمليَّات النفسيَّة، سألتها مسؤولة التوظيف عن دينها، فأجابت الاختصاصيَّة النفسيَّة «لا دين لي». ألحَّت المرأة، وهي تعالج القلم كأنَّما ستعبِّئ به خانةً في استمارة خياليَّة: «أنتِ إذن ملحدة». هزَّت جامي كتفيْها، وقالت: «لا آبه بذلك. إنَّ الربَّ عندي أشبه شيءٍ بلعبة البريدج: لا أفكِّر فيه البتَّة. ومع ذلك، أنا لا أعرفُ نفسي بوصفي شخصًا لا يأبه بلعبة البريدج، ولا تجمعني نقاشات مع أُناسٍ يعرِّفون أنفسهم، هم أيضًا، بأنَّهم لا يأبهون بلعبة البريدج». أصابت الإجابةُ الهدفَ. وبعد ستّ سنواتٍ من ذلك، وقبل أن تبلغ سنَّ الأربعينَ، ألفت جامي نفسها على رأس قسم العمليَّات النفسيَّة بالـ إف بي آي، قبل أن تلتحق بمركز العمليَّات الدفاعيَّة لتشغل فيه المنصبَ نفسَه.

تخصَّصت جامي بودلوفسكي في المسائل الدينيَّة، واليوم قد خبِرت معرفةَ كلّ هؤلاء الرجال الحاضرين في القاعة. ولمَّا كانت الأنثى الوحيدة وسط الجمع فقد بدأت حديثها بالطبع على هذا النحو «سيِّداتي، سادتي...» آملةً أن ينتبه أحدهم إلى طابع السخرية في كلامها، ولكنْ بالطبع لا أحدَ انتبه، فأشارت إلى الشاشة الكبيرة حيث يظهر الرئيس، محاطًا بالوجوه نفسها التي كانت تُحيط به يوم أمس، وقد زاد عليها مستشاريه الروحيّين.

- سيّدي الرئيس، طبعًا تستطيع أن تتدخَّل متى شئت. شكرًا لجميع الحضور. أنا جامي بودلوفسكي، ضابطة قيدومة ضمن قيادة العمليَّات الخاصَّة في الجيش الأميركيّ. أنتم هنا بصفتكم ممثِّلين للأغلبيَّة الساحقة للعقائد والعبادات الممارسة فوق التراب الوطنيّ.

ثم عمدت بودلوفسكي إلى تقديم كلّ رجال الدين الحاضرين، من غير أن تمنح أحدهم الفرصة ليتذمَّر من إيقاظه فجرًا، والإتيان به حتى البيت الأبيض، ثم اقتياده مباشرةً إلى قاعة الأزمات.

- سأعرض أمامكم جميعًا وضعيَّةً، ثم أصوغ عدَّة أسئلةٍ بسيطة. ولا أنتظر منكم أجوبةً ذات طبيعةٍ أخلاقيَّة، وإنَّما لاهوتيَّة. أوضح كلامي: تعرفون جميعًا أنَّ ثمة مختبراتٍ صارت خبيرةً في طباعة المادَّة العضويَّة طباعةً ثلاثيَّة الأبعاد، وصناعة أعضاءٍ بيولوجيَّةٍ مصطنعة، كالعضلات، والقلوب، انطلاقًا من خلايا جذعيَّة، أعضاء لا يُخشى أن ترفضها أجسام المرضى. و...

قاطعها الحبر الأصوليّ: - نعم، لقد توصَّلنا إلى إجماعٍ بخصوص هذه القضيَّة. حتى مع أصدقائنا الكاثوليك والمسلمين.

هزَّ الكاردينالان رأسيْهما، وأمَّنَ الإمام السلفيّ على كلام الحبر: - لقد أقرَّ مجمع الفقه الإسلاميّ السماح بالهندسة الوراثيَّة، شرط أن تكون الغاية منها إنقاذ الأرواح.

- شكرًا يا سادة. سأطلب منكم تصوُّر إمكان أن نطبع نسخةً من شخصٍ بأكمله.

سألها القسّ اللوثريّ: - ماذا تقصدين بطباعة نسخةٍ كاملة.

- أي أن ننسخَه بدقَّةٍ متناهية. بحيث تكون للفرد الجديد الشفرة الجينيّة نفسها للأصل الذي نُسخ عنه، لا بل إنَّ الأمر يمضي أبعد.

قال القسّ المرمونيّ:

- مثل نسخة كاربونيَّةٍ تامَّة؟

ابتسمت بودلوفسكي:

- نعم، نسخة كاربونيَّة.

سألها أحد البوذيِّين بعذوبةٍ شرقيَّةٍ تلامس الصورة النمطيَّة: - هل حديثنا هذا تخمينيّ؟

سكتت مسؤولة العمليَّات النفسيَّة برهةً طويلة، إذ أرادت أن تأخذ كامل وقتها في التفكير: - كلاَّ سؤالي ليس نظريًّا. نواجه فردًا لا يمكن الفصل بينَه وبين فردٍ آخرَ، زيادةً على كونه يدَّعي أنَّه الفردُ الآخر. وقد قمنا بالمطابقة بينهما. والنتيجة مذهلة.

- أهو توأمُه؟

- كلاَّ... إنَّ لهما الشخصيَّة نفسها، والذكريات نفسها، لدرجة أنَّ كلاًّ منهما يدَّعي أنَّه الأصل. دماغاهما مشفَّران بالطريقة نفسها، كيميائيًّا وكهربائيًّا، وحتى على المستوى الذرّيّ.

هاجت القاعة وماجت، وتردَّدت في أرجائها كلمات تجذيفٍ وقذفٍ، وأخرى أقرب إلى علم البراز منها إلى علم اللاّهوت.

اختزل المعمدانيّ الأسئلة: - مَن المتسبِّب في هذا الخزي؟

أجابت جامي بودلوفسكي: - لا ندري. لكن هذه الكائنات موجودة. ولسنا نسأل هنا رأيًا أخلاقيًّا.

سألها كاردينال باستثارة: - أهو غوغل؟ هل...

- كلاَّ، سماحتك، ليس غوغل.

واصل رجل الدِّين الكلام: - مع أنَّ غوغل، يا سيِّدتي، قد اشترى حصَّةً من شركةٍ إسرائيليَّةٍ للطباعة ثلاثيَّة الأبعاد، و...

- كلاَّ، سماحتك، ليسوا هم. سؤالي الأوَّل هو التالي: بحسب الشريعة، هل يُعتبر هذا الكائنُ مخلوقًا من طرف الربّ؟

بودلوفسكي لا تعوزها الكلمات، إنَّما تردُّدها البلاغيّ استحثاثٌ للنقاش.

خيَّمت البلبلة، وكان السلفيّ أوَّل من انحنى على ميكروفونه: - لقد حبا الله الإنسان والحيوانات القدرة على الإنجاب، وميَّز الإنسان بالعقل ممَّا يمنحه القدرةَ على إبداع أشياء. لكنَّ الله تعالى يقول في سورة الحجّ: «يَا أَيُّهَا النَاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ»، الآية قطعيَّة واضحة: إنَّ البشر لن يخلقوا حيًّا، ولو كان هذا الحيُّ ذبابةً.

وضَّحت جامي بودلوفسكي: - أفهمُك يا صديقي، لكنَّ الأمر هنا يتجاوز ذبابةً بكثير.

قام السنِّيّ، وقال:

- جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، عن النبيّ h أن «ليست نفسٌ مخلوقةٌ، إلاَّ الله خالقُها»، وهذا هو الأهمّ.

- هذه الكائنات إذن من مخلوقات الله؟

استأنف السلفيّ الكلام: - أُعيد عليك مثَلَ الذبابة، لولا أنَّ الله أراد لها أن تُخلقَ، لما خُلقت.

قالت بودلوفسكي:

- فهمت، فهمت...

ثم صمتت، وانتظرت سدًى كلمةً من عند الكاثوليك أو البروتستانت.

تردَّد الحبر الأصوليّ برهةً، ثم انطلق إلى الكلام: - في التلمود قصص خلق. يقول، في نصِّ السندهريم، إنَّ رافا، طوبى له، قد خلق إنسانًا بطريق السحر. لكنَّ النصّ لا يذكر ما كانت تلك الطريق...

سألته بودلوسكي:

- عفوًا، من يكون رافا؟

- إنَّه رِبيٌّ من الجيل الرابع... المهمّ، أرسلَ رافا الرجلَ الذي خلقَه إلى الربّيّ زايرا، فطرح زايرا على الرجل سؤالاً، ومن جوابه عرف أنَّه ليس ممَّا خلقَه الربّ، وأنَّه من الغوييم، فأمرَه أن

يعود إلى سيرته الأولى: غبارًا.

أتمَّ الحبر اللبراليّ كلام صاحبه: - وفي صيغٍ أخرى، يستطيع هذا الإنسان الذي خلقَه رافا أن يتكلَّم، لكنَّه لا يستطيع الإنجاب. كذلك يذكر السندهريم أنَّ الربيّ حنينة والربيّ أوشيا خلقا خروفًا، وأكلاه... على أنَّ كلّ ذلك يظلّ مبهمًا، وينبغي حملُه محملَ المثل. والغاية من ضربه بيانُ اغترار الإنسان بنفسه، ومُطلق قدرة الربّ.

زفر الشيعيّ:

- علينا أن نرجع إلى القرآن. في العربيَّة، يعني الفعل «خَلقَ»، «أنشأَ من عدمٍ»، وهذا ما لا يستطيع غير الله فعلَه - ونحن متَّفقون على ذلك ـــــ. حتى الربيّ الذي ذكرتَه، اضطرَّ إلى العودة إلى التراب ليخلق منه. لكنْ في الحالة التي تذكرينَها يا سيِّدتي، هذا... الكائن... لم يُخلق من عدم؟

أجابت ضابطة الـ إف بي آي: - بالطبع لا. غير أنَّنا نجهل تمام الجهل... كيف... صُنع.

استغلَّ الحبر الليبراليّ برهةَ صمتٍ: - ينبغي أن نذكِّر بتعاليم موسى بن ميمون: إنَّ الربّ قد أعطى الإنسان روحَه، أي النفْس، لكن إن كان الربّ قد أنزل على الإنسان الشرائع والتعاليم، فإنَّما يعني ذلك أنَّ الإنسان يتميَّز بالحرِّيَّة، والقدرة على الاختيار بين الخير والشرّ.

أبدى الحبر الأصوليّ انزعاجًا: - لا أرى علاقةً بين الموضوع الذي نتطارحه ومسألة الحرِّيَّة والقدرة على الاختيار. إنَّهم يسألوننا موقفًا لاهوتيًّا، وأنت كعادتك، لا تفوّت الفرصة لتذكر صاحبك المدعو موسى بن ميمون!

- مهلاً، لستُ أغتنم الفرصة لذكر موسى بن ميمون!

تدخَّلت بودلوفسكي لتهدئة الوضع: - رجاءً.. أفهموني؛ إن كنت أُثير مسألةَ الخلق، فإنَّما أفعل ذلك مجانبَةً لأن يُعتبر هذا المخلوقُ صنيعةَ الشيطان.

اغتاظ الحكيم السلفيّ: - الشيطان لا يَخلق!

أمَّن الحبر الأصوليّ على كلامه: - طبعًا!

وأومأ البروتستانتيَّان برأسهما موافقيْن.

قال كاردينالٌ وهو يرسم علامة الصليب: - لقد خلق الربّ الشيطانَ، ليمتحنَ بغوايته البشر، وقد تسلَّل الشيطان إلى الفردوس متنكِّرًا في هيأة أمكرِ الحيوانات، الأفعى. لكنَّ الشيطان لا يستطيع أن يخلق.

قالت بودلوفسكي في دهشةٍ ساذجة: - آه، مع أنِّي أظنُّ أنِّي قد سمعتُ بـ «مخلوقات الشيطان».

قال السلفيّ باسمًا:

- إنَّما هو استعمالٌ متعسِّفٌ للغة. من كلام العوام.

بينما الشيعيّ، في أقصى الطاولة، يتهكَّم؛ ثم أطلق الكلام مغتاظًا: - تقول من كلام العوام؟ ومع ذلك، يبدو لي أنَّ شيخكم محمَّد المنجِّد سمَّى ميكي ماوس «صنيعةَ الشيطان».

انتفض الرئيس الأميركيّ الذي لزم حتى تلك اللحظة الصمتَ: - ميكي ماوس؟

زفر السلفيّ:

- المنجِّد ليس شيخـ «نا» كما تقول، إنَّما هو فقط عالمٌ جليل. وما قاله بالضبط هو «من جنود الشيطان»، وليس «صنيعة الشيطان»، إنَّما حرَّف قولَه الكفَّارُ وأعداءُ الدِّين استهزاءً بالإسلام.

واصل الشيعيّ سخريته:

- لكنَّه على أيِّ حالٍ قد أطلق فتواه ضدَّ ميكي ماوس. وبالمقابل لا يرى غضاضةً في الرقّ وفي مجامعة الإماء.

شاط غضب السلفيّ:

- إنَّما هو الإجماع، ومحمَّد المنجِّد ليس إلاَّ يردِّد رأيَ عموم علماء الإسلام...

سأله اللوثريّ:

- كذلك رأيُهم وجوب حرق المثليّين؟

رفع الحبر الأصوليّ عينيْه إلى السماء: - هممم. هل أُذكِّرك بما قاله لوثر في حقِّ المثليّين؟

تدخَّلت بودلوفسكي فارضةً سلطتها: - سادتي، سادتي. إنَّنا نبتعد عن صلب الموضوع. سأعتبر المسألة الأولى محسومة: الإنسان الذي نتحدَّث عنه ليس من مخلوقات الشيطان. اتَّفقنا؟

قال الحبر الأصوليّ وقد هدأت نفسه: - لا مخلوق إلاَّ وقد خلقَه الربّ.

وكان الراهبان البوذيَّان قد لزما الصمت حتى تلك اللحظة، لكنْ ما لبث أحدهما أن انزعج فبادر إلى الكلام.

- بالنسبة إلى «مخلوقاتكم الإلٰهيَّة»... لقد تركناكم تتجادلون، لكنْ ليس أصل العالم إلاَّ نسبيًّا. هي دائرةٌ لا نهاية لها، يتقلَّب العالم فيها بين حالاتٍ من الخلق، هي ميزة براهما، ولحظات استقرارٍ يسود فيها فيشنو، وأطوارٍ يدمِّر فيها شيفا كلَّ شيءٍ، ببطءٍ أو بسرعة. وإذَّاك يمكن أن يعود كلّ شيءٍ على بدء. بالنسبة إلينا نحن، سؤالُكٍ خلوٌ من كلّ معنى. كلّ الكائنات الحيَّة تستضمِر حضورَ بوذا، وتستطيع أن تبلغ الاستنارة. لن تَجدي بوذيًّا يصيح في مخلوقٍ ما: «إنَّك مخلوق الشيطان». نحن نرحِّب بهذا المخلوق الجديد. وكعادتنا نبعث برسالة سلام.

ردَّ السنيُّ:

- ما أجملها من رسالة سلامٍ! خاصَّةً حين يكون أبناء دينك منهمكين في تقتيل إخوتنا الروهينغا في بورما، تحت رايةِ البوذيّ المتعصِّب ويراثو...

- ليست تلك البوذيَّة التي أؤمن بها... ثم، أخبرني... من حطَّم تماثيل بوذا في باميان؟ ومن في سيريلانكا...

قاطعته بودلوفسكي بلطفٍ: - رجاءً. أعلم أنَّ نيَّاتكم جميعًا طيِّبة. لكنَّنا لا نستطيع أن نحلّ هنا، في هذه القاعة، كلّ مشاكل الكوكب. لنقل إذن إنَّه مخلوقٌ من مخلوقات الربّ، أو كائنٌ يستشعر حضورَ بوذا. هي ذي نقطةٌ كسبناها. عندي سؤالٌ آخر: الروح.

ردَّد السنِّيّ:

- الروح؟

- أجل. لا أستطيع التحديد، لكنَّه يظلّ مفهومًا أساسيًّا، أليس كذلك؟

أجاب السنِّيّ:

- بلى، مفهومٌ أساسيّ، لكنَّه معقَّد. هل أستطيع بسطه؟

أجابت بودلوفسكي:

- لديَّ كلّ الوقت...

تواصل الاجتماع ساعتيْن، وما أفضى إلى شيء، ولمَّا تعبت بودلوفسكي أنهته. إذ اقتنعت أنَّها حتى لو واصلت الاجتماع أسبوعًا، بل شهرًا، فإنَّها لن تحصِّل نتيجةً.

- رجاءً، يا سادة، هل نستطيع أن نصل إلى موقفٍ موحَّد؟ وأن نُصدر بلاغًا متَّفقًا عليه، بلاغًا مؤقَّتًا، ننحو به نحو الاتِّفاق، ونهدف إلى حماية هذا الإنسان من أيِّ فعلٍ عدائيٍّ نتيجة قراءةٍ سيِّئة للنصوص المقدَّسة؟

قال أحد البوذيِّين:

- هذا أفضل الحلول.

وأمَّن الحبر الليبراليّ: - قطعًا، ونستطيع أن نستشهد بتلك الكلمات الجميلة في سفر اللاويّين (19،18)، حيث يأمرنا الربّ أن نحبّ القريب كما نحبُّ أنفُسنا.

قال القسّ اللّوثريّ:

- أو كلمات الإنجيل (يوحنَّا 34،13)، حيث يأمر يسوع حواريِّيه بأن يحبُّوا بعضهم بعضًا.

أمَّن السلفيّ، وأضاف: - يقول الله تعالى في كتابه العزيز «وأحسنوا، إنَّ الله يحبُّ المحسنين». فإن أحسنَّا استقبال هذا الكائن، من غير إساءةٍ، فإنَّما نحن نعمل بمقتضى الآية الكريمة.

قالت بودلوفسكي:

- حسنًا. أشكركم. عليَّ أن أُضيف عنصرًا ليس بالهيّن. لسنا نواجه كائنًا نسخةً مفردًا، بل عددًا من الكائنات. مئتان وثلاثة وأربعون تحديدًا.

- مئتان وثلاثة وأربعون؟

لم تترك للحضور فرصة التعقيب: - أصدقائي، أضرب لكم موعدًا صباح الغد، وسوف أمدّكم بكلِّ المعلومات المتوافرة حتى ذلك الحين. على أيِّ حالٍ، لا أظنّ أنَّ العنصر الذي أضفتُه يغيِّر شيئًا في جوهر نقاشنا. سأحرِّر خلاصةً لاجتماعنا هذا، وأمدّكم بقرارٍ موحَّد، يشمل جميع الطوائف الدينيَّة.

شكرت بودلوفسكي الجميع مطوَّلاً، ثم استأذنت في الانصراف. ولمَّا ركبت الهليكوبتر باتِّجاه القاعدة، هاتفت أدريان ميلر.

سألها الرياضيّ: - وإذن، كيف سارت الأمور.

تنهَّدت:

- على أفضل ما يرام. على أفضل ما يرام.

اهتزّ هاتفها. رسالة نصِّيَّة من الرئاسة.

كتب الرئيس: «Great job»

حظيرة

السبت 26 يونيو 2021

الحظيرة ب، قاعدة ماغواير الجوّيَّة

قال سيلفريا متعجِّبًا من أعلى المنصَّة: - ماذا؟ يرقصون!

وبالفعل، كان بعض الركَّاب، عن الركن الشماليّ، قد استحدثوا مساحةً بين الطاولات، وجعلوا يرقصون. مراهقون وأطفال بالأساس، لكنْ ليسوا وحدَهم، يهتزُّون على إيقاعات أغنية إد شيران الجديدة So Tired of Being Me، بين الآر آند بي والدانسهول، لكنَّ سيلفريا أبعد ما يكون عن أن يكون خبيرًا بالمسألة، وكذلك بودلوفسكي وميتنيك الواقفيْن بجانبه.

منذ زمنٍ بعيدٍ لم يرقص. منذ سنتيْن، حين رقص مع ابنته، افتتاحًا لحفل زفافها؟ ربَّما. يومها، رقصا على موسيقى لويس أرمسترونغ. هو محشورًا في بذلته الضيِّقة، وهي فائضةً بمرحٍ من فستانها الأبيض. وكان سيلفريا يومها قد عاد لتوّه من أفغانستان، فكان يرقص ويدور ضاحكًا، وبين ذراعيْه تدور ابنته جينا وتضحك، وفي رأسه تدور صورُ الحرب المقرفةُ. حتى حين يغمض عينيْه، حتى بعد أن عبَّ ثلاث قناني بيرة، حتى حين لفَّته عذوبة عطر ابنته، ظلَّ عالم سيلفريا يبتعد شيئًا فشيئًا عن العالم الجميل الذي تحكيه الأغنية wonderful world. ومع ذلك، ظلَّ يراقصها، طاردًا إلى البعيد بالدم والبارود والصحراء، باصقًا في وجه كلّ الوحوش الطالعة من الجحيم.

قال سيلفريا منزعجًا: - من سمح لهم بتشغيل الموسيقى؟

قالت جامي بودلوفسكي: - هي بالأحرى بادرةٌ حسنة. لقد بدأنا بعرض أفلامٍ للأطفال، وسنوزِّع لعبًا اجتماعيَّة، ورقع شطرنج، وأوراق لعب. سيسهم ذلك في خفض التوتُّر.

- فليرقصوا إذن.

نظر الجنرال إلى ساعته: إنَّها الثانية زوالاً، وقد بلغ منه التعب مبلغًا كأنَّما حَلَّ الليل. من المنصَّة، حيث يقف، صارت الحظيرة تبدو مثل قريةٍ من الخيم العسكريَّة بلَونِ الرمال، والبيوت الجاهزة البيضاء، قريةٍ موقَّتةٍ تفوح برائحة الشحم الزنخ والمعقِّمات. إنَّ التدابير العسكريَّة تحاول ما أمكنَها التكيُّفَ مع هؤلاء المدنيّين غير المنضبطين. الجنود لا يعرفون إلاَّ الحدّ الأدنى من المعلومات، إن لم نقل إنَّهم لا يعرفون شيئًا، والتعليمة الصارمة الوحيدة التي وُجِّهت لهم هي ألاَّ يكشفوا تاريخ اليوم. أغلبهم يحرس الأبواب حراسةً مشدَّدة، لكنَّ بعضهم سُمح له بأن يهتمّ بالأطفال. وقد عمد سيلفريا إلى زيادة عددهم ثلاثة أضعاف، ولمَّا ألفاهم متوتِّرين فقد أبدَلَهم بنادقَهم الرشَّاشة بأجهزةِ صعق. إنَّ باتريك سيلفريا منهكٌ، ومع ذلك تراه يسبح في رضًا عزَّ مثيلُه. إنَّها المرَّة الأولى التي يرى فيها نفسَه يتساءل أسئلة غير سؤال كيف انتهى به المطاف جنرالاً موَسَمًا بصليب القوَّات الجوِّيَّة، والقلبِ الأرجوانيّ، ووسام الاستحقاق. طفلاً، كانت رغبتُه أن يصير طبيبًا ليداويَ أمّه المحتضرة، ومراهقًا، سعى إلى أن يكون ممثِّلاً، ثم انطلق إلى دراسة الفيزياء النظريَّة. لكنَّ الريح ما انفكَّت تقلِّبُه. فشل في الحصول على منحة جامعة لاورنس، وتوفِّي والدُه باللوكيميا، وتركته الحسناءُ ميرا، لتتزوَّج بمسنٍّ في الخامسة والثلاثين من عمره. فكان أن اجتازَ، تحدِّيًا، امتحانَ وِست بوينت، وصار وحيدَ دفعته الذي ليس في أسرته عسكريّ. ومذّاك ما انفكّ يسائل ما نُسمِّيه المصيرَ: ماذا لو تمَّ قبولُه، حين كان في الثامنة عشرة، لتأدية دور مساعد البطل في تلك المسرحيَّة البوليسيّة ببرودواي، ولو أنَّ حنَّة لم تحبل سريعًا، ولو أنَّه لم يتمكَّن سنة 2003، من أن يسقط تلك الطائرة الملعونة ميج - 25، أثناء هجوم أبريل، في سماء الموصل! واليوم حاز جوابَه: إنَّ طريق الصدفة التي سلكها لم توجد إلاَّ لكي تبلغ به هذه اللحظةَ، حيث يقف على منصَّةٍ فولاذيَّة في حظيرة طائرات لوكهيد غالاكسي، مسندًا ذراعيْه على السياج المطليّ بألمنيوم، محاطًا بعددٍ من الحائزين على جائزة نوبل، مُشرفًا على هذا الحشد من البشر الذين انبثقوا من العدم.

قرَّر سيلفريا: - سوف أنزل إلى حفرة السباع.

قالت بودلوفسكي: - منذ قليل، ظهرت بوادرُ شغبٍ.. إنْ نزلت سيمزِّقونك...

- ربَّما ذلك ما أرغب فيه.

قال ميتنيك: - كدتُ أنسى. إنَّ بينهم محاميَّة... جوانا وودز. لستُ متخصِّصًا في القانون، لكنِّي أظنّ ملفّها متينًا، حتى وإن كان ملوَّنًا.

تعجَّب سيلفريا: - ملوَّن؟

- نعم. إنَّها تحرِّر الدعاوى على الأوراق التي نوزِّعها على الأطفال للرسم، وبأقلام اللبَّاد.

زفر الجنرال. خطرت بباله العديد من النكت عن المحامين، واحدةٌ منها جيِّدة تُبيِّنُ الفرقَ بين المحامي والقُرادة، لكنَّه احتفظ بها لنفسه. نكتةٌ لن تساهم حتى في تلطيف الجوّ.

- إن كنت تريد التفاوض، فإنَّ السيِّدة وودز في الصفِّ الأوَّل، الطاولة 14، مع ربَّان الطائرة.

وأمام ذهول الجنرال، واصل ميتنيك: - جنرال، إن تفحَّصت لوحك الإلكترونيّ سترى أنَّنا وضعنا في الجدران مئات الكاميرات عالية الدقَّة، ومثلها من الميكروفونات الموجَّهة. وثمَّة نظامٌ للتعرُّف على الوجوه، وتحليلِ الكلام، في كلِّ اللغات، مع ترجمةٍ فوريَّة. اضغط على اسم راكبٍ من الركَّاب، فيطلع لك النصّ مباشرةً. باقات الأزهار البلاستيكيَّة على الطاولات دُرَرٌ إلكترونيَّة. وكذلك الخيَم تضمّ أجهزة تنصُّت.

- براقو. والمراحيض، ألم تضعوا فيها هي أيضًا أجهزة تلصُّص؟

- كلاَّ. لقد ناقشنا الأمر، ثم قرَّرنا ألاَّ نفعل.

لم يبدُ على وجه ميتنيك أيّ أثر.

تساءل سيلفريا عمّا إذا كان الرجل متبلِّدَ الأحاسيس، أو مبالِغًا في الجدِّيَّة.

- ما دمت على هذه الدرجة من القوَّة يا ميتنيك، لا بدَّ أنَّ لديك صورة الرجل الذي هرب...

- كلاَّ، فنحن لم نضع الكاميرات وأجهزة الميكروفون إلاَّ صباحَ أمس. وكان قد فرَّ قبل ذلك. نعرف أنَّه ركب من باريس باسم ميكائيل فيبر. وهي هويَّةٌ زائفة. يسافر بجواز سفرٍ أستراليّ، لأنَّ أستراليا من الدول القليلة التي لم تنتقل بعد إلى استخدام الجواز البيومتريّ. في أستراليا، العشرات

ممَّن يحملون اسم ميكائيل فيبر، لكنَّ صاحب الجواز يقطن غولد كوست، ولم يغادر بلدته قطّ. أردنا أن نرفع البصمات من على مقعده بالطائرة، لكنَّ المقعد من نسيجٍ. حصلنا على صواني الطعام والسكاكين والملاعق. لكنْ حتى بعد تصفية الحمض النوويّ لجميع الركَّاب الآخرين، سيظلّ ثمّة حمض محضِّري الصواني. وهَب أنَّنا كشفنا حمضَه على الرَّغم من كلِّ شيء، سيكون بوسعنا أن نحدِّد لون بشرته، وعينيْه، وطبيعة شعره، وعمرَه، وهيأتَه، وأن نرسم ملامح وجهه، وننشر الصورةَ على مواقع التواصل. لكنْ لا ينبغي توقُّع معجزة.

- وصوَر الطائرة؟

- لقد حجز المقعد E 30، وهو المقعد الذي لا تغطِّيه أيّ كاميرا مراقبة! وحتى أثناء الصعود لا نجد أيّ لقطةٍ لوجهه. وقد سألنا من كانوا يجلسون بجانبه، لكن لا أحد أعاره الاهتمام. رسمةُ وجهه جاهزة. نظَّاراتٌ سميكة، شعرٌ طويل، شنب، وهي تفاصيل تجذب العيْنَ، وتحوِّلُها عن الأساسيّ. وأثناء الرحلة، كان يضع قبَّعةَ كنزته.

- وصور كاميرات المراقبة في مطار شارل دو غول؟

- كان ذلك في شهر مارس، وبالتالي، معظمُها قد مُسح. وفي اللقطات القليلة التي بقيت لا يظهرُ أيّ شيء. هذا المستوى من الدقَّة في التخفِّي يؤكِّد أنَّنا إزاء محترِف.

- وكسر باب الحظيرة؟

- لقد كسر الباب أثناء نوبة الذعر التي أعقبت الحريق الذي لا بدَّ أنَّه هو من افتعلَه. ولم يترك بصمةً على الباب أو على قضيب الحديد الذي كسرَه به. وساعة الظهيرة، وُجدت السيَّارة التي سرقَها محروقةً في نيويورك. قلت لك إنَّه محترِف.

- واصلوا البحث. حتى النملة تترك أثرًا.

أجاب ميتنيك متجهِّمًا: - ليس حين تكون نملةً مجنَّحة.

أسئلة ميريديث

السبت 26 يونيو، 2021، 7س 30د

قاعدة ماغواير الجويّة

أرغت ميريديث وأزبدت:

- أرفض أن أكون برنامجًا... إن صدقت هذه الفرضيَّة يا أدريان، فهذا يعني أنَّنا نعيش أمثولة الكهف لأفلاطون، لكنْ في صيغةٍ فائقة الكِبَر. أمرٌ لا يُطاق: ألا يكفي أنَّنا لا نبلغ سوى سطح الواقع، بلا أملٍ في بلوغ المعرفة الحقّ؟ أن يكون هذا السطح نفسه مجرَّد وهمٍ فذاك ممَّا يدفع إلى الانتحار.

هدَّأ أدريان من حدَّة الحديث وهو يمدّ يدَه بثالث فنجان قهوةٍ يشربه هذا الصباح:

- لا أدري ما إذا كان «الانتحار» فعلاً مناسبًا لـ «برنامج»!

لكنَّ ميريديث غاضبة، خرجت عن طورها، ولا بدَّ أنَّه أحد الأعراض الجانبيَّة لعقار المودافينيل الذي تتناول منه حبَّةً كلّ ستّ ساعات، لكي تقاوم النوم. وها هي ذي تقصف أدريان بسلسلةٍ من الأسئلة التي لا تنتظر لها جوابًا.

هل كوني لا أحبُّ القهوةَ صفةٌ مدوَّنةٌ في برنامجي؟ وحالة الخُمار التي تلبَّستني أمس حين تحوَّلت إلى منشفةٍ لشفط التيكيلا، أهي أيضًا مجرَّد محاكاة؟ وحين يرغب برنامجٌ، أو يحبّ، أو يعاني؟ ما الخوارزميَّات المتحكِّمة في الحبِّ والمعاناة والرغبة؟ هل بُرمجتُ لأغضبَ حين أكتشف أنَّني برنامج؟ وهل أتمتَّع على الرَّغم من ذلك بالإرادة الحرَّة؟ هل كلّ شيءٍ مبرمجٌ سلفًا، ولا مناص لي من السير على الطريق التي رُسمت لي؟ كم نسبة العماء المتضمِّنة في هذه المحاكاة؟ وهل ثمّة أصلاً عماء؟ وهل من طريقةٍ لينزاح هذا الهمّ، ونتأكَّد من أنَّنا لسنا في محاكاة؟

سيُجيب أدريان بأنَّ إيجاد تجربةٍ لاختبار الفرضيَّة صعبٌ، لأنَّ المحاكاة ليست بليدة، وبالتالي قد توهمك بعكس النتيجة الصحيحة. ومع ذلك، منذ ثلاثين ساعة وهم يثابرون في سبيل تصوُّر تجربة. علماء الفيزياء الفلكيَّة، منهم خاصَّةً، يحاولون مراقبة الأشعَّة الكونيَّة ذات الطاقة الأعلى. يظنُّون أنَّه يستحيل، بقوانين الفيزياء «الواقعيَّة»، محاكاتُها بنسبة دقَّة 100%. وأنَّ ملاحظة خللٍ في حركتها يمكن أن يبرهن على أنَّ الواقع غير واقعيّ. وحتى اللحظة، لم تسفر المحاولات عن أيِّ نتيجة.

إنَّ أدريان يمقت فكرة المحاكاة، وهو الذي يتَّخذ من كارل بوبر منارًا لدراساته الإبستمولوجيَّة؛ العزيز كارل بوبر الذي يرى أنَّ نظريَّةً ما، لا تستحقّ أن توصف بالعلميَّة، ما لم تكن قابلةً لأن تُفنَّدَ... غير أنَّ أدريان ظلَّ يقلِّب المسألة، سدًى، في كلِّ اتِّجاه؛ التفسير الأبسط هو غالبًا التفسير الصحيح. الأبسط، لكنَّه الأقلّ إراحةً: إنَّ ظهور المركبة لا يمكن أن يكون مجرَّد خطأٍ في المحاكاة - إذ لو كان الأمر كذلك لسهُل «مسحُه»، والعودةُ قليلاً إلى الوراء... كلاَّ، إنَّه قطعًا اختبار: كيف ستتصرَّف ملايير. الكائنات الافتراضيَّة حين تُواجَه بحقيقة «افتراضيَّتها»؟

لكنْ ليس لأدريان الوقت ليجادل، لأنَّ ميريديث تواصل الأسئلة.

هل نعيش في زمانٍ ليس سوى وهم، حيث لا يدوم القرنُ في الواقع أكثر من جزءٍ من الثانية، داخل معالجات حواسيب عملاقة؟ وما الموت إذن؟ اللّهمَّ إلاَّ كلمة «end» مكتوبةً على شريط شفرة؟ وهل هتلر والهولوكوست لا وجود لهما إلاَّ في محاكاتنا، أو محاكاةٍ أخرى غيرها، وهل قُتل ستَّة ملايين برنامج يهوديّ على يد ملايين من البرامج النازيَّة؟ وهل الاغتصاب هو برنامجٌ ذكر يغتصب برنامجًا أنثى؟ والبرامج المُصابة بالبرانويا، أليست أنظمةً أكثر تبصُّرًا من غيرها؟ وهذه الفرضيَّة المجنونة! أليست الصيغة الأكمل لنظريَّة المؤامرة وقد بُلورت ضمن أضخم مؤامرةٍ ممكنة؟

أيّ انحرافٍ هوَ أن تُطوِّر برامجَ تحاكي كائناتٍ على هذه الدرجة من الحمق، وبرامجَ أخرى فائقة الذكاء كي تقلِّل من معاناتك من الحياة مُحاطًا بالبرامج الحمقاء، وبرامج تحاكي موسيقيِّين، وأخرى رسَّامين، وأخرى تحاكي مؤلِّفين يؤلِّفون كتبًا تقرأها برامجُ أخرى؟ أو كتبًا لا يقرأها أحد؟ من تراهُ صمَّمَ برنامجَ النبيّ موسى، وبرنامج هوميروس، وموزارت، وآينشتاين، ولِمَ هذا الكمّ من

البرامج المفتقرة إلى الكيف، البرامج التي تعبُر وجودَها الإلكترونيّ من غير أن تخلِّفَ أيّ أثرٍ يُذكر، أو تكاد لا تقدِّم إلاَّ قليلاً قياسًا إلى درجة تعقيد المحاكاة؟ أو، أو.. ما تزال الأسئلة تتواتر، وما تزال ميريديث تستشيط غضبًا، أَ نكون محاكاة لعالم إنسان كرومانيون يقوم بها إنسان النياندرتال، تلك الفصيلة من الإنسان العاقل التي، على عكس ما نظنُّ، قد تمكّنت من الصمود والبقاء منذ خمسين ألف عامٍ، لدرجة أنَّها أرادت أن تختبر المدى الذي كان بإمكان تلك الرئيسيَّات الإفريقيَّة (أي نحن) الفائقة العنف أن تبلغه لو كُتب لها البقاء؟ حسنًا، لقد حازوا الإجابة اليومَ، إنَّ إنسان الكرومانيون من الغباء حدَّ أنَّه دمَّرَ بيئته الافتراضيَّة، وخرَّب غاباته، ولوَّث محيطاته، وتكاثر حتى العبث، وأحرق كلّ الطاقة الأحفوريَّة، وفي غضون أقلِّ من خمسين عامًا من المحاكاة ستموت كلّ الأنواع بفعل الاحترار والغباء. أو، هاكم سيناريو محاكاةً آخر، سيناريو ليس بالأسوأ ولا بالأحسن، ماذا لو كنَّا محاكاةٍ أطلقتها سلالة الديناصورات التي لم يضربها أيّ نيزكٍ، وهي الآن تتسلَّى بمراقبة عالمٍ تحكمه الثدييَّات؟ أم ترانا نعيش في خدعة بيولوجيا كربون صُمِّمت حول تركيب لولبيّ مزدوج للحمض النوويّ، عالم محاكًى صمَّمته كائناتٌ فضائيَّةٌ تنتظم حياتُها حول لولبٍ ثلاثيٍّ وذرَّة كبريت؟ هذا إن لم نكن مجرَّد محاكاةٍ لكائناتٍ هي نفسُها محاكاةٌ لكائناتٍ أكبر، جملة من عمليَّات المحاكاة المتداخلة، عوالم بعضُها في قلبِ بعضٍ، كطاولاتٍ متراكبة؟

كيف لنا أن نعرفَ مظهرنا؟ ما دمتُ داخل البرنامج، أنا امرأةٌ بيضاء، شابَّة، شديدة النحافة، ذات شعرٍ أسود طويل، وعيْنان سوداوان، ما المانع في أن تضع لي المحاكاة عددًا من الوجوه والأجساد بقدر عدد مخاطبيَّ؟ وهاك يا أدريان - وهنا غصَّت ميريديث بالغضب حدَّ الاختناق - فكرةٌ ليست بالعبثيَّة حقًّا: هل توجد حياةٌ أخرى زائفة بعد موتنا الزائف؟ أجل، ما الذي يمنع كائناتٍ على هذه الدرجة من التفوُّق والعبقريَّة، من أن تضيف إلى محاكاتها جناتٍ تحشوها بالتفاهات، مكافأةً لكلِّ هذه البرامج الطيِّعة التي خضعت لإملاءات كلّ العقائد التي فُرضت عليها؟ ما المانع في أن تكون قد صُمِّمت جنَّةً لجميع البرامج المسلمة التي التزمت بالطعام الحلال، وبأداء صلواتِها الخمس في تقوًى وخشوع؟ وفردوس أخرى للبرامج الكاثوليكيَّة التي كانت تقصد القدَّاس في جحافلَ كلّ يوم أحد؟ وجنَّة لعبَّاد تلالوك، إلٰه الماء عند الأزتيك، أولئك العبَّاد الذين كان يُضحَّى بهم، ويُرمونَ من فوق الأهرامات، ليعودوا إلى الحياة في شكل فراشات؟

وإن كان ثمَّة ألف جحيمٍ لكلِّ هذه البرامج المخزية، بين مرتدٍّ، وكافر، ومفكِّرٍ حرٍّ، ألف جهنَّمٍ تحترق فيها خالدةً تلك العقول الحرَّة، عذابًا افتراضيًّا أبديًّا، حيث يُنكَّل بها على يد زبانيَّةٍ حُمرٍ وتفترسُها وحوشٌ ضارية الوجوه؟ لا بل الأدهى من ذلك كلِّه، ما المانع في أن يكون هؤلاء العباقرة الماكرون قد صمَّموا كلّ برنامجٍ بحيث يعبدُ الإلٰه الخطأ. وحالما يموت تواجهه الحقيقة المُرَّة: مفاجأة يا عزيزي، لقد ظللت عاكفًا على الإلٰه الخطأ، اعتنقتَ المسيحيَّة، البوذيَّة، اليهوديَّة، الإسلام؟ آسفون أيُّها المغفَّل، كان ينبغي أن تكون مورمونيًّا، هيَّا كُبُّوه في جهنَّم!

في نهاية المطاف، ألم تخلق آلهة الأزتيك العالم مرارًا، وتدمِّره مرارًا؟ بلى، لقد سلَّط الإلٰه أوسيلوتوناتيوه على البشر نمور اليغور تفترسُهم، ومسخهم إيهِكاتوناتيوه قردَةً، وغمرهم كويوتوناتيوه بطوفانٍ من نارٍ، وأغرقَهم أتوناتيوه في الماء وقَلَبَهُم أسماكًا.

تلكم هي الأسئلة التي تطرحها على نفسِها ميريديث، أو ربَّما يطرحُها البرنامج المسمّى ميريديث الذي تعلَّم الكثير عن آلهة الأزتيك. ثم إنَّ معاطب هذا العالم، من غير نيَّةٍ في الإساءة إلى الأديان التوحيديَّة، قد تُفسَّرُ على نحوٍ أفضل إن نحن أرجعناها إلى صراعٍ لا ينتهي بين عدَّة آلهة.

فجأةً، انتابت ميريديث الرغبة في فنجان قهوةٍ، مع أنَّها لا تحبّ القهوة. تعنّتت الآلة في الاشتغال - الأوغاد قد برمجوا حتى الأعطاب في محاكاتهم ـــــ، وحين سال أخيرًا السائل الأسود الزبديّ، التفتَت إلى أدريان الذي كان قد لزم حتى تلك اللحظة الصمت.

كان ينظر إليها وفي قلبه افتتانٌ قرمزيٌّ. حقًّا إنَّه يحبّ كلَّ ما فيها، خدَّيْها المورَّديْن حين تفقد السيطرة على أعصابها، قطرةَ العرق المتلألئة على طرف أنفها، وطريقتها في ارتداء قمصانٍ واسعةٍ على عودها الناحل. لربَّما كان هذا الانجذاب الذي يشعر به نحوها هو نفسُه برنامجًا! لا يأبه بذلك. لربَّما الحياةُ الحقّ تبدأ حين نعرف أنَّنا لا نملك حياة.

ما الذي سيتغيَّر بالنسبة إليهما في نهاية المطاف؟ سواءً كنَّا كائناتٍ محاكاةً أم لم نكن، فإنَّنا نعيش، ونحسّ، ونحبّ، ونكره، ونبدع، وسوف نموت مخلِّفين أثرًا ضئيلاً ضمن هذه المحاكاة. ماذا يُغيِّر في الأمر أن تعرف؟ عليك دائمًا أن تفضِّل الغموض على العلم. نِعم الرفيق الجهل، وبئس المنغّصُ العلم. خيرٌ لك أن تكون محاكى وسعيدًا.

رشفت ميريديث رشفةً من القهوة المُرَّة، وابتسمت:

- شكرًا لأنَّك عملت على استدعائي يا أدريان. إنَّما مقدار غضبي من مقدار صعوبة ما نعيشه. أمَّا الحقّ، فأنا سعيدةٌ غاية السعادة لأنَّني في هذا المركب، بصحبتك.

قهقهت الطوبولوجيَّة الإنجليزيَّة، وكانت في تلك اللحظة، مثلها مثل أدريان، لا تحفل أكانت ضمن محاكاةٍ أم لم تكن، وكذلك سعادتها لم تكن مجرَّد عَرَضٍ من أعراض تناول المودافنيل. راحت تغنِّي على لحن I Can't Get No Satisfaction:

I can be no no no no simulation

No no no

،And I cry and I cry and I cry

I can be no no no

ترقص وتدور على أنغام الرولنغ ستونز. ولمَّا ظلَّ أدريان ساكنًا متبلِّدًا، وقد غمره التأثُّر، فقد أمسكت بيده وسحبته إليها:

- هيَّا يا أدريان، لا تظلّ هكذا، ساكنًا كمزهريَّة! I can be no no no،

قال أدريان لنفسه: ما أروعه من حبٍّ! ما أروعه من حبٍّ هذا الذي أشعر به نحو هذه المرأة!

ثم بغتةً سحبها إليه، وأوشك أن يطوِّقها بذراعيْه ويقبِّلها، وقد دوَّخته الرقَّة والرغبة، فإذا بالجنرال سيلفريا يقتحم عليهما الغرفة.

قال الجنرال ولم تبدُ عليه ذرَّةٌ من انزعاج:

- بروفسور ميلر، طائرة هليكوبتر تنتظرك في المدرَّج. ستنطلق من فورك إلى البيت الأبيض. الرئيس ينتظرك.

رؤساء

السبت 26 يونيو 2021، س 11

الجناح الغربيّ، البيت الأبيض، واشنطن

مسح الرئيس المكتب البيضاويَّ في حماسةٍ بركانيَّة، وتسمَّرت عيناه في السجَّاد الأبيض السميك. جاس الغرفة بنظرةٍ شاملةٍ كاملة، في الاتِّجاه المعاكس لعقارب الساعة، تراقبُه بلامبالاةٍ نظرةُ التمثال النصفيّ لوِنستون تشرشل، وبالكاد تفوقها اهتمامًا به نظرةُ جورج واشنطن المطلَّة من إطار لوحته.

إنَّهم أربعةٌ ينتظرون على مقاعدَ أمام المكتب الرئاسيّ: المستشار الشخصيّ، سكرتير الدولة للولايات المتَّحدة الأميركيَّة، مستشارة علميَّة، وأخيرًا أدريان ميلر المأخوذ بالنسر الهائل المنقوش على لافتة مكتب ريزولت.. أدريان الذي ما إن وصل حتى استقبله مدير البروتوكول بقميصٍ أبيض نظيفٍ ومعطَّر، قائلاً: سنستغلُّ الفرصةَ لنغسل تي شورتك يا بروفسور ميلر.

غمغم الرئيس عابسًا وهو يعود إلى مجلسه: - لا رغبة عندي في الاتِّصال بالرئيس الفرنسيّ.

قال المستشار الشخصيّ: - لكنَّنا نحتجز سبعًا وستِّين من الرعايا الفرنسيِّين. وكذلك طائرة الخطوط الفرنسيَّة، ينبغي الاتِّصال بها يا سيّدي الرئـ...

- كلاَّ، يعني كلاَّ. سأتَّصل أوَّلاً بجين بينغ. كم عدد الصينيِّين بحوزتنا؟

- عشرون تقريبًا، يا سيِّدي الرئيس. لكنْ مباشرةً بعد الاتِّصال بالرئيس الصينيّ، ستَّتصل بالرئيس الفرنسيّ.

- نعم، سنرى. جينفر صِليني بالصينيّ، وأنا بعد دقائق سأصلك بجين بينغ يا بروفسور مولر، أليس كذلك؟

التفت الرئيس صوب أدريان مولر الذي يثير في ذهنه صورةً مبهمةً، لكنْ أكثر شبابًا، لذلك الممثِّل الذي أدَّى دورَ فورست غامب، ما كان اسمُه؟

لم يحر أدريان جوابًا. تعبُ الليالي البيضاء يرخي بثقله عليه، ويفكِّر، بشيءٍ من ذهولٍ، في جنون اللحظة: إلٰهي، أنا في المكتب البيضاويّ مع الرئيس، وبعد قليلٍ، أتحدَّث إلى الرئيس الصينيّ، وأنا أرتدي قميصًا أبيض.

قال الرئيس:

- بروفسور مولر، أنا أتحدَّث إليك...

ثم فكَّر: توم هانكس، هو ذا. إنَّه يذكِّرني بتوم هانكس.

أجاب أدريان:

- نعم يا سيِّدي الرئيس. اسمي ميلر يا سيِّدي الرئيس.

- قلت إنِّي سأوصلك بجين بينغ، وستشرح له.

سأله المستشار الشخصيّ: - هل يُجيب البروفسور ميلر على كلِّ الأسئلة، بلا استثناء؟

هزَّ الرئيس كتفيْه، والتمس الجوابَ عند وزير الدولة، فأومأ الوزير برأسه موافقًا: - قُل ما شئت يا بروفسور. على أيِّ حالٍ، لسنا نعرف الشيء الكثير.

قال صوتٌ أنثويّ: - سيِّدي الرئيس، سأصلك بالرئيس الصينيّ.

وفي تلك اللحظة، على بعد أحد عشر ألف كيلومترًا، في قصر تشونغنانهاي، وتحديدًا في قاعة المشاورات بالمجمَّع الغربيّ، رفعت السمَّاعةَ يدٌ.

قال الرئيس:

- مرحبًا أيُّها الرئيس جين بينغ. معذرةً، أعرف أنَّ الوقت متأخِّر.

- لم أكن نائمًا، عزيزي الرئيس.

- جيِّد إذن، جيِّد. أهاتفك لموضوعٍ بالغ الأهمِّيَّة. نحن نواجه وضعيَّةً لم نعرف لها قطّ مثيلاً. العالم كلّه يواجهُها، ولهذا السبب، كنتَ أنتَ أوَّل من اتَّصلتُ به. أنا اللحظة مع مستشاريَّ في العلوم. قد يتدخَّلون لمساعدتي في أيِّ لحظة. إليك الوضع: منذ يوميْن، حطَّت على أراضينا طائرةٌ من الخطوط الجوِّيَّة الفرنسيَّة. طائرةٌ حطَّت من قبل منذ ثلاثة أشهر.

قال الرئيس الصينيّ وهو يحبس ضحكة: - ماذا؟ يحدث كثيرًا أن تحطّ الطائرة مرَّاتٍ عديدة، خاصَّةً إذا ما كانت الرحلة منتظمة...

- إنَّ الأمر أعقد من هذا. سأترك المجال لواحدٍ من أكفأ مستشاريّ العلميِّين، البروفسور مولر من جامعة برينستون.

قام أدريان من مقعده، أمسك بالسمَّاعة التي ناوله إيَّاها الرئيس، وهو يغمغم «البروفسور أدريان ميلر، يا سيِّدي الرئيس...» ثم حاول أن يكون حديثُه في آنٍ واضحًا، ومختصرًا، وشاملاً.

سأله الرئيس الصينيّ: «الطائرةُ حطَّت مرَّتيْن؟»، ثم كرَّر السؤال: «مرَّتيْن؟» طالت المكالمة، وأجاب أدريان عن أسئلةٍ بخصوص السحاب الركاميّ، واختبارات الحمض النوويّ للمسافرين، وظروف احتجازهم... وبعد الفراغ من العرض، تطرَّق أدريان لمختلف الفرضيَّات، محاولاً تفسير ما لا يُفسَّر. ونظرًا لذهول مخاطبه، اضطُرَّ غير ما مرَّةٍ إلى استعادة الحديث من جديد. وبعد ربع ساعةٍ طويلة، طالبَ الرئيسُ بلائحة المواطنين الصينيِّين المحتجزين في قاعدة ماغواير.

همست المستشارة العلميَّة: - هل عندك شكٌّ في أنَّ اللائحة لديهم؟ إنَّهم يعرفون أين يوجد كلّ صينيّ، في كلّ لحظة، لذا لا بدَّ أنَّ أولئك الذين ركبوا إلى نيويورك شهر فبراير...

خلص الرئيس الصينيّ إلى القول: - سنترك سُلطاتنا تحلّ المشاكل العرضيَّة، بلِّغ رئيسك تحيَّاتي، وأخبره بأنَّني سأتَّصل به خلال الساعة التالية.

ثم إنَّ رجل الأمبراطوريَّة الوسطى أغلق الخطَّ، وكذلك فعل أدريان، وجلس. وظلَّ الرئيس الأميركيّ ساكنًا كالمصعوق. أخذ رجلُ الرياضيَّات يتأمَّل الرجل البدائيّ، وفي نفسه تترسَّخ الفكرة المؤسفة، فكرة أنَّ حاصل جمع الظلمات الفرديَّة نادرًا ما يكون نورًا جماعيًّا.

فكَّر كاتب الدولة بصوتٍ مرتفع: - لا بدَّ أنَّهم قد شرعوا في اعتقال «نسخ» مواطني بلدهم.

قال المستشار الشخصيّ: - لقد اتَّصلنا بالرئيس ماكرون يا سيِّدي الرئيس.

- لا أحبّ الفرنسيِّين، وخاصَّةً منهم هذا الشخص. حسنًا يا جينيفر. صليني بهذا الوغد المتعجرف.

اهتزَّ الهاتف، شرب الرئيس كأس ماء، ثم رفع السمَّاعة، وابتسم ابتسامة مضطرّ.

- عزيزي إيمانويل، أنا سعيدٌ جدًّا إذ أكلِّمك. أرجو أنَّك بخير، أنت وزوجتك الجميلة... أهاتفك في أمرٍ بالغ الخطورة...

وعلى بُعْد أحد عشر ألف كيلومتر من مكتب الرئيس الأميركيّ، كان نظيره الصينيّ يراقب لوهلةٍ الليلَ يهبط في هدوءٍ على البحيرة التي تتوسَّط المدينة المحرَّمة الجديدة. وقد زرعت ضفاف البحريَّة بمئاتٍ من أشجار الجنكة، كي يستطيع أن يتملَّى فيها فيتأمَّل. لطالما فتنته هذه الشجرة البدائيَّة. كانت موجودةً منذ ملايين السنين قبل ظهور الديناصورات، وسوف تبقى بعد فناء البشر. إنَّها صيغةٌ نباتيَّةٌ لـ «تذكرة الموت». ثم إنَّ جينغ بينغ عاد يجلس إلى طاولة المشاورات. وقد اجتمعت دستةٌ من العساكر والمدنيِّين، صامتين. وكانوا قد أنصتوا إلى تفسيرات ميلر، وهم يدوِّنون ملاحظاتهم. إنَّ هذه الأحداث غير المتوقَّعة، التي ستترتَّب عليها نتائج لا حصر لها، هي أشدّ «البجعات السوداء» سوادًا.

على شاشات القاعة الرئاسيَّة تُعرض الصوَر التي التقطتها الأقمار الاصطناعيَّة الحديثة ياوغان 30 - 06، التي نُشرت مؤخَّرًا على امتداد الكوكب. الدقَّة متناهية: يُقرأ بدقَّةٍ رقم طائرة البوينغ التابعة للخطوط الفرنسيَّة، ويظهر بوضوحٍ الموكب الطويل بين الطائرة والحظيرة، كما يلاحظ فيلق طائرات الهليكوبتر. كذلك تُعرض وجوه الركَّاب جميعهم: منذ يومِيْن ووزير الأمن

القوميّ يجمع عنهم كلّ المعلومات الممكنة، ويجمعها بفعاليَّةٍ لا تقلّ عن فعاليَّة وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة.

لخَّص جين بينغ الكلام: - هذا جيّد. هم إذن يعانون الورطة نفسها التي نعاني منها نحن منذ أبريل الماضي، ورطة رحلة يناير بيكين - شنتشن. إنَّهم يحتجزون في قاعدتهم بالساحل الشرقيّ مائتين وثلاثة وأربعين شخصًا... مقابل كم من أولئك الذي احتجزناهم في طائرة إيرباص؟

قال جنرال:

- عددهم ثلاثمائة واثنان وعشرون أيُّها الرفيق الرئيس. ومعظمهم ما يزالون في القاعدة العسكريَّة الجوّيَّة هوبيانغ.

سألته امرأة في زيٍّ مدنيٍّ: - هل علينا أن نُعلم الأميركيّين بأمر هذه الرحلة؟

- ليس الآن. وربَّما لن نفعل أبدًا. لم يسألوا عن أيِّ راكبٍ من الأميركيّين الخمسة عشر الذين كانوا على متن الرحلة. لا أحد شعر باختفائهم.

قال عسكريٌّ آخر يحمل على كتفيْه أربع نجومٍ: - بالنسبة إليهم هم أيضًا، فرضيَّة المحاكاة هي الأرجح...

- نعم، بالنسبة إليهم هم أيضًا...

قاطعَ العسكريَّ الرئيسُ. رئيسُ 689 152 415 1 برنامج...

لمَّا غادر أدريان البيت الأبيض، لحق به رئيس البروتوكول في البهو. مدَّ إليه كيسًا من نسيجٍ أسودَ مزيَّنٍ بالعلم الأميركيّ: - تي شرتك داخل الكيس يا بروفسور ميلر. لقد غسلناه، وأخذنا حرِّيَّتنا... فرتقناه. زِدْ على أنَّني اضطررت إلى أن أبحث في الإنترنيت عن «فيبوناتشي» لكي أفهم عبارتك «I love zero, one, and Fibonacci». طريف، إنْ جاز لي القول. تستطيع طبعًا الاحتفاظ بالقميص. كما ستجد في الكيس كنزةً عليها شعار البيت الأبيض. لقد أصرَّ الرئيس على أن يوقِّعه لك بنفسه.

وقبل أن يجد أدريان الوقت للردّ، أضاف رئيس البروتوكول: - لا تقلق يا بروفسور. لقد أعطيناه قلمًا زائلاً، وسيمَّحي التوقيع بعد أوَّل غسيل.

The people has the right to know

مقال نيويورك تايمز،

بتاريخ الأحد 27 يونيو 2021

في ما يعاكس البداهة، تنكرُ القوَّات الجوّيَّة الأميركيَّة احتجازَ أيّ طائرة خطوطٍ فرنسيَّة، مع ركَّابها في قاعدة ماغواير.

يوم الخميس، بداية المساء، أُجبرت طائرةُ بوينغ 787 تابعة للخطوط الفرنسيَّة على الهبوط في القاعدة الجوّيَّة العسكريَّة ماغواير، الواقعة في نيو جرسي. وفي اللحظة التي نكتب فيها هذا المقال، يقبع الركَّابُ، محتجزين سرًّا، في بنايةٍ هائلةٍ أُعِدَّت لاستقبالهم. وعلى الرَّغم من إلحاحنا، لم نتلقَّ أيّ توضيحٍ من جانب الجيش، ولا من شركة الخطوط الجوّيَّة.

قاعدة ماغواير، 26 يونيو. لم يصدِّق جون وجوديث عينيْهما، وهما معًا متقاعديْن في الخامسة والستِّين والسادسة والستِّين من عمرهما على التوالي. وكان الزوجان يتاولان العشاء مساء الخميس في حديقة بيتهما بكوكستون (نيو جرسي)، حين حطَّت طائرةُ ركَّابٍ، ترافقها طائرتان حربيَّتان، في القاعدة العسكريَّة ماغواير، على بعد نحو ميلٍ من منزلهما. جون وجوديث معتادان على حركة الطائرات ذهابًا وإيابًا، نقصد الطائرات على شاكلة السوبر هركوليس، والأواكس، لكنْ لم يحدث قطّ أن شاهدا، طيلة ثلاثين سنةً، طائرةً مدنيَّة تحطّ هناك. وقد أكَّد شهودٌ آخرون، من بينهم عساكر، أنَّ الطائرةَ المذكورةَ من نوع بوينغ 787، تحمل شعار الخطوط الجوّيَّة الفرنسيَّة.

وقد نفى أندرو ويلي، الناطق باسم سلاح الدفاع الجوّيّ، أيَّ تكتُّمٍ على الأخبار، لكنَّه يؤكِّد أنَّ قاعدة ماغواير مطوَّقةٌ بأكملها، ويحرسها جنودٌ من المجموعة المقاتلة المنضوية تحت الفرقة 86 لسلاح المشاة، التي وُجِّهت إلى القاعدة ليلة الخميس 24 إلى الجمعة 25. الدخول ممنوعٌ إلاَّ بتصريحٍ. على امتداد طريق الدخول، رُصَّ صفَّان من الدبَّابات - لم يكن عددها من قبل يتجاوز

سبعًا ـــــ، تراقبُ دخولَ وخروج جنود القاعدةِ الذين يبلغ عددهم أربعة آلاف، والذين تخرُج عرباتهم كقطرات ماءٍ، وتتسبَّب في عرقلة حركة السير في كلِّ الشوارع المحيطة.

بحسب مصدرٍ يعمل ببرج المراقبة في مطار كينيدي، فإنَّ طائرة بوينغ 787، تظهر عليها أضرارٌ، قد اقتحمت بالفعل المجال الجوّيّ الوطنيّ، وأرسلت للمطار شفرةً خاطئة تخصّ رحلةً من رحلات فرنسا - نيويورك. وبأمرٍ من قيادة الدفاع الجوّيّ لأميركا الشماليَّة، تمَّ توجيه الطائرة مباشرةً إلى قاعدةٍ عسكريَّةٍ في الساحل الشرقيّ. وبحسب عمَّالٍ مدنيّين، فضَّلوا عدم ذكر أسمائهم، أُنزل ما يزيد عن مائتي راكبٍ في بنايةٍ ضخمة، أُعدَّت لهذا الغرض. ومن حينها، لوحظت في الأجواء حركةٌ كثيفةٌ. بعد ذلك، رُكنت البوينغ في مرآبٍ آخر، بعد أن التُقطت لها عدَّة صورٍ تؤكِّد أنَّ الأمر يتعلَّق بطائرة 8 - 787. بعض الصور التي نُشرت على مواقع التواصل حُذفت على الفور.

من جهتها، أعلنت شركة الخطوط الجوّيَّة الفرنسيَّة، على لسان مدير التواصل فرانسوا برتران، أن لا طائرة من أسطولها اختفت. وقد أمدَّت الشركة الفرنسيَّة الإعلام بلائحة الثلاث وعشرين طائرة من صنف بوينغ 787 التي تشغِّلها في نحو ستَّة خطوط، وبعضها يحمل شعار KLM، وكلّها قد تمَّ تحديد موقِعها. ولنذكِّر بأنَّ شركة بوينغ قد سلَّمت إلى الآن 387 طائرة بوينغ من نوع 8 - 787 في العالم بأكمله، وأنَّ الخطوط الجوّيَّة الفرنسيَّة هي ثاني زبائنها في القارَّة الأوروبيَّة. كذلك لم تسجِّل شركة صناعة الطائرات التي تتكفَّل بالصيانة، اختفاء أيَّ طائرة. وأيضًا لم يسجِّل أيُّ مطارٍ من مطارات الساحل الشرقيّ أيَّ حادثٍ يتعلَّق برحلةٍ تجاريَّة.

غير أنَّ المرجعَ 787 المقروء في بعض الصور الملتقطة للطائرة المذكورة، يوافق مرجعَ طائرةٍ أخرى تشتغل عادةً على الخطِّ باريس - نيويورك. وتؤكِّد شركة الطيران أنَّها تُشغِّل حاليًّا طائرة 787 بالمرجع المذكور. و«لدواعٍ أمنيَّة»، احتجزت السلطات الأميركيَّة الطائرة صبيحة السبت، وما تزال مركونةً في مطار كينيدي، حيث ستخضع لعدَّة فحوص. يتعلَّق الأمر بطائرةٍ تعرَّضت لأعطابٍ خلال الاضطرابات الجوّيَّة الناجمة عمَّا سُمِّيَ «عاصفة العقد»، شهر مارس الماضي. وكانت تلك الاضطرابات قد تسبَّبت في خسائر فادحةٍ لعددٍ من الطائرات والسفن.

وما يزال الغموض يلفّ هويَّة الطائرة التي أُجبرت على الهبوط في قاعة ماغواير. هل ما يزال ركَّابها الذين يفوق عددهم المائتيْن، محتجزين في بنايات قاعدة ماغواير الشاسعة؟ تؤكِّد

مصادر مقرَّبةٌ من السلطات العسكريَّة أنَّهم ما يزالون بالفعل كذلك. غير أنَّ القانون الدوليّ المنظّم للملاحة المدنيَّة لا يسمح باحتجاز المدنيّين بدون محاكمةٍ، إلاَّ في حالاتٍ تحدِّدها بصرامةٍ القوانين الوطنيَّة. ومن تلك الحالات، حالة الإرهاب، أو، بخاصَّة، حالة الطوارئ الصحِّيَّة التي تفرض الحجر على الطاقم والركَّاب. ولا يمكن أن تتمّ الحالة الثانية إلاَّ بأمرٍ من الرئيس، وباستشارةٍ مع مركز السيطرة على الأمراض (CDC). وإذ سألنا، بهذا الصدد، كينيث لوغان، مدير مركز السيطرة على الأمراض، فقد أكَّد لنا أن لا وجود لأيِّ مشكلٍ وبائيٍّ على أراضي الدولة.

وما يزيد من الدهشة إزاء هذا الوضع، هو أنَّه منذ يوميْن لم يسجَّل أيّ ردٍّ في أيِّ منطقةٍ ما من العالم، أي لا أحد أبدى اهتمامًا لحالة الطائرة ومصير الركَّاب. وأكَّد البيت الأبيض، على لسان مديرة التواصل التي عُيِّنت حديثًا، أنَّه لم يتمّ احتجاز أيّ مواطنٍ أميركيٍّ أو أجنبيٍّ من غير محاكمة. وبما أنَّ ثلثي الركَّاب فرنسيُّون، فقد اتَّصلنا بالسفارة الفرنسيَّة، فأكَّدوا أن لا وجود لمواطنين فرنسيِّين محتجزين رغمًا عنهم في قاعدة ماغواير، ورفضوا مناقشة الفرضيَّة من الأصل.

مكتب المحقِّقين،

أنجا شتاين

وضع الخريطة

السبت 26 يونيو، 2021، س 23

قاعدة ماغواير الجوِّيَّة

وضع الجنرال سيلفريا آلة التحكُّم على الطاولة، وظلَّ مقال النيويورك تايمز معروضًا على الشاشة.

- سيُنشر المقال على الإنترنيت في خلال ساعةٍ، ولا تسألوني كيف حصلَتْ عليه وكالةُ الأمن القوميّ، المهمّ أنَّها تعطينا السبق في الاطِّلاع على ما يُنشر. يومان إذن. الحقّ أنَّنا لا نستطيع أن نأمل في التستُّر على طائرة بوينغ وركَّابها المئتين فترةً أطول من ذلك.

قال بريان ميتنيك منبِّهًا: - الإشاعة تنتشر بسرعةٍ على الشبكة. لقد بلغنا نحو خمسمائة إحالةٍ، وما تزال الإحالات في صعودٍ. باتِّفاقٍ مع الخطوط الفرنسيَّة، مسحنا من نظام الحجوز لائحة الركَّاب الأصليَّة لرحلة 10 مارس، وعوَّضناها بلائحة أسماءٍ وهميَّة. والآن، نحن نعمل على جميع محرِّكات البحث عن رحلات الطيران، بحيث نمسح آثار مسارات الركَّاب كلّها. حتى وإن لم تنشر بعد أيّ معلومةٍ تخصّ ركَّاب الطائرة، إلاَّ أنَّ ثمّة إشاراتٍ إلى عمليَّات الاعتقال التي نقوم بها الآن في أماكن مختلفةٍ من البلاد.

صحَّح له سيلفريا: - بتعبيرٍ أصحّ، لا يتعلَّق الأمر باعتقالات، إنَّما هي فقط «استدعاءات أملتها دواعٍ تخصّ الأمن القوميّ».

سأله أدريان: - وإلى أين تقتادون الموقوفين؟

أجابه الجنرال بنبرة انزعاج: - المكتب الفدراليّ ووكالة الأمن القوميّ يتكفَّلان باقتيادهم إلى هنا، في عرباتٍ سوداء متكتِّمة. واسمحا لي، يا ميتنيك وأنتِ يا جامي، أن أقول إنَّه تصرُّفٌ لا ينمّ عن ذكاءٍ، هذا الذي أقدمتْ عليه وكالتاكما.

أجاب رجل الأمن القوميّ: - وإن سمحتَ لي أنا أيضًا بإبداء ملاحظةٍ يا سيِّدي الجنرال، ليس من الذكاء أيضًا تجميع كلّ أولئك الأفراد في مكانٍ واحدٍ، أقصد القاعة H. فقد استطاع بعضهم التعرُّف على بعضٍ ممَّن شاركهم الرحلة... وباتوا الآن يعرفون جميعًا بأنَّهم ركبوا على متن طائرة الخطوط الجوّيَّة الفرنسيَّة نفسها في شهر مارس الماضي... يتخيَّلون الأسوأ، فيروس، أو وجود إرهابيٍّ بينهم.

قالت جامي بودلوفسكي: - لقد زرع مكتب التحقيقات الفدراليّ مختصِّين نفسيِّين بينهم، تحضيرًا لإمكان المواجهة... ينبغي تهيئتهم للقاء... نُسخِهم.

تنهّد سيلفريا: - طبعًا. فنحن لا نستطيع أن نطلق الرصاص على المائتين وثلاثة وأربعين شخصًا الموجودين في الحظيرة... مؤسف! أتفق معك في ملاحظتك يا ميتنيك، لكنْ هذا ما حدث.

تجهَّم رجل الأمن القوميّ، وواصل: - إنَّ قنوات سي إن إن، وسي بي إس، وفوكس، تبعث بزمرٍ من الصحفيّين في شاحناتٍ صغيرةٍ مزوَّدةٍ بأجهزة تواصل على الساتل، وتُزوِّدهم بالسندوتشات والقهوة الساخنة. وأُضيف أنَّ إليان كيجانو، استضافت على CBS Evening News حاخامًا وقسًّا، كضيفيْ نهاية النشرة. وقد قالا إنَّ البيت الأبيض استدعى ممثِّلين عن الديانات ليناقشوا «سؤال الروح»، وإنَّه ينبغي انتظار إعلانٍ هامّ.

تجهَّمت جامي بودلوفسكي: لا ريب في أنَّ الحاخام الليبراليّ هو من تحدَّث. لا يستطيع أن يكبح نفسَه. يحبّ كثيرًا الظهور على الشاشة. ولم تتوقَّف الأمور عند هذا الحدّ، لقد أعلنت إن بي سي أنَّ عددًا من العلماء متغيِّبون عن أماكن عملهم، وأنَّ بعضهم قد تجمَّعوا هنا...

قال ميتنيك متفكِّرًا: - إنَّ للصحفيّ عدوَّيْن: الرقابة والخبر، وهذه ليست سوى البداية...

قال سيلفريا: - بل هي النهاية. ستبدأ المواجهة بين ركَّاب رحلة مارس وركَّاب رحلة يونيو في أقرب فرصةٍ ممكنة. ومساء غدٍ الأحد، أو صباح الاثنين سيَعهد الجيشُ بهؤلاء الخلقِ جميعًا إلى مكتب التحقيقات الفدراليّ. هل ترون مشكلةً في ذلك يا جامي؟

- لا مشكلة يا سيِّدي الجنرال. لا أعرف مشكلاً يصمد أمام غياب الحلّ.

III

نشيد العدم

(بعد 26 يونيو 2021)

لا مؤلِّفَ يكتبُ كتابَ القارئ، لا قارئ يقرأ كتابَ المؤلِّف. في الحدِّ الأقصى، قد تكون نقطة النهاية واحدةً بالنسبة إليهما معًا.

(الخلل،

ڤيكتور ميزيل)

لقاء مع النوع الثالث

الأحد 27 يونيو 2021

شارع لافاييت، باريس

قرصةٌ على الخدّ، ثم استيقظ بْلِيك على مقعدٍ من فولاذ، باردًا، مقيَّدًا، مكمَّمَ الفم، عاريًا. شُغلُ محترفٍ: لا يستطيع أن يتحرَّك قيد أنملة. تعرَّف على الديكور، رصينٌ ووظيفيّ: إنَّه في بيته بشارع لافاييت. لا بل تعرَّف حتى على الرباط الذي يقيّده، إنَّه شريط القماش شديد المقاومة الذي كان قد اشتراه شهر أبريل المنصرم. بالكاد يتذكَّر أنَّه ساعة دخوله الشقَّة المؤلَّفة من مرفقيْن، قد شعر بوخزة إبرةٍ سريعةٍ في قفاه، وخرَّ من فوره.

المرفق حيث هو غرفةٌ: تحوي سريرًا ضيّقًا، وتنفتح على حمَّامٍ به حوضٌ كبيرٌ مطليٌّ بالمينا. قد يبدو أنَّ الحوض قد اختيرَ ليكون جزءًا من الديكور العامّ، لولا أنَّه يؤدِّي، في المقام الأوَّل، وظيفةً عمليَّة. لم يكن يستطيع الالتفات بوجهه، لكنَّه لم يكن محتاجًا لذلك لكي يُدرك أنَّ الغرفة بأكملها قد غطّيت ببلاستيك شفَّاف. ولا شكَّ في أنَّ بْلِيك مارس - لنُطلق عليه هذا الاسم - يدرك ما يعنيه كلّ ذلك. وإتمامًا للديكور الذي لا يتجاوز سلسلة ديكستر، تلمع عن يمينه نحو ثلاثين أداة من أدوات الجراحة، بين المشارط والمباضع، والمناشير الكهربائيَّة، والمَقاصّ والشفرات؛ وقد تعرَّف عليها جميعًا. بعضها لم يستخدمه قطّ، شأن هذا المثقاب الذي اكتفى بتجريبه على عظامٍ نخاعيَّة. ليس مرعوبًا، لكنَّ ذلك بالتأكيد أحد الأعراض الجانبيَّة المهدِّئة التي تسبِّبها حقنة الميدازولام التي حُقن بها.

ولزمته ثوانٍ طويلة حتى يتعرَّف، خلف عصابته، على الرجل المرتدي طقمًا كاملاً، واقفًا أمامَه يتأمَّله وهو يستيقظ. جحظت عيناه ذهولاً - والذهول كلمةٌ أوهن من أن تؤدِّيَ المعنى.

تبادل الرجلان النظر طويلاً. بْلِيك يونيو يتأمَّل أسيره. منذ ثلاثة أيَّامٍ وهو يفكِّر، يحاول إيجاد منطقٍ للأمور، لكنْ سدًى، لم يتوصَّل إلى تفسير. غير أنَّ اللامعقول لا يَعدم الحسّ العمليّ، لذلك نصبَ فخَّه. لم يكن يملك طريقًا أخرى. الذبابة لا تضرب البتَّة للعنكبوت موعدًا.

فجأةً أخذ بْلِيك مارس ينتفض، يهدر، يعوي، يغمغم بكلماتٍ من تحت عصابته، لكنَّ بْلِيك يونيو لم يفكّ رباط فمه. بصوتٍ مكتومٍ، قال له في أذنه: - لن أتلو خطبة. أنت لا تفهم ما يحدث. ولا أنا أفهم. ولا أهمِّيَّة لذلك. أنا أنت، وأنت أنا. وهذا كثير، لا يمكن أن نكون اثنيْن. تفهم بالتأكيد.

تناول بْلِيك يونيو قلم رصاصٍ ومفكَّرة، وجلس إلى جانب الحاسوب المشغَّل.

- جميع أرقام حساباتي البنكيَّة تمَّ تغييرها. أنت بالطبع من فعل ذلك، ما دمتُ أقوم بذلك كلّ ثلاثة أشهر. تعرف طريقتنا في حفظ هذه الحسابات... هزَّ رأسك تعبيرًا عن «نعم».

أطاع بْلِيك مارس الأمر. الأفكار في ذهنه تتزاحم، حتى إنَّه تساءل عمَّا إذا كان يعيش حلمًا مفرطًا في الواقعيَّة!

- سوف أدخل أمامك إلى حساباتي البنكيَّة، وأتلو عليك أرقامًا وحروفًا، وسوف تؤكِّدها لي بهزَّةٍ من رأسك. عند أوَّل خطأ سأقتلع ظفرًا من أظافرك، وعند الخطأ الثاني أكسر أوَّل عظمٍ سلامى. لا أعرف من تكون، لكنَّ ذكرياتك تطابق قطعًا ذكرياتي. هل تتذكَّر عَقد أميان منذ سنتيْن؟ هزَّ رأسَك إن كان الجواب «نعم».

هزَّ مارس رأسَه. يتذكَّر... مهمَّةٌ مفصَّلةٌ تمامًا على مقاس الـ ألبان، لكنْ إمّا أنَّ الزبون لم يكن يملك علاقاتٍ توصله إلى الألبان، أو أنَّه كان خائفًا من التورُّط معهم. كان المطلوب فظيعًا لدرجة أنَّه فكَّر في رفض العرض. ثقب ركبتَي الضحيَّة، وكسر مرفقيْه، وبتر أصابعه، وقطع لسانه وعضوَه، وشجَّ صدغيْه، ثم أنهى الحفل بصبّ الحمض على بؤبؤيْه. وكان شرط حصوله على النصف الثاني من مكافأة الستِّين ألف دولار، هو ألاَّ يموت الرجل.

واصل يونيو: - كنت لتفعل الشيء نفسه الذي أفعله أنا لو كنت في مكاني.

مارِس يراقبه مضيِّقًا عينيْه. بْلِيك يونيو يبتسم ابتسامةً تخلو من قسوة. إنَّه أَمْيَل إلى الانزعاج. لم يحبّ عقد أميان. المبالغة ينبغي أن يكون لها حدّ.

- إن لم ترتكب أيّ خطأٍ في أرقام الحسابات، سنناقش أمر المستقبل، أمرًا ما يمكن أن نناقشه بيننا. فهمت؟

هزّ مارس رأسَه، ففكَّر يونيو في عبارة ألكابون: حين يكون المرء مهذَّبًا ومسلَّحًا يحصل على أكثر ممَّا يحصل عليه حين يكون مهذَّبًا فقط.

- حسنًا، لنبدأ. أوَّل بنك: First Caribbean Investment Trust.

هزَّ مارس رأسَه. أغمض عينيْه، وركَّز، وفكَّر في نصف دستةٍ من طيور النحام الورديَّة تحلِّق ليلاً فوق جبال الألب.

- أوَّل كلمة السرّ، حرف؟ نعم. صغير؟ كبير. قبل حرف L لا. قبل من T حسنًا. L M N O P Q R... R؟ جيِّد.

دوَّن بْلِيك R.

الثاني. حرف؟ لا. رقم؟ نعم.

واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. خمسة. ستَّة.

هزّة رأس.

ستَّة؟

هزَّة رأس. دوَّن بْلِيك رقم ستَّة بعد حرف R.

وبعد ربع ساعة، كان بْلِيك يونيو قد استعاد جميع حساباته، وغيَّر كلمات المرور، متَّبعًا المنهجيَّة نفسها. جملةٌ لكلِّ حسابٍ من الحسابات الثلاثة، يسهل كتابتها. بالنسبة لمصرف First Caribbean Investment Trust مثلاً، كانت كلمة السرّ «ٱنظر ستَّة طيورٍ ورديَّة اللون!» جملة لا تعني الشيء الكثير، ويمكن كتابتها على هذا النحو. «ا6طول!» ويكفي أن يتذكَّر ستَّة طيور نحَّامٍ ورديَّة. والثانية لمصرف Latvijas International Bank: «تعبرُ سماءً واحدةً سوداء من فينيسيا إلى باريس». «تس1سمفإب». إلخ.

عرف كذلك معرّفات وكلمات المرور الجديدة لحسابه على الإنترنت المظلم، وحتى رمز فتح هاتفه الذي تمَّ تغييره. قرأ الرسائل، واكتشف في جدول يوميَّته أنَّه - نقصد «جو» - قد تعشَّى عدَّة مرَّاتٍ مع شخصٍ يُدعى تيموتي لا يعرف عنه بعد أيّ شيء. لكنَّ فضول يونيو لم يبلغ حدَّ إزالة الشريط اللاصق من على فم مارس. ليس يخشى أن يصرخ أسيره طلبًا للنجدة، فكلاهما يعرف أنَّ الغرفة معزولةٌ كلّها، جدرانها، وأرضيَّتها، وسقفها. لكنَّه لا يريد أن تتسلَّل إلى نفسه ذرَّةٌ من شكٍّ، لا يريد أن يتردَّد.

وحين أبصر مارس يونيو يقف، لم يحتَج تفسيرًا. بالطبع، كان ليفعل الشيء نفسَه. أغمض عينيْه، كلّ ما يريده هو أن يمضي الأمر سريعًا. تحرَّك يونيو، ووقف خلفَه، ومن غير استعجالٍ، حقنه في قفاه بجرعةٍ من البروبوفول، ففقد وعيَه في ثوانٍ. لا داعي إلى ألمٍ مجَّانيّ. فبْلِيك لا يكره نفسَه إلى هذه الدرجة. دقيقةٌ واحدةٌ بعد ذلك، حقنة كورار كانت كفيلةً بإيقاف قلب مارس. قديمًا قال هوميروس إنَّ الموت شقيق النوم وتوأمُه.

قطع بْلِيك - لم يعد الآن مجالٌ للخلط بين الشخصيْن - الشريطَ اللاصق، وأسند الجثَّة قبل أن تسقط على الأرضيَّة. عرَّاه، وطوى الملابس بعناية - فهي تناسبه مقاسًا على أيِّ حالٍ ـــــ، ووضع الجسد في الحوض، رأسُه إلى الأسفل، وساقاه إلى الأعلى، وفتح صنبور الحوض، ثم نحرَ العنق، وتركه يفرغ من دمه. غمس الأصابع في الحمض كي يمحو البصمات. ثم بعنايةٍ، قطَّع الجسد بواسطة المنشار الكهربائيّ، حريصًا على ألاَّ يترك المجال لإمكان تحديد معالم أيّ عضوٍ من أعضاء الجسد، لا يد، ولا قدم. وكانت تنقصه التجربة بعض الشيء. على الظهر، ظهره، لاحظ خالاً لم ينتبه إليه من قبل، خالاً حواشيه غير منتظمة. ينبغي أن يفحصه. ولمَّا قطع العضو، عضوَه، لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور برجفة اشمئزاز. في ثلاث ساعاتٍ، ملأ نحو مائة كيسٍ من أكياس التجميد. لم يبقَ إلاَّ الرأس.

اللعنة. اللاصق.

لقد كاد بْلِيك ينسى ضربة حافر البونيه؟ نَزَع اللاصق عن جبين مارس، وكان الجرح قد بدأ يلتئم. بمشرطٍ حزَّ برفقٍ جلد جبينه، إلى أن بدا له أنَّ النَّدبة الناجمة عنه ستبدو معقولة، عقَّم الجرح،

ووضع عليه اللاصق. ثم أغطس رأسَ مارس في حوض الحمض الذي كان قد جهّزَه؛ أخذ الجلدُ يتحلَّل مُصدرًا دوَّامةً من بخار النتريك.

الساعة التاسعة مساءً. سيتمّ بْلِيك العمل غدًا. نظَّفَ الحمَّام، ونزع الأقمشة الشفَّافة، التي بالكاد أصابها رذاذ الدم، فطواها بعنايةٍ. وكان كلّ ذلك من نافل الاحتياطات، فحتى لو أنَّهم اكتشفوا يومًا ما هذا الدم في الشقَّة، فسوف يكون مطابقًا لدمه. راكم أكياس اللحم في الحوض، وكان الحجم أقلّ من المتوقَّع. ثمانية أكياس، أي أربعة مشاوير.

من هاتفٍ قابلٍ للاستخدام مرَّةً واحدة، أرسل رسالةً إلى رقمٍ سرّيّ: «ثمانية قطع، طوطال كلينياكور»، وأتاه الجواب فورًا: «أوكي. الأربعاء، الثالثة مساء.» يعني قبل الموعد بيوميْن وساعتيْن، أي يوم الإثنين على الساعة الواحدة، سيكون فرانسيس في انتظاره، على متن سيَّارة 4 x 4، في محطَّة بوَّابة كلينياكور.

ثم خرج بْلِيك، وغلق الباب بالمفتاح. يعرف أنَّه سيجد كوينتان وماتيلد قد كبرا، بعض الشيء. ثمَّة حياة بعد الموت، خاصَّةً بعد موت الآخرين.

*

الاثنين 28 يونيو 2021

قصر الإليزيه، باريس

كلّ شيءٍ جاهزٌ يا إيمانويل. خمس دقائق. سنذيع على قنوات الأخبار، وعلى لايف فايسبوك، وعلى مباشر يوتوب. نذيع بفارق دقيقةٍ تحسُّبًا لأيِّ طارئ.

ابتسم الرئيس لمديرة التواصل: - وفي واشنطن؟ لا ينبغي أن نسمح لذلك المخلوق بسرقة الأضواء من الجميع.

- سيكون متأخِّرًا مقارنةً بنا، فهو ما يزال يتمرَّن على خطابه.

- يعني أنَّه يتمرَّن على خطاباته؟ يبدو دائمًا كمن يُلقي الكلام على عواهنه. ماذا عن بوتين؟ وشي جين بينغ؟

- لا أدري.

نطق صوتُ رجل: - سيِّدي الرئيس؟

التفت رئيس الدولة إلى نائب رئيس مكافحة التجسُّس، وهو رجلٌ قصير أصلع، كان ما يزال يتفحَّص هاتفه في اضطرابٍ.

- هل كان المتَّصل مِلوا؟ متى يعود من الولايات المتَّحدة؟

قال النائب: - كلاَّ، ليس هو. لقد أقلعت طائرتنا العسكريَّة للتوّ من قاعدة ماغواير. لكنْ عندي معلومة.

- لخِّص يا غريمال.

- منذ عشرة أيَّام، لاحظ فريق الصيانة لإيرباص شيئًا غريبًا. أثناء قيام الميكانيكيِّين في دبي بفحص طائرة إيرباص أخرى، تابعة للخطوط الصينيَّة، وجدوا على إحدى قطع الجناح رقمًا يطابق

رقم القطعة المماثلة لها في طائرةٍ تعمل ضمن رحلةٍ داخليَّةٍ بين بيكين وشنتشن. وهذا مستحيل. شكَّت الطائرة المصنّعة في البداية أن يكون الأمر يتعلَّق بقطعةٍ مزيَّفة. غير أنَّ أقمارنا الصناعيَّة كانت قد رصدت، شهر أبريل الماضي، خللاً على الخطِّ بيكين شنتشن نفسه، إذ تمَّ تحويل مسار طائرةٍ مجهولة، وتوجيهها إلى قاعدةٍ عسكريَّةٍ في هوبيانغ. بحسب أجهزتنا، حتى الصينيُّون واجهوا حالة طائرة... نسخة...

- والركَّاب؟ والطاقم؟

- لا نعرف عنهم شيئًا.

- ولم يخبرنا الأميركيُّون بشيء.

- ليس لدينا ما يؤكِّد أنَّهم على اطِّلاع بذلك.

صمت الرجلان حين دنت منهما مديرة التواصل.

- إيمانويل؟ عشر ثوانٍ.

جلس الرئيس، صلَّحت المزيّنةُ انعكاس ضوءٍ على جبهته.

- عشرة...

أكملت مديرة التواصل العدّ العكسيّ في صمتٍ. حدَّق الرئيس في الكاميرا، وبدأت شاشةُ التلقين تعرِض النصّ.

«أيَّتها الفرنسيَّات، أيّها الفرنسيُّون، إخوتي المواطنين،

«أخاطبكم في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل، مثلما يفعل الرئيس الأميركيّ في واشنطن، والمستشارة الألمانيَّة في برلين، والرئيس الروسيّ في موسكو، وكثيرٌ من رؤساء الدول عبر العالم.

«لقد شهد يوم الخميس حدثًا خارقًا. الإشاعات التي تتناقلها الصحافة ووسائط التواصل الاجتماعيّ، صحيحةٌ في جزءٍ منها. إليكم ما حدث: يوم الخميس الماضي انبثقت طائرةٌ في سماء الساحل الشرقيّ للولايات المتَّحدة...»

ومضى الرئيس الفرنسيّ في الحديث، قبل أن - وهذا نادرًا ما يحدث - يفسح المجال لمستشاره العلميّ. وحتى لا يزيد غرابة الأطوار إلى عدم الفهم، عالج عالم الرياضيَّات مظهره، مظهرَ العالم المجنون، فبدَّل ربطة العنق العريضة الأرجوانيَّة بإيشارب حريرٍ بيج، لكنَّه أصرّ على الاحتفاظ في طيَّة صدر سترته بعنكبوتٍ فضِّيَّة. عرَض الفرضيَّات، وأثناء كلامه، كانت تظهر صورٌ متحرّكةٌ تيسيرًا للفهم.. ثم أنهى كلامه بأن أحال المتابعين على موقع الإليزيه، من أجل شرحٍ أكثر استفاضة، مع تنظيم محاورات شات مباشرة.

وفي منزل بْلِيك، كما في بيوت فرنسا كلّها بلا شكّ، كان الصمت مطلقًا. قالت فلورا: أمرٌ لا يصدَّق. لا يصدَّق البتَّة.

ظلَّ جو صامتًا، لكنَّ فلورا لم تكن تنتظر منه تعليقًا. شكر الرئيس مستشارَه، واستأنف الحديث.

«أعزَّائي المواطنين، في شهر أغسطس من سنة 1945، بعد انفجار هيروشيما، حيث انجرف العالم إلى العصر النوويّ والخوف من الفناء، كتب ألبير كامو: «هاكم قلقًا جديدًا، انضاف إلى غيره، قلقًا قد يكون له حظّ أن يكون نهاية كلّ قلق. إنَّه بلا شكّ آخر الفرص المعروضة على البشريَّة. قد يكون الأمر في نهاية المطاف مجرَّد تعلَّةٍ لنشر عملٍ خاصّ. لكنَّه بلا شكّ مناسبةٌ لشيءٍ من التأمُّل، ولكثيرٍ من الصمت.» ينبغي أن يكون هذا النصّ الرائع مصدر إلهامٍ لنا.

«لذلك، أيّتها الفرنسيَّات، وأيُّها الفرنسيُّون، ينبغي أن تكون الأيَّام والأسابيع القادمة، على غرار ما شهدناه خلال سنة المأساة الماضية، وما صاحبها من حَجْرٍ طويل، مناسبةً للتأمُّل والتفكير، ولكنْ أيضًا مناسبة لاستعادة السلام. يريد العلماء أن يؤوّلوا، يريدون أن يفهموا، يريدون أن يشرحوا، تلك مهمَّتهم، لكنْ في داخل كلّ واحدٍ منَّا، وفي داخله فقط، سيعثر على أجوبة.

«أشكركم. تحيا الجمهوريَّة، تحيا فرنسا»

كرَّرت فلورا: - أمرٌ لا يصدَّق. هل تتخيَّل يا جو أن تكون منك نسختان؟

رجلٌ يتأمَّل امرأة

الاثنين 28 يونيو 2021

الحظيرة ب، قاعدة ماغواير

قالت جامي بودلوفسكي للمعماريّ الواقف خلف الزجاج الذي لا تشوبه لطخة: - سيِّد فانييه؟

خلفهما، على المنصَّة، صُفَّت عشرات الكُتل، أنصافُ مكعَّباتٍ من فولاذٍ وزجاجٍ ملوَّن مزوَّد ببابٍ زجاجيٍّ بسيط. وعلى بعد أمتارٍ أسفلهما الكثرةُ والجلبةُ والضجيجُ.

- سيِّد فانييه، هل تفهم الوضع؟

- نعم، في حدود الإمكان.

- هل أَروكَ الڤيديو، صورَ الكاميرا في الطائرتيْن؟ لحظةَ التنازح؟ والفيلم القصير الذي أعدَّته ناسا، لتشرح الفرضيَّات؟ هل شرحوا لك بأنَّ ثمَّة «أنت» آخر في هذه الحظيرة؟ رفقة مائتيْن واثنتيْن وأربعين «نسخةً»، لكي نكون دقيقين.

اكتفى أندري فانييه بوضع يده على السياج الفاصل، وتأمَّل الحشد. كان يحسب أنَّه قادرٌ بسهولةٍ على تحديد «نفسه» وسط الجمع الضاجّ، لكنَّه سدًى ظلّ يبحث عن هيأته. حتى خشي أن يكون قد مرَّ على «نفسه» من غير أن ينتبه إلى «نفسه».

قالت جامي بودلوفسكي: - هيَّا معي.

واقتادته إلى إحدى الكتل المنصوبة، وقد هيَّأت بطاولةٍ بيضاويَّة، وأربعة مقاعد، وكاميرا، وشاشةٍ على الجدار. شفافيَّة الألواح، ولون الجدران بين الأمغر والعنَّابيّ، تدفع عن المكان شبهةَ

السجن، مع أنَّه ليس سوى زنزانةٍ شاسعة. وبينما يتَّخذان موضعهما، جعلت تعالج لوحَها الإلكترونيّ في غير استعجالٍ.

- قرأتُ أنَّ مكتبكم، فانييه وإدلمان، قد قدَّم عرضًا لبناء المقرّ الجديد لمكتب التحقيقات الفدراليّ في واشنطن، مؤسفٌ أنَّه قد تمَّ التخلِّي عن المشروع لغياب التمويل.

- أجل، لقد قدَّمنا بالفعل عرضًا. أنتم تعرفون كلّ شيء.

- كلاَّ، للأسف. من جملة ما نجهله مثلاً، أنَّك تعرف رئيسَ مكافحة التجسُّس الفرنسيَّ. أن تكون صديقًا لمثله، فهذا يعني أنَّ مكتبك لن يحصل أبدًا على الصفقة. صحيح أنَّنا حلفاء لفرنسا، ولكنَّ الحذر واجب.

أجاب فانييه متنهِّدًا: - المهمّ أن نشارك. لقد درسنا أنا وميلوا في المدرسة نفسها. أنا اخترت طريق المعمار، وهو اختار طريق الديبلوماسيَّة.

حرَّكت بودلوفسكي إصبعها، فعرضت الشاشةُ مشهدًا عامًّا للصالة.

قالت الضابطة معتذرةً: - إنَّنا نصوِّر بدون إذن، لكنَّ الظرف استثنائيّ.

نظر فانييه إلى الكاميرا المزروعة في صدر القاعة، فأدرك أنَّها تصوِّر أصلاً كلّ شيء.

هزّت بودلوفسكي رأسها، منزعجةً، وفضَّلت أن تواصل الحديث: - كاميرات عالية الدقَّة، وميكروفونات موجَّهة... لقد وضعت ناسا الكثير منها... بوسع الطاقم والركَّاب أن يقوموا من مكانهم ويتحرَّكوا، وستتبعهم الكاميرات آليًّا.

نقرت بإصبعها مجدَّدًا، وعلى الفور ظهرت صورة «أندري» الآخر، أندري «يونيو». نقرةٌ أخرى، وانشطرت الشاشة جزأيْن، فظهرت على الجزء الثاني لوسي.

انشَدَهَ فانييه. ليس من رأى كمن سمع.

«هو» ولوسي جالسيْن إلى طاولة، يتكلَّمان، خامليْن. حركةٌ أخرى من بودلوفسكي وصار بوسعه سماع ما يقولانه، وكان حديثُهما ينكتب فورًا على الشاشة، مترجمًا إلى الإنجليزيَّة. يسأل

أندري يونيو متجهِّمًا: «Café américain»? (قهوة أمريكانو؟)، فيكتبُ المترجم على الشاشة، بغباء، « ?What did the American» (ماذا فعل الأميركيّ؟ - خالطًا بين «café» (قهوة) و«Qu'a fait» (ماذا فعل)، فيقول أندري مارس مطمئنًا نفسَه: «ما يزال النظام بعيدًا عن الدقَّة».

قالت عميلةُ المكتب الفدراليّ، وهي تقوم من مقعدها، وتتركه وحيدًا يراقب الشاشة: - سأتركك لحظةً يا سيِّد فانييه.

مفتونًا، مذعورًا، ينظر إلى هذا «الأندري» الآخر، بتجاعيده، وعينيْه الرماديَّتيْن كأنَّهما حجر ياقوتٍ لَبنيّ، وخدَّيْه الذابليْن اللذين تطلّ من مسامِّهما لحيةٌ بيضاء، وشعره الأشعث. لقد دأب أندري على حلق ذقنه كلّ صباحٍ أمام مرآته، حتى تآلف وإيَّاها. أمَّا الكاميرا هنا، فلا سبيل إلى رشوتها، إنَّها تُقدِّم صورةً عالية الدقَّة، لا كياسة فيها ولا مجاملة: هذا الماثل أمامه شيخٌ مسنٌّ. رجلٌ منهك، أصابه البلى، وفقد الجاذبيَّة. يلتمس في الوجه ختمَ الشباب الأبديّ الذي كان يتوهَّم أحيانًا أنَّه يحوزُه، فلا يرى له أثرًا. الشيخوخة تحيط به من كلِّ جانبٍ، كأنَّها غلالةٌ من طين. يرى نفسَه كذلك منتفخًا ومترهِّلاً. ينبغي أن يتبع حميةً. كلاَّ، أن تشيخَ لا يعني فقط أن تبدأ في تفضيل البيتلز على الستونز الذين لطالما أحببتَهم.

إلى جانب الرجل تجلس ملاكٌ. والنور كرَّمها كما يليق بها. إنَّها لوسي كما تركها منذ مطلع مارس، لوسي بشعرها الذي ما يزال طويلاً، ونظرتها التي ما تزال عذبة، لوسي التي ما تزال «خاصَّتَه»، لوسي التي لم تنفِّره بعد. وحين أمسك الأندري الآخرُ يد لوسي، لم يشعر هو بأيِّ غيرةٍ، لقد غطَّى الافتتان على كلِّ شيءٍ غيره. تأمَّل أندري الذي كانَه، يقوم من مقعده، فيقصد ماكينات القهوة، وإذ لاحظَ تقوُّسَه، وبطء حركته، فقد قوَّمَ ظهرَه غريزيًّا، وشدّ على قبضتيْه حتى تألَّم.

في هذه المقصورة، حيث يراقبُه جيش الدفاع - وليس يأبه بذلك - لا شيءَ يشغل بال أندري غير لوسي وهذا الـ «أنا» الآخر، وبالطبع لا مجال لأن يفكِّر في أمورٍ عمليَّة. لم يفكِّر ولا لوهلةٍ في مشاغل مكتب فانييه وإدلمان الذي لا يمكن على أيِّ حالٍ أن يتحوَّل إلى مكتب فانييه وفانييه وإدلمان، ولا فكَّر في ابنته جان التي صار لها الآن أبوان اثنان، قطعًا أبوان زائدان عن الحاجة، ولكنْ لا بدَّ أنَّهما لن يعدما فائدة؛ ولا فكَّر في شقَّته الباريسيَّة التي سيضطر إلى اقتسامِها، ولا في منزله بمقاطعة دروم...

كلاَّ، لم يخطر بباله بعدُ شيءٌ من ذلك. إنَّه يتقوَّضُ وسط الفاجعة التي تعرضُها له الشاشة. يودّ لو يشيح عنهما، لكنَّهما كالدوَّامة تجذبُه. في هذه الحجرة الضيّقة، يسحق صدرَه ثقلٌ هائل، ويشعر بالاختناق. ليس ما يراه زوجيْن، كلاَّ، إنَّما يرى شيخًا مفرطًا في العناية والقلق، يرتجف حبًّا إزاء شابَّةٍ متحفِّظة. أندري، هذا الذي تعرضُه الشاشةُ، ما يزال عالقًا في حبال فتنة البدايات، ما يزال يؤوّلُ تحفُّظ لوسي إلى حذرٍ، وفتورَها إلى أماراتِ حكمة. أمَّا أندري مارس فيُدرك أنَّه لم يزايله الخوف يومًا من أن ينفِرها منه، من أن يُجفل السنونوَّة الجميلة التي قبلت أن تحلِّق إلى جانب غرابٍ مسنٍّ. اللعنة، إنَّ الحبّ، الحبّ الحقيقيّ لا يمكن أن يكون غصَّة قلقٍ في القلب. لم يعرف قطُّ السلامَ، وفي رحمِ قلقه كان يتشكَّل الفشل.

عاد أندري الحظيرة، حاملاً فنجانَي قهوة، وابتسم؛ هي ابتسامةُ بائسٍ، لكنَّ لوسي لم ترفع عينيْها عن كتابها. أمام الشاشة أدرك أندري مارس حقّ الإدراك ذاك الانفصال، طريقتها الخاصَّة في أن تغيب عمَّا حولَها. انظُري إليه، سُحقًا، اتركي كتاب غاري اللعين، وتأمَّلي بعينيْكِ الجميلتيْن هذا الرجل العتيق، امنحيه بعضًا من انتباهٍ حنون. لا شيء، لا شيء. هي فرصةٌ لا تلوح للجميع، فرصة أن تكون شاهدًا على خرابِك، أن تشفق على نفسك، من غير أن تكون أسِفًا عليها.

تشنَّجت شفتاه ألمًا. إنَّه في قرارة نفسه مشفقٌ على أندري الماثل أمامَه، أندري الماضي. إذ يعرف ما ينتظره من إهانةٍ وإحباط. لم يكن فارق السنّ مسألةً هيّنة. ولا ينبغي للمرء أن يتعلَّقَ بمن لا يبادله التعلُّق، فلِمَ أصرَّ على أن يعيش حياةً بهذا القدر من التعقيد؟

جالسًا بإزاء تلك الشاشة، كان أندري مارس يبتعد عن لوسي، مثلما تنفصل عن شجرةٍ ورقةٌ ميّتةٌ - أو بالأحرى كما تتخلَّى شجرةٌ عن ورقةٍ ميّتة. عشر دقائق وحشيَّة قضاها في تأمُّلٍ دقيق، هي نظيرُ شهرٍ من الحِداد الموجع. على المنصَّة، أخذ أندري الذي يمقتُ حبَّه لها، يبتهج بخفوت هذا الحبّ.

حركةٌ وسط الحشد. عدَّةُ عملاءٍ في زيٍّ مدنيٍّ توغَّلوا داخل الحظيرة، فهُرع الجميع إليهم، يقصفونَهم بالأسئلة. دنا أحدهم من فانييه، وهمس في أذنه بكلمات. فنظر إليه المعماريّ نظرةَ من لم يفهم، ثم شدَّ على يد لوسي، فابتسمت له. ثم قرَّرَ أن يتبع العميل.

من الحجرة الزجاجيَّة كان أندري المحبط يراقب أندري المتعبَ يبتعد. لاحظ إذَّاك، أقصى الطاولة، رجلاً نحيلاً، قصير القامة، أسود الشعر، في نحو الأربعين من عمره، خلوًا من أيِّ جاذبيَّة، يدوِّن بخطٍّ صغيرٍ على دفترٍ أسود. وبين الفينة والأخرى، تحين منه نظرةٌ إلى لوسي. كذلك تعرَّف أندري في نظرة الرجل على ذلك الشرود المميَّز الذي ما من سببٍ له إلاَّ الاختلال الناجم عن الانجذاب. فراشةٌ أخرى سقطت في بيت العنكبوت التي تنسجه لوسي بكلِّ براءة. وبغتةً، تعرَّف أندري على الرجل، فأصابه الذهول: إنَّه ڤيكتور ميزل. ألم يمت! كان معهم إذن على متن الطائرة نفسِها؟

ماذا كتب؟ الأملُ صعيدُ السعادة، إنَّه البهو المفضي إلى الشقاء، أو شيءٌ من هذا القبيل. ڤيكتور ميزل إذن واقفٌ في ذلك الصعيد، يأمل أن يثير انتباهَ لوسي. ربَّما صاغ العبارة وهو يفكِّر في لوسي؟ قام الرجل، واتَّجه بدوره إلى ماكينات القهوة، ما لهم جميعًا يحبُّون هذا الخليط الفظيع! ابتعدَ من غير أن ترفع لوسي عينيْها نحوه. لامَ أندري نفسه على شعوره بالارتياح جرَّاء ذلك. لكنَّ هذا الغضب يفصح عن الهوَّة التي ما فتئت تنحفرُ.

- سيِّد فانييه؟

انتفض أندري، والتفت، فألفى جامي بودلوفسكي واقفةً مستندةً إلى الباب. منذ متى وهي تراقبه؟ إلى جانبها يقف رجلٌ حدَّبَته سنوات عمره الخمسين، مرهقًا إرهاق من يضطرُّون إلى تحمُّل جسدٍ أضخم من طاقتهم.

دنا الرجل ومدَّ له يدًا من مسافةٍ أبعد من المعتاد: - جاك ليڤان، من طرف القنصليَّة. ملحق تجاريّ.

الصوتُ باهت، والحركة متردِّدة. يبتسم أندري لفرط ما يستشعر في الرجل الخوف. ربَّما يرسم ليڤان بأصابعه صليبًا، أو ربَّما يضع عقدًا من فصوص الثوم. أدرك المعماريّ أنَّ الرجل قد تحدَّث لتوِّه مع أندري الطائرة، وأنَّ أندري الثاني الماثل أمامَه ليس، بالنسبة إليه، سوى مسخ.

قال أندري ممازحًا: - ما أعجبها من قصَّة يا سيِّدي الملحق التجاريّ! برأيك، هل أنا الأصل أم النسخة؟

- أنا... بعد دقائق تحطّ طائرةٌ عسكريَّةٌ فرنسيَّة هنا في قاعدة ماغواير، لقد أرسلَت فرنسا نحو عشرين من عملائها، حتى السيّد ميلوا، رئيس مكافحة التجسُّس، سيحضر بنفسه. جميع الفرنسيّين ينبغي أن يذهبوا معه. وقد طلب منّي أن أبلّغك التحيَّة مقدَّمًا.

- تقصد أن تحيّينا معًا، أنا وأنا؟

قاطعته بودلوفسكي منزعجةً من اللعبة: - هل أنت مستعدٌّ يا سيّد فانييه، لقد رتَّبنا لقاءً بينك وبين «نظيرك».

- أُصرُّ على ضرورة أن تتركونا بمفردنا. إنَّه حوارٌ شخصيٌّ، وإن كان بين أنا وأنا...

- آخرُك.. أقصد الثاني... طلب منّي الشيء نفسَه. لكنَّك أوَّل فرنسيّ يـُ... يُواجه، وقد طلبوا منّي ألاَّ أُغفلكما لحظةً، ينبغي أن أكتب تقريرًا...

قال فانييه هازئًا: - بمعنى ما تقريرًا عمَّا سيتقرَّرُ بيننا.

أشار المعماريّ إلى الكاميرات. قامت عميلة المكتب الفدراليّ بحركةٍ بسيطة، فانطفأت الأضواء الخضراء على الفور. فكَّر أندري، على الأقلِّ انطفأ الظاهرُ منها. ثم فاجأ رجل القنصليَّة ينظر خلسةً إلى شخصٍ آخر جهةَ الشمال: خلف الجدار الزجاجيّ يقف أندري آخر، أندري حائر، فتحَ البابَ بحركةٍ مباغتةٍ ودخل.

ظلاَّ لوهلةٍ متواجهيْن من غير أن ينبسا بكلمة. كذلك تجنَّبت العيون النظر إلى بعضها بعضًا. وضعٌ مقلق: لا أحد منهما يشبه أندري الذي يراه الآخر في المرآة. لا شيء فيه مألوف، إنَّ انقلاب الملامح في وجه الآخر يجعله غريبًا، عدوانيًّا. تأهَّب أحدهما للكلام، لكنَّ حركةً من الثاني أخَّرته لحظةً. التفت أندري مارس إلى لييفان وبودلوفسكي الواقفيْن محرجيْن. هزَّت بودلوفسكي رأسَها. غادر لييفان المكان وعلى وجهه أثر ارتياحٍ بارز. ولمَّا انغلق البابُ خلفهما، أخذا يتأمَّلان بعضهما بعضًا.

لم تكن أصالة اختيار اللباس يومًا نقطة قوَّة أندري: يرتديان سروال الجينز نفسه، وبالكاد بدا عليه الاهتراء من الاستعمال عند أحدهما، والبلوزة الرماديَّة نفسها، بلوزة بغطاء رأسٍ، مألوفة ومطَمئِنة، تناسِب الأسفارَ الطويلة على متن الطائرة، وكذلك ينتعلان الحذاءَ نفسَه، حذاءَ مشيٍ متينًا.

آه، كلاَّ، الحذاءان ليسا متطابقيْن تمامًا، ذلك ما لاحظه أندري يونيو. واصل الأندريان الصمتَ. لكنَّهما ما كان ليكتفيا به طويلاً. يقول مثلٌ هنديٌّ: من يتسوَّل في صمتٍ يمت جوعًا في صمت.

- حذاءٌ جديد؟

- اشتريته منذ خمسة عشر يومًا.

كلاهما صُدم من الصوت. نبرةٌ أقلّ حدَّة ممَّا كان يتوقَّعه كلٌّ منهما، وكذلك أقلّ عذوبة. لطالما أنصت كلّ منهما إلى نفسه «من الداخل». وأثناء الندوات، أو الحوارات، كان يُبطئ صبيبَ الكلام، يحرص على نطق الكلمات بوضوح، ولا يفارق نغمةَ القرار. هو ذا الآن يكتشف صوتَه الحقيقيّ.

بعد برهة صمتٍ أخرى، سأل أندري يونيو: - جان؟

- إنَّها بخير. بالطبع لا تعلم بعدُ شيئًا.

- لوسي؟ لوسي وأنا؟

- لقد انفصلنا.

ثم ما لبث أندري مارس أن استدرك؛ بوسع المرء دومًا أن يكذبَ على نفسه، لكنْ ما الفائدة في أن يكذب على «آخره»؟ قال: - لقد تركتني. من جانبها، رغبةٌ أقلّ بكثيرٍ من اللازم؛ ومن جانبي، إحباطٌ أكثر بكثيرٍ من المحتمل. وأيضًا، بلا شكّ، كثير من التوقُّعات، وقليل من الصبر. تستشعر وقوع ذلك، أليس كذلك؟

- إنَّ الرجل الحكيمَ يساوي قيمةَ رجُلَيْن.

لوهلةٍ، لوهلةٍ فقط، خطر ببال أندري مارس أن يحاول استعادة لوسي الأمس، لوسي التي لم تصدَّه بعد. لكنَّه تجهَّم، وما لبث أن انقلب التجهُّم ابتسامةً. لقد عرف كيف ينال إعجاب هذه المرأة، مع أنَّه كان أقلّ شبابًا وجمالاً من كلّ أولئك الذين كانوا يلاحقونَها، ولم يعرف حتى مزاياه. أن ينافس نفسَه، هذا أمرٌ غير مسبوق. ثم... أندري واحدٌ، يعني فرق ستِّين سنة، فما بالك بأندريان اثنان... دارُ رعايةِ مسنِّين. لا يمكنها إلاَّ أن تفرّ، بديهيّ. أولى له إذن أن يتمنَّى حظًّا طيِّبًا لأندري يونيو.

أضاف: - ما من نصيحةٍ أُسديها إليك إلاَّ هذه: كُن لطيفًا، منتبهًا، لكنْ في الآن نفسه، احرص على إبداء شيءٍ من اللامبالاة. ولا تفرِّط في شهوتك تجاهها. لقد أدركتَ الأمرَ، لكنَّك لم تتقبَّله بعد. ما زلت أتذكَّر ذلك.

نذُر أن تلوح للإنسان فرصة قيادة نفسه.

أراد أندري يونيو أن يبدو مرحًا، لكنَّ غصَّةً تنعقدُ في بطنه. خلال ساعةٍ يلتقي بلوسي، فكيف يعترف لها بأنَّ مصيرهما قد تقرَّرَ أصلاً، أو كيف له أن يخفي عنها الأمر!

قال أندري يونيو طارقًا المسألة المزعجة بالنسبة إليه: - والمكتب؟

- مشكلة خرسانة في سوريايا تاور. وقد عالجناها. ثم تذكَّر، منذ أشهر كنت أفكِّر في أن أقلِّص ساعات عملي إلى النصف، أو حتى أحصل على تقاعدي. تعرف أنِّي تعبت.

أومأ أندري مارس بإشارةٍ إلى الملحق التجاريّ الذي كان، خلف الزجاج، يتظاهر بأنَّه يحدِّق في الأرضيَّة المعدنيَّة، لكنَّه انتبه إلى الإشارة من فوره، فدخل.

- سيِّدي، قلت لي إنَّ فرنسا تستطيع أن تقدِّم هويَّةً ثانية؟

- نعم. هويَّة جديدة لأيٍّ منكما؟

واصل أندري مارس: - هويَّة جديدة لي أنا.

ثم التفت إلى أندري يونيو: - أنت من سيعود إلى المكتب. هذا أفضل. لقد قضيتُ فيه حياتي، أثناء الأشهر الثلاثة التي كنَّا فيها معًا. كنت لأجنَّ لو قضيت وقتي في انتظارها. لأنَّ لوسي - وهذا ما سوف تدركُه عاجلاً - تشتغل كثيرًا. يلزمك إذن ما تشغَل به نفسك. سأطلعك على سير العمل في الوُرش. أمَّا أنا، فسأقصد دروم، هناك أشعر بنفسي في حالٍ جيِّدة. بالمناسبة...

وهنا قطَّب مارس حاجبيْه واستدار إلى الملحق التجاريّ: - لنكن عمليِّين. كيف تنوي الحكومة حلَّ المسائل المادِّيَّة؟ قيل لي إنَّ عدد الفرنسيِّين يبلغ نحو سبعين شخصًا. لا أظنُّهم سيقتسمون شققهم، أو يخسرون نصف مدَّخراتهم. بوسعنا طبعًا أن نُدخل ما وقع في باب... الكوارث الطبيعيَّة؟ أن نجبر التأمينات على الدفع... يمكن أن تنصَّص الكوارثُ الافتراضيَّة في النصوص

القانونيَّة... وإن قرَّرتُ التقاعد، ماذا سيقع؟ هل سآخذ تقاعدَ... «نظيري»؟ بالنظر إلى كرم أنظمة التقاعد التكميليَّة، لا أظنُّهم سيقبلون مضاعفة قيمة المساهمات التي دفعت بها إليهم! يلزم على الأقلِّ أمرٌ قضائيٌّ حكوميّ.

بدا رجل القنصليَّة حائرًا، وقد تجاوزته الأمور. يتأمَّل هاتفَه، لوحَ النجاةِ.

- هم أولاء يخبروننني أنَّ السيّد ميلوا سيصل خلال دقيقة.

قال أندري يونيو ضاحكًا: - هذا من صنف المشاكل التي يحبّها.

قال أندري مارس: - بالمناسبة، ما يزال الكوخ الآخر الذي كان يُستعملُ مركزًا للمراسلة البريديَّة، معروضًا للبيع. كنت متردِّدًا في شرائه، لكنْ الآن سأشتريه، سواء أضافوا إلى النصوص القانونيَّة بند «الكوارث الافتراضيَّة»، أم لم يفعلوا. سيكون لنا منزلانا، لكلٍّ منَّا منزله على بعد عشرة كيلومتراتٍ من منزل الآخر، وسنتقاسم الأصدقاء الذين يزوروننا في العطل، ونتركهم يحكمون، أيُّنا أكثر لطفًا.

عالم صوفيَّتان

الاثنين 28 يونيو 2021

منتجع كلايد تولسن، ملحقة مكتب التحقيق الفدراليّ، نيويورك

شخصٌ طويلٌ أشقر، أزرق العينيْن، نحيلٌ جدًّا، صبيٌّ التحق حديثًا بمركز التكوين التابع لمكتب التحقيقات الفدراليَّة، يقف، مستقيمًا كصارية، أمام رجلٍ أسود، جالسٍ، في الخامسة والأربعين من عمره، رياضيّ الجسم، وقد هزمَ شعرَه الصلع. بالكاد يرفع الجالس، وهو الضابط الممتاز والكر، عينيْه إلى الواقف، المتدرِّب جوناثان واين.

- أيُّها المتدرِّب واين. كيف يجري التدريب؟ لا تُجِب. ملفّك يقول إنَّك من ألاسكا.
- أنا من جونو سيِّدي الضابط والكر. وهي مدينةٌ صغيرةٌ على ساحل الباسيفـ...
- وتخرَّجت من كوانتيكو.
- نعم سيِّدي الضابط الممتاز والكر.
- كُفَّ عن مناداتي بالضابط الممتاز والكر. نادني جوليوس...
- نعم، جوليوس.
- كلاَّ، بعد تفكير، استمرّ في مناداتي بالضابط الممتاز والكر.
- حسنًا، سيِّدي الضابط الممتـ...
- مكتوب أنَّك ووالدك كنتما تصيدان الدبّ الأشيب. لديك تجربةٌ مع الحيوانات البرِّيَّة. هل سبق أن نزلت الميدان؟

- كلاَّ، أيُّها الضابط الممتاز والكر.

وضع جوليوس والكر، في قلق، الملفّ الذي كان يحمله بيديْه. التفت شطر الضابط الأوَّل غلوريا لوبيز التي كانت تقف إلى جانبه حاملةً في يدها كوب قهوة.

زفر والكر: - غلوريا، من المخاطرة أن نعهد إليه بهذه المهمَّة.

- إنَّها فرصةٌ يا جوليوس، لكي نختبر قدراته في الميدان. ثم إنَّ المتدرِّبة أنَّا شتاينبك ستسنده. لديها خبرة شهر، والانطباعات راضيةٌ عنها كلّ الرضا.

- متدرِّبان معًا؟ وخطورة المهمَّة، من الدرجة الرابعة؟

- نحن غارقون في العمل.

عاد الضابط الممتاز جوليوس والكر إلى المتدرِّب، ومدّ إليه ملفًّا أسود.

- أيُّها المتدرِّب واين، مهمَّتك أن تمسك بهذا الوحش، من غير أن تصبْه بأذًى...

فتح الأشقر الطويل الملفّ، فجحظت عيناه.

- إنَّها... ضفدعة؟

- بل علجوم. واسمُها بيتي، مثل الجميع. أحضرها لنا في مأرضتها.

- أنا...

- ينبغي أن تكون قد انطلقتَ، أيُّها المتدرِّب واين.

أضافت غلوريا لوبيز: - شيءٌ آخر. إن تعرَّضت حياة العلجوم للخطر، فواجبُك أن تموت في سبيل إنقاذه.

ساعتان بعد ذلك، كان العميلان المتدرِّبان واين وشتاينبك قد أنجزا المهمَّة، وأحضرا بيتي. وبالطبع، أثناء الطريق، استغلَّ العلجوم لحظة دوسٍ على الفرامل، حيث انفتحت المأرضة، لكي يهرب، ويختبئ في أقصى المواضع منالاً، بعيدًا تحت مقعد السائق. أصابت أنَّا شتاينبك نوبة

ضحك، فاضطرَّت إلى إيقاف السيَّارة على شريط الطوارئ، وانثنى واين على أربعٍ، لكي يسترجع المخلوق، من غير أن يسحقه بأصابعه، ولسانُه ما انفكّ يطلق سيلاً من الكلمة التي تبدأ بحرف F.

وكان اختصاصيُّو العلوم المعرفيَّة قد هيَّأوا في إحدى الحجرات فضاءً ناعمًا، ملوَّنًا ومزيَّنًا، يجتمع فيه الأطفال «النسخُ» ليلعبوا.

صوفيا مارس وصوفيا يونيو تلعبان مستلقيتيْن على الأرض. يقدّر علماء الاتِّجاه المعرفيّ أنَّ الأطفال في سنِّهما لا يخشون الجديد، إذ لا يكون الآخر قد صار بعدُ عدوًّا. بينهما لم تعد بيتي مجرَّد حيوانٍ برمائيّ، وإنَّما أداةَ راحةٍ وتسلية أتت تَنِقُّ في الوقت المناسب. وقد زُوِّد مجسَّم برج إيڤل، في المأرضة، بميكروفون ممتاز. وبينما تتناول الطفلتان وجبة العصر الخفيفة، تتظاهر المحلِّلتان النفسيَّتان بأنَّهما مشغولتان، فتقضمان كعكًا برقائق الشوكولاتة، أو تشربان عصير البرتقال، متظاهرتيْن بأنَّهما لا تعيران أيّ اهتمامٍ للصبيَّتيْن اللّتين تتشابهان أكثر ممَّا قد يتشابه توأمان متطابقان. أمَّا الطفلتان فكانتا مشغولتيْن بعقدِ مواجهةٍ بين كلّ ما يهمّهما، الذكريات، والأذواق، والمعارف؛ هل تتذكَّرين عيد ميلاد نورما؟ ما نكهةُ المثلَّجات المفضَّلة عندك؟ هل تعرفين معنى أناكسيريوس ديبيليس؟

في البداية، لم تستطع أيٌّ منهما تغليط الأخرى. لكنْ سرعان ما انتبهت صوفيا مارس إلى أنَّها وحدها تملك ذكريات الأشهر الأربعة الأخيرة. لقد اكتشفت نقطة الضعف، فانتصرت. آه، لا تذكرين ماذا قال ليام في عيد ميلادي؟ ولا تذكرين هديَّة أمِّي؟

فاض حماسُها، فسُحقت صوفيا يونيو. ثم بغتةً وجدت صوفيا يونيو ما تردّ به، فقالت بنبرةٍ خافتةٍ ملؤها التحدِّي: - أنتِ أيضًا جعلك بابا تقسمين ألاَّ تُخبري أحدًا بشيء، وخاصَّة أمِّي؟

ثم أضافت كلماتٍ أخرى، همست بها في أذن صوفيا مارس.

وتلك هي اللحظة التي كانت تنتظرها المرأتان المختصَّتان في طبِّ نفس الأطفال، فجمدتا في موضعيْهما، حريصتيْن على ألاَّ تنظران إلى البنتيْن. وعلى الفور، ظهرت على شاشة لوحيْهما مكتوبةً الجملة التي بالكاد كانت مسموعة. حين يكون الكلامُ كلامَ طفلٍ، فإنَّ تأويله لا ينطوي على لبس.

هزَّت صوفيا مارس رأسَها، وقامت من مكانها، وأخذت تصيح: - لا يحقّ لك أن تذكري هذا الموضوع!

- بلى، أستطيع.

- ليس صحيحًا، ليس صحيحًا!

سألت إحدى الطبيبتيْن بصوتٍ عذبٍ وهادئ: - ما الذي ليس صحيحًا يا صوفيا؟

وبالطبع، لذكر الاسم، التفتت الفتاتان معًا في آنٍ واحدٍ.

أخذت صوفيا مارس تهرق الفناجين، غاضبةً، وتصيح: - اصمتي! اصمتي! لقد أوصانا بابا بألاَّ نقول شيئًا. إنَّه سرّ!

انكفأت الثانية على نفسها، مرعوبةً، وخفضت عينيْها. انتهت اللعبة. كفَّت بيتي عن النقيق.

قالت إحدى الطبيبتيْن، وهي تأخذ بيد صوفيا يونيو: - تعالي، نقوم بجولةٍ معًا، ولنرَ هل ترغب أمّك في مرافقتنا.

*

السرّ، هو باريس. صوفيا لم تحبّ السفر إلى هناك.

في البداية، كانت قلقةً على مصير بيتي التي بقيت بمفردها في المنزل، بعد أن وُضعت في مأرضتها بضع يرقات بائسة، تكفيها مؤونة عشرة أيَّامٍ. ثم لمَّا أراد ليام أن يستقلّ القوارب في نهر السين، فضَّل والدُها إبقاءها معه في الفندق، لأنَّ الرحلة لا بدَّ أن «تتعب قلبها». ثم لمَّا أرادت الأمّ اصطحاب ليام ليصعدوا الطابق الأوَّل من برج إيڤل، منعها من مصاحبتهم، لأنَّها كانت «متعبة»، ولأنَّ ذاك البرج، على أيَّة حالٍ، «يظلُّ أقلّ علوًّا من أيّ ناطحة سحابٍ عندنا».

وفي كلّ مرَّةٍ، كان يأخذُها إلى الحمَّام، ويطلب منها أن تَنزل الماءَ الساخن. وصوفيا لا تحبّ أن تنزل الحوض عاريةً، رفقة أبيها الذي يتعرَّى بدوره. يفرك جسدها بالصابون، طويلاً، في كلِّ موضعٍ من جسدها. يكفي يا بابا.. أنا نظيفة. حسنًا يا حبيبتي، ينبغي أن تفركيني أنتِ أيضًا بالصابون، ولا تخبري ماما، هذا سرّنا. لكنَّ نظرة صوفيا تحاول تجنُّب جسد والدها، ويداها

تحاولان نسيان ما يلقِّنهما. عيناها تتعلَّقان بأيّ شيءٍ تطالانه، بالمشاجب المطليَّة، بعلبة صابون مارسيليا، بالصنابير المذهَّبة.

ولاحقًا، في شهر مايو، حين عاد أبوها من العراق، لم تعد صوفيا مارس تحبّ كذلك حمَّام منزلهم. في بيتهم بهاوارد بيتش أيضًا صارت نظرتها تلتمس العون من أيّ شيء، حتى حفظت كلّ تشقُّقٍ في طلاء الحائط، وكلّ بريقٍ في مصابيح النيون بالسقف، وكلّ انحرافٍ في انتظام البلاط الأزرق السماويّ. تكره الروائح، رائحة الصابون، ورائحة الشامبو، كلّ الروائح. لكنَّه سرّ.

سْلِيم بويز

الاثنين 28 يونيو 2021

ستريتفورد رود، كنسينغتون، المملكة المتَّحدة

قال رجل الاستخبارات البريطانيّ، وهو يمدّ صينيَّة السوشي إلى سْلِيم بوي مارس: - تفضَّل، تناول قطعةَ ماكي يا سيِّد كادونا. هذا أفضل متعهِّدِ حفلاتٍ يابانيٍّ في كنسينغتون. هذا السوشي أفضل بكثير من ذاك الذي يصنعه إيشيمي في فكتوريا آيلند.

غير أنَّ الغضب لم يزايل الموسيقيّ. فإذا ما كان قد قبل، في لاغوس، أن يركب الطائرة الخاصَّة، حاملاً معه غيتاره التايلر ذا الاثنتي عشرة نغمةً، وغيتاره الصوتيّ، جبسون هامنبارد، فإنَّما لأنَّه وُعد بتسجيل دويتو غنائيٍّ مع أحد أساطير موسيقى البوب الأحياء. لكنْ ما إن حطَّ على التراب الإنجليزيّ، وطيلة المسار الذي قاده إلى هذه المقصورة ذات الطراز الڤيكتوريّ، غير البعيدة عن هالاند بارك، ظلَّ هذا الأسود الطويلُ ذو النبرة الأوكسفورديَّة، يتلو عليه خطابًا طويلاً مبهمًا. لقد انتقل الحديث الآن، من «دويتو غنائيّ»، إلى «حدث استثنائيّ» «ظاهرة خارقة»، ولم يعودوا البتَّة إلى ذكر إلتون جون. لم ينتهِ الأمر بعد، إذ يتوسَّط الصالونَ بيانو ستاينواي عريض فخمٌ أحمر.

- أتيتم بي حتى لندن، ولن أستطيع حتى لقاء إلتون. لقد قضيت مدَّة السفر بأكملها في التمرّن.

صحيح: لقد قضى سْلِيم بوي ساعات السفر الخمس في الاشتغال على أغنية Your Song، الأغنية التي على كلِّ مغنٍّ أن يؤدِّيها مرَّةً في حياته، من بيلي بول إلى ليدي غاغا. التوزيع الموسيقيّ وُضع بالأساس للبيانو، لكنَّ سْلِيم بوي اختار صيغة رود ستيوارت للغيتار. على الجبسون بدأ في عزفها بشيءٍ من التعالي والترفُّع، ثم أخذ يدندن كلماتها البسيطة جدًّا: «And you can tell everybody this is your song»

ثم سرعان ما نسي هذه الأغنية الغراميَّة قد كُتبت منذ خمسين سنةً، وأُبليت بطول ما غنّيَت، فألفى نفسَه سجينَ الجُمل، متأثِّرًا كطفلٍ صغير، وتذكَّر أنَّ برني توبان لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره حين ألَّفها، وأدرك أنَّ كلّ كلمةٍ من كلماتها إنَّما كُتبت له، له هو سْلِيم بوي، كُتبت لكي تعبِّر عن غراميَّاته التي لا حقَّ له في أن يعيشها أو أن يغنِّيها، وبينما شرعت طائرة فالكون في النزول صوب هارترو، كان سْلِيم بوي يعزف بعينيْن بلَّلهما دمعٌ لم يستطع كبحَه.

قال ضابط الخدمة زافرًا: - نحن في مبنى آمن، ولا تقلق. بعد قليل، يصل السير إلتون جون. والدليل هنا، لم يسبق قطّ أن وُضع بيانو في مبنى من مباني الاستخبارات.

- تلك إذن حقًّا طائرتَه الخاصَّة؟

- قطعًا؛ ثم، ألم تلاحظ أنَّ المقاعد كانت من جلدٍ ورديّ. لكنْ، هل... هل فهمت ما شرحتُه لك؟ هل أنت مستعدٌّ لمواجهة السيِّد كادونا؟

قال سْلِيم بوي غاضبًا: - لن أُعيد الكلام مرَّةً أخرى، أنا لستُ السيِّد كادونا. وأنت، ما اسمك الحقيقيّ؟ جون غراي؟

قال الرجل وهو يومئ إلى الضابط الذي يحرس بالباب: - تستطيع أن تناديني جون.

ولمَّا برز سْلِيم بوي الآخر، تراجع الأوَّلُ، وجمد الثاني. تفاحص الرجلان، ودقَّق كلٌّ منهما في الآخر مدَّةً طويلة. لقد كتب فرويد عن الغرابة المقلقة التي يسبِّبها «المثيل النرجسيّ»، وعن المرآة الجوَّانيَّة. لكنْ لا شيء من كلامه يناسب المقام تمام المناسبة. لم تقلقهُما الغرابة، النظيرُ لا يثير فيهما الإعجاب، إنَّه شديد النحافة، مفرطٌ في الطول، وما يزال صغيرًا جدًّا، حتى إنَّ كلاهما اكتشف أنَّ الآخر ليس من نوع الرجال الذين يفضِّلهم. ثم أخيرًا دلف سْلِيم بوي يونيو إلى الحُجرة، ومشى صوب النافذة التي تُرى منها أشجار السنديان العتيقة في إدواردز سكوار، وتناول قطعة ماكي ووضعها في فمه، من غير أن يفلت بنظرته نظيرَه.

جلس سْلِيم بوي مارس، وتناول بدوره قطعة ماكي، وشيئًا فشيئًا اختفت قطع الأرزّ الصغيرة. لم يكن ضابط الاستخبارات يتوقَّع ذلك. كان البريطانيّ يظنُّ أنَّهما سيشكَّان في الأمر، وسيطرحان الأسئلة، ويلتمس كلٌّ منهما في الآخر ثغرة، ويتأكَّدان من أنْ لا خداع في الأمر. لكنْ، لا

شيء من ذلك حدث. لم تهزمهما الخارقة، ولا أصابهما اللامعقول بأيِّ قلق. بالمقابل أصابهما الجوع.

ثم ما لبثت قِطَعُ السوشي أن اختفت بالكامل، لم تبقَ منها قطعة. وإذَّاك أشار سْلِيم بوي يونيو، من غير أن ينبس بكلمةٍ، إلى ندبةٍ واضحةٍ على معصمه، وفي نظرته سؤالٌ.

أجابَه الآخر ببساطة: - توم.

ثم رفع كمَّ قميصه، وكشف عن معصمه مضيفًا: - توم، تعرف!

نعم، إنَّ سْلِيم بوي يونيو يعرف، ووحدَه يعرف؛ بعد وفاة توم، لم يعد راغبًا في الحياة، فقطع شريان يده. وقد أنقذته أمّه. ثم ختم الرجلان ميثاقهُما بتحديد المكان الجغرافيّ بدقَّة: - حدث ذلك في إبادان.

تبادل الرجلان ابتسامةً حزينة. ابتسامة متواطئة، حنونًا، ابتسامة أخويَّة. أخيرًا صار بوسعهما ألاَّ يكذبا، ألاَّ يخفيا شيئًا، ألاَّ يخجلا من شيء. لم يتغيَّر العالم، لكنْ كلٌّ منهما يشعر بنفسه قد ازداد قوَّةً. وقف سْلِيم بوي مارس، وذهب يلتمس الغيتارَيْن، فمدّ إلى يونيو غيتار الأوتار الإثني عشر، قائلاً: - لقد سمعتُ أغنية يابا غرلز... إنَّها رائعة. هل صحيح أنَّني عزفت مع دريك؟ أقصد أنَّك...

- مع دريك، ومع إيمينيم، ومع بيونسيه. وفي شهر مايو، شاركت في مهرجان أفروربابلك بلندن. وخلال أسبوعيْن، سأمثِّل دور البطولة في فيلم رومانسيّ بنوليود، Wedding in Lagos. كذلك وقَّعت عقدًا جديدًا مع سوني ميوزيك، وكوكا كولا هي من يتولَّى رعايتي تجاريًّا، كما أنَّني أنشأت شركة تسجيلاتي الخاصَّة، RealSlim Entertainment، وهذا كلّ شيء.

ابتسم سْلِيم بوي يونيو، إذ خطرت بباله تلك النكتة التي تقول إنَّه يوم ينزل الأميركيُّون على سطح المرِّيخ، سيجدون هناك شخصيْن من لاغوس منهمكيْن في توقيع عقد.

واصل سْلِيم بوي مارس الكلام: - وانظُر!

أنزل سحَّاب بلوزته، فظهرت على صدره كلمات «100% human and valid». إنَّه تي شرت ريكس يونغ، الشعار السرّيّ لحشد الدعم بالنسبة إلى جماعة LGBT والقلائل الذين يجرؤون على مناصرتهم من بين المغايرين جنسيًّا.

ضحك الرجلان ضحكًا صريحًا. كلّ هذا بفضل يابا غرلز... لا يشعر سْلِيم بوي يونيو بالغيرة، وليس حتى يندهش من عدم إحساسه بها. إنَّه سعيد، كأنَّما نزل عليه ميراثٌ من السماء. وذلك ما لم يتوقَّعه ضابط الاستخبارات.

- أنا أيضًا كتبت أغنيةً في الحظيرة حيث كانوا يحتجزوننا. عنوان الأغنية Beautiful Men in Uniforms.

- Beautiful Men؟ لا تقل لي إنَّك أنت أيضًا مثليٌّ؟

بدأ الأوَّل في دندنة اللحن، وغنَّى بنبرة ماجور، ثم ما لبث الثاني أن رافقه في الغناء، مرتجلاً العزف على أوتاره. تجاوب المغنِّيان، وأثرى كلٌّ منهما الآخر، من غير أن يغطِّي عليه. ومعًا ابتكرا الخاتمة اللحنيَّة. وبغتةً لمعت عينا مارس: - مهلاً! يكفي أن نقول إنَّنا توأمان. سيكون الأمر غايةً في البساطة. نحن على أيِّ حالٍ من اليوروبا.

طبعًا هما من اليوروبا. هذا بديهيّ. إنَّ الأتشان يخشون التوائم. وأكثر منهم يخشاهُم المانديغ، إذ يشيع الاعتقاد بأنَّ رؤيتَهم مضاعفةٌ، فهم قادرون على قراءة الأفكار. كذلك يظنّ النديمبو والبونتو واللِّيلي أنَّ التوائم من نسل الحيوان. أمَّا الفولونا فيتركون التوائم، عند ولادتهم، ليومٍ وليلةٍ، خارج القرية، لكي يجنِّبوا الزعماءَ والسحرةَ أذاهم. ويقتل اليوبا أحدهما، لأنَّهما أبناء المصائب. في إفريقيا بأكملها، يُقال إنَّ الأوثان وحدها تُنجبهم، إنَّهم أمارةٌ من السماء، نذير شؤم. أمَّا اليوروبا، فمنذ قرنٍ من الزمان كفُّوا عن قتل أطفال إلٰه الرعد، الأطفال الذين يثيرون الرعب. وبمرور السنين، تحوَّلت اللعنة إلى تبجيل، إلى عبادة. ذاك أنَّ إثنيَّة اليوروبا، وهذا واقع لا مثيل له، تنجب توأمًا من بين كلّ عشرين ولادة، لدرجة أنَّ قرية إغبو أورا نصَّبت نفسَها عاصمةً عالميَّة للتوائم، وأنَّ اسمَي تايوو - «أوَّل»، وكيهيندي - «ثان» شائعيْن. ما المانع إذن في أن يكون لسْلِيم بوي أخٌ توأم، أخٌ مفقودٌ عُثر عليه الآن؟ هذا ممَّا لن يثير استغراب أحد.

قال يونيو: - ستحتاج أوراق هويَّةٍ مزيَّفة.

فردّ عليه مارس: - هي مسألة نقودٍ لا أكثر.

وكان ضابط الاستخبارات يدوّن ملاحظاتٍ، كأنَّما يكتب طلبيَّة بيتزا: - هويَّة جديدة، لمن منكما؟

أجاب سْلِيم بوي يونيو: - لي أنا، طبعًا.

قال جون غراي: - سوف نتدبَّر الأمر. سنختلق لك قصَّةً، ونصنع لك هويَّةً رقميَّة. تلك من الأشياء التي نتقنها.

ابتسم أحدُهُما: - سيكون بمقدورنا أن نغنّي في حفلات، ونكتب أغانيَ. مغنِّيان توأمان... سنحرز نجاحًا ساحقًا. سْلِيم بويز، اسمٌ جيِّد.

وكان الثاني على وشك الردّ، فإذا بسيَّارة ليموزين طويلةٍ ورديَّةٍ تتوقَّف أمام الرواق. خرج من السيَّارة رجلٌ قصير، يرتدي بذلةً من حريرٍ بلون كتكوت، وقبَّعةً خضراء خُضرةَ قنِّينة، وقد وضع على طرف أنفه نظَّارةً كبيرة تزيّن إطارَها أحجارٌ.

*

صحيفة غواديان، طبعة لاغوس،

الجمعة 2 يوليوز 2021

من سْلِيم بوي إلى سْلِيم مِن

سْلِيم بوي له أخٌ توأم! شهر يناير الماضي، اكتشف المغنِّي الشهير، صاحب الأغنية العالميَّة يابا غرلز، في رسالةٍ تركتها له أمّه المتوفَّاة، أنَّ له أخًا. لم تقدر المرأة، بسبب فقرها، أن تتحمَّل أعباء طفلَيْن، فعهدت بأحدهما إلى ميتم، ثم فقدت أثرَه. وقد انطلق سْلِيم بوي، الذي له ثلاث أخواتٍ أصغر سنًّا منه، في البحث عن أخيه المختفي، فعهد بالمسألة إلى محقِّقٍ من لاغوس، أداويلي شيهو، وهو متخصِّصٌ في قضايا الاختفاء. وقد صرَّح لنا المحقِّق: «لم يكن الأمر سهلاً. احتجنا أربعة أشهر لكي نجد الأخ المختفي. وينبغي الاعتراف بأنَّ شهرة زبوني وذيوع وجهه في نيجيريا قد سهَّل علينا المهمَّة، إذ كان يكفي أن أبحث عن شخصٍ شديد الشبه به».

لفيمي أحمد كادونا إذن أخ، يدعى سام، وهو أيضًا موسيقيّ، يغنِّي في الحفلات الخاصَّة بلاغوس حين لا يشتغل في التوصيل. إذ إنَّ هذا الأخ المختفي، كان يعيش في أودجودو، غير بعيدٍ من لاغوس. وقد تمَّ اللقاء بين الأخويْن في سرِّيَّةٍ تامَّة، وفي جوٍّ من التأثُّر. وقد قرَّر التوأمان - اللذان يصعب التفريق بينهما (انظُر الصورة) - القيام بجولةٍ فنِّيَّة مشتركة، تحت اسم سْلِيم مِن.

نتمنَّى الحظّ، مرَّتيْن، لهذه الفرقة الموسيقيَّة.

Same player dies again

الاثنين 28 يونيو 2021

مستشفى مونت سيناي، نيويورك

لشدّ ما تودُّ الصيدَلةُ أن تكون علمًا دقيقًا: كلّ ثماني دقائق، تُصدر المضخَّةُ رنينًا صامتًا، وتحقنُ في الوريد جرعةَ مليغرامين من المورفين. وهذا التركيز في الحقن فعَّالٌ، وهو الحدُّ الأدنى، وبالتالي، فإنَّ داڤيد ماركل لا يتألَّم. إنَّه ينام، من الإرهاق، في غرفة العناية المركَّزة. لقد بلغ جسمُه منتهاه. فإنْ استيقظَ، فإنَّما سيستيقظُ ليزفر زفرته الأخيرة.

عادت جودي إلى البيت لترتاح. غدًا تعود غريس وبنجامان إلى المدرسة. أمَّا بول ماركل فقد حضر استجابة لدعوةٍ: «وضعيَّة استثنائيَّة»، بتعبير مكتب التحقيقات الفدراليّ.

حين وصل إلى المستشفى، استقبلته ضابطةٌ من المكتب، وشرحت له الوضع. هزَّ رأسَه، وقطَّب حاجبيْه، وجُماع كيانِه ينفر من استيعاب «الوضع». اقتيد إلى الطابق الذي صار منطقةً خاضعةً لمراقبة الجيش، وقد أُفرغ من كلِّ الطاقم، سوى ممرِّضةٍ مطَّلعةٍ على السرّ. تمهَّل بول، تصفَّح الملفّ الذي بعث به الفريق الطبّيّ الخاصّ بالبروتوكول 42. واطَّلع على صور السكانير وفحص الرنين المغناطيسيّ الجديدة التي خضع لها داڤيد ماركل الآخر.

تمهَّل بول، لكنْ حين بَصَر بالرجل الذي دفع باب الغرفة، يشيّعه ضابطان، لم تستطع كلمة fuck، حتى أن تتجاوز شفتيْه، وخانته ساقاه، فاضطرَّ إلى الجلوس.

نظر داڤيد إلى أخيه بول، ثم إلى داڤيد الآخر المحتضر في السرير. وحتى رنينُ المضخَّة لم يقطع الصمت بينهم.

همس رجل الـ إف بي آي في أذن داڤيد: - لقد أعلمنا زوجتك. ذهب بعض الضبَّاط لإحضارها، نحن نهيّئها لهذه...

قال داڤيد:

- دعوها تنام. يكفي.

هذا الصوت. صُدمَ بول إذ سمعه مجدَّدًا. قام من مقعده، وهُرع إلى أخيه، فضمَّه إليه. إنَّ الرائحة رائحته، الرائحة نفسها التي كان يشمّها فيه قبل مرضه، والجسدُ جسدُه، بشدَّته، ومتانته، وقوَّته. ضمَّه إليه، ثم تراجع عنه، فتأمَّله مرَّةً أخرى. خرجت من فمه حماقة: - هذا أنت؟ حقًّا أنت؟

أجابه الربّان: - نعم، أنا حقًّا. هيّا لنخرج.

تردَّد الاختصاصيُّون النفسيُّون في أن يتبعوهما، وإذا بداڤيد يأمرهما بإيماءةٍ منه، أن يتركوهما وحدهما. غادر داڤيد وأخوه غرفة المحتضر، واستقرَّا على أريكةٍ من أرائك المستشفى المصنوعة من جلدٍ اصطناعيٍّ رماديّ، والتي إن نطقت لحكت لنا من المآسي أضعاف ما تحكي من المعجزات. أغمض داڤيد عينيْه، وكان يشعر بدوارٍ: - ما الذي وقع لي يا بول... ما الذي وقع؟ قيل لي إنَّني قد أُصبتُ بسرطان بنكرياس... شُخِّص... شهر مايو.

استعاد بول نَفَسَه، وحلَّ الطبيب محلَّ الأخ، فشدَّ على ذراع أخيه: - داڤيد... هل تتذكَّر فحوص يوم السبت الماضي؟ في الحظيرة. لقد أطلعوني عليها قبل قليل.

أدرك داڤيد الأمر. إنَّ الموتَ أشدُّ وقعًا على النفس حين يعرف المرء متى موعدُه. يحتاج أن يتمشَّى. قام من مجلسه، وقصد الباب الموارب، فنظر إلى السرير، إلى الجسد الذي بلغ به النحول والإنهاك مبلغًا، فأشاح عنه بعينيْه، ثم عاد ليجلس مرَّةً أخرى على الأريكة بلون حجر القبر.

همس كأنَّما يخشى أن يُسمَع: - وتظنُّ أنِّي أواجه المصير نفسَه مرَّةً أخرى؟

قال بول مطَمئنًا، وهو يتصفَّح ملفًّا: - كأنَّنا نبدأ العلاج الكيميائيّ والإشعاعيّ يوم 12 أو 13 مارس، بدلاً من 30 مايو. أربعة أشهرٍ من العلاج بدلاً من شهرٍ واحدٍ، هي أمرٌ هائلٌ، بالنظر إلى ضراوة هذا السرطان.

ومجدَّدًا، شرح بول لأخيه صعوبة موضع الورم، ونقلات الكبد، وامتداد الإصابة إلى الأمعاء، وبالتالي هو لا يستطيع الجراحة، مثلما لم يستطع القيام بها مع داڤيد مارس، منذ شهر. طرح داڤيد يونيو الأسئلة والحجج نفسَها التي طرحها داڤيد مارس، وأجابه أخوه بالأجوبة نفسها، كلمةً كلمة. وبين الفينة والأخرى، كانت تفلت من بين شفتيْه عبارة «كما سبق أن قلت لك..»، إذ لم يستطع أن يقتنع بأنَّه لم يكلِّم داڤيد الماثل أمامه من قبل.

مجدَّدًا، سأل داڤيد: - كم؟ على الأقلِّ ثلاثة أشهر، بالتأكيد. أكثر؟

- سنجرِّب علاجًا جديدًا. لقد كنتَ فأر تجارب لنفسِك. ونعلم الآن على الأقلِّ ما لا يجدي نفعًا.

ابتسم بول في حزن. إنَّ إيمانه بالطبِّ، والعلاجات، أقوى من أن يستطيع مقاومته، ولذلك تحديدًا اختار هذه المهنة الحمقاء، وبرع فيها. الحقُّ أنَّه يظنُّ أحيانًا أنَّ المهنةَ هي مَنْ اختارَه. فهو لا يفقد الأمل أبدًا، ويعرف كيف يطمئن المرضى لأنَّه يتقن الكذب حتى على نفسه. لكنْ هو ذا مرَّةً أخرى يختنق. إلى جانبه يموت رجلٌ، رجلٌ هو داڤيد. يريد أن يضحك ويبكي في آنٍ. إنَّه ضائع.

سأله داڤيد مجدَّدًا: - وَجودي؟

- لقد أُنهكت. لا تتخيَّل ما عاشته.

العبارة خرقاءُ، بالنظر إلى ما يُنتظر أن يعيشه داڤيد نفسه. لكنْ لا بأس. اهتزَّ هاتف بول. ألقى عليه نظرةً، ثم أجاب وهو يخفض الصوت: - جودي؟

*

إنَّها حديقةٌ يابانيَّة صغيرة. تعزلها عن حديقةٍ صغيرةٍ على الطراز الإنجليزيّ، تحويطةٌ من قصب البامبو الأسود وأشجار الدردار والباتولا؛ ويتدفَّق عبرها جدولٌ من شلاَّلٍ قليل الانحدار، يمضي لمَّاعًا بين الحصى الملساء، حتى يبلغ بركةً هادئة تسبح فيها أسماك الشبُّوط؛ ودربٌ من هشيم الحصى يفضي إلى جسر من خشب، منه نلج إلى جزيرةٍ لا مكان فيها للجلوس سوى مقعديْن من حجر. من صمَّموا هذه الحديقة، إنَّما أرادوا لها أن تكون مكانًا للدعة، أن تنضح بأنفاس الحياة، غير أنَّ هذا التطويب المصطنع والمحسوب بدقَّة قد أصبغها بصبغة الفضاء المعدِّ لآخرِ نزهةٍ. هو

فضاءٌ زُرع في قلبِ مركزٍ للعناية التلطيفيَّة، بمثابة حظوةٍ لأولئك الذين يتوافرون على تأمينٍ جيّد ويريدون أن يؤمنوا بأنَّ موتًا هادئًا لن يكون موتًا بالمعنى التامّ للكلمة.

حين برزت جودي من بين قصب البامبو، يرافقها ضابطٌ فدراليٌّ وبول، رآها داڤيد تتجمَّد ساكنةً في مكانها، كأنَّما ضربتها صاعقةٌ لا برقَ لها ولا رعد. لقد نحل وجهها، وجفَّ، وقسا، واحمرَّت عيناها وأحاطتهما الهالاتُ، وخطَّ التعبُ حروفَه في كلِّ سطرٍ من سطور ملامحها. ثم أخيرًا، أخذت تدنو رويدًا، يسندُها بول. إنَّها تسير صوبَ شبح. تعبر الجسرَ، وتجلس على المقعد المقابل لمقعده، فتتأمَّله طويلاً، ثم تخفض عينيْها. يومئ بول إلى أخيه إيماءةً مريحةً، ثم يبتعد.

يظلاَّن دقائق طويلةً، جالسيْن متقابليْن في صمت. ثم ينتهي داڤيد إلى القول: - صدِّقيني، كنت أفضِّل لو كان اللقاء في شارعٍ صاخبٍ، وحولي أطفالٌ يصرخون. أيّ شيءٍ سوى هذا التصميم الأبله. يحسب الاختصاصيُّون النفسيُّون أنَّه التصميم المناسبُ. والصراحة أنَّني...

- اصمت.

نطقت جودي بصوتٍ خافت. أطاع داڤيد، فتناهى إلى سمعه خرير الجدول العذب، وزقزقة دوريٍّ مدجَّنٍ، واهتزَّ الماء أمامه بغتةً، بفعل حركةٍ سريعةٍ من سمكة شبُّوط.

ربّما لا تكون هذه الحديقة فكرةً بالبلادة التي تخيَّلها.

فجأةً، قالت جودي بصوتٍ راجفٍ: - منذ أن وُصل جسمك بالأنابيب، وشُرع في حقنك بالمورفين، لم أرغب في السماح للطفليْن بالقدوم لرؤيتك. سنقول لهما إنَّك كنت في فترة نقاهة.

تستعمل ضمير «أنت» للحديث عنه في الحالتيْن، فلا تميِّز بينه وبين المحتضر على السرير. تلك طريقتها في أن تنكر واقعًا، وتقبل آخرَ. وذاك ميلٌ سيلاحظه الاختصاصيُّون النفسيُّون، في الأيَّام اللاحقة، لدى جميع المعنيِّين بالحادث.

هزَّ داڤيد رأسَه. أراد أن يضمّها إليه، لكنَّه شعر بأنَّها غير مستعدَّةٍ بعدُ، إذ قرأ في وجهها الخوفَ والنفورَ. لم تكن جودي تسمع الجدولَ، ولا العصفورَ. عيناها مسمَّرتان في هشيم الحصى الأبيض، عاجزةً عن النظر إلى داڤيد.

قالت:

- أنا آسفة. أريد أن أقبّلك لكنَّني لا أستطيع.

ولمَّا زايلها الذهول، وما إن فرغت من الأسئلة التي تخطر دائمًا ببالٍ من يواجهون وضعًا مماثلاً، كان أوَّل سؤال وجَّهته إليه هو: والسرطان؟ ولمَّا اعترف لها بول بأنَّ هذا المدعو داڤيد، داڤيد قبل المرض، داڤيد الذي انبثق فجأةً من حيث لا ندري، قد يموت هو أيضًا ميتةَ شبيهه، شعرت بأنَّ الدمَ يفارقُ جسمَها. تلوم نفسها على السؤال الذي يلحّ في ذهنها: - لِمَ عُدت يا داڤيد؟ لِمَ عدتَ؟ أكُلّ هذا ليس سوى تمرين عامٍ، شهر من الألم تمهيدًا لمزيدٍ من الفظاعات، ومزيدٍ من البكاء، ومن الغضب العاجز؟ تودّ لو تصدِّق أنَّ السماء تمنُّ عليها بفرصةٍ ثانية، لكنْ كلاَّ، إنَّما هو ألمٌ ثانٍ، وليست تشعر بغير السخط والنفور.

كرَّرت بصوتٍ باردٍ: - بالنسبة إلى الأطفال، أنت كنت في فترة نقاهة. نعم، هذا أبسط.

لم تضف، أنا لا أريد للطفلَيْن أن يدفنا أباهما مرَّتيْن.

- سأحاول أن أشفى يا جودي. لأجل غريس، لأجل بنجامين، لأجلك.

- نعم.

- ولأجل نفسي أنا أيضًا.

رفعت عينيْها. يودّ لو يجعلها تبتسم، لكنَّه لم يعد يقوى على شيء. يغوص في نظرتها لكي يستعيدها، لكي يطرد عن نفسه هذا اليأس الذي لم يعد يفارقه. مدَّ لها يدَه، فأمسكت بها، واستعادت حرارته، وطريقَتَه في أن يداعبها بإبهامه.

ثم أخيرًا سألت: - هذا أنت حقًّا!

لكنَّه لم يكن سؤالاً، فهي لم تشكّ في حقيقته قطّ. لم يجب داڤيد، واكتفى بالتحديق بها في رقَّةٍ شاحبة، كأنَّما يريد منذ الآن أن يحفظ كلّ تفاصيلها، كأنَّما أيَّامُه صارت معدودة.

لم يريا بول، عند مدخل الحديقة، ولا الممرِّضة التي همست إليه بكلمةٍ، فغشي عينيْه الحزنُ. ولا سمعا الأمر الذي أصدرَه ضابط الـ إف بي آي.

الوقت يمضي، فيجرِّد الألمَ من أسلحته.

قفزت سمكة شبُّوط خارج الماء، ثم عادت إليه، فانتفضا لوقع صوتها.

وودز VS فاسرمان

الاثنين 28 يونيو 2021

كارول ستريت، بروكلين

كيف لجسدٍ أن يحويَ هذا القدر من الدموع؟ جوانا وجوانا تبكيان معًا، والفكرة نفسُها خطرت لهما في الآن نفسه. كثيرٌ من الدموع.

هم خمسةٌ في مشغل آبي فاسرمان الرحب، وسط الرسومات والأصباغ؛ الاختصاصيَّان النفسيَّان التابعان لمكتب التحقيقات الفدراليّ، جالسان في وضعٍ غير مريحٍ على مقعديْن عالييْن، وجوانا ومثيلتُها، وآبي فاسرمان مذهولاً بينهما. من غير تفكير، جلس الرسَّام إلى جانب جوانا «ـه»، فصار يقرأ علامات القنوط في نظرة الأخرى. هذه المرأة أيضًا هي المرأة التي عانقها منذ ثلاثة أشهرٍ، لحظة نزولها من طائرة باريس - نيويورك. عليه أن يقبّلها، ويواسيها، لكنَّه تحوَّل إلى حجر.

ظلُّوا لمدَّةٍ غير يسيرة ساكنيْن صامتيْن.

بغتةً قالت إحدى المرأتيْن: - عليَّ أن أخرج.

وقامت المرأتان معًا، ففتحتا الباب - النافذة، وهُرعتا إلى الشرفة الواسعة المطلَّة على الشارع، وتبعهما آبي.

هم أولاء تحت الشمس، بعيونٍ محمرَّة، يلتقطون أنفاسهم. لطالما آمنت جوانا في فوائد الخارج، لم تشكّ يومًا في أنَّ الريح، والسماء، والغيوم، تحمل للمرء الأجوبة، كما تحملُ اللقالق المواليدَ. طفلةً كانت، كلَّما ضاقت بها السبل، تخرج طلبًا للسكينة في الحديقة عند زاوية شارعي ويستوبر وفيدانس. تركض على الطريق الإسفلتيّ حتى ينقطع منها النفس، حتى تنفجر رئتاها، حتى تضطرّ إلى أن تتمدَّد على ظهرها وسط العشب المجزوز، شابكةً ذراعيْها في شكل صليب، وقلبها

يخفق. مع كلِّ نفَسٍ يقتحمها الكونُ، وشيئًا فشيئًا تستعيد سيطرتها عليه. لكنَّ أشجار القيقب الوامضة في كارول ستريت لا تملك أيَّ حلٍّ بسيطٍ تعرضُه عليها الآن. مسحت إحدى الجوانتان أنفها، وتنفَّست طويلاً، ساعيةً إلى استعادة الهدوء. أمَّا الأخرى فأخذت تمسح على عينيْها.

قالت إحداهما زافرةً: - لا أستطيع أن أسرق منك حياتك.

- ولا أنا.

- ولا أستطيع أن أخسر حياتي.

التفتت إحداهما إلى الشابّ: - آبي؟ قُل شيئًا.

انتفض. ولم يكفَّ بصره عن التيه نائسًا بين جوانا وجوانا الأخرى. وحدها بطنٌ منتفخةٌ انتفاخًا لا يكاد يُلحظُ، تستطيع أن تُمايزَ بينَهما.

أنا آسف. الأحداث تتجاوزني. أنا... أنا عاجزٌ عن قول شيء.

خفض عينيْه، وتأمَّل الوشم على معصمه: نخلتان على كثيب. وشَمه تكريمًا لجدِّه، وقصَّته: طفلاً، كان قد قرأ كلمة OASIS واحة على ذراع الشيخ، فسأله عن سبب وشمه تلك الكلمة، فكان جواب الجدّ: اعلم يا عزيزي آبي أنَّ الواحة تعني ماءً في قلب الصحراء، هي مكانُ سكينةٍ وتقاسمٍ، لذا وشمتُها حين بلغت العشرين من عمري، لأنَّها ترمز إلى الأمل في حياةٍ جديدة بعد الحرب، هي تميمة حظٍّ، أفهمت يا آبي cksbringereinدGl. ردَّد الصبيُّ الكلمة: cksbringerدGl، وما يزال الرسَّام الألمانيّ مفتونًا بكون الألمانيَّة تعبِّر عن السعادة والحظّ بكلمةٍ واحدة: ckدGl. قد لا يكون الشقاء في نهاية المطاف سوى سوء حظّ. ويوم بلغ آبي عامه الحادي عشر، أخبره جدَّه بأنَّ ما وُشم على ذراعه ليس OASIS، إنَّما هو فقط رقم 51540، وقد قرأه الصبيّ بالمقلوب. وكان ذاك رقم ترحيله إلى معسكر أوشفيتز. وفي اليوم التالي لوفاة الشيخ، رسم آبي على جلده، في المكان نفسه، تلك الواحة التي وحدَه يعرف سرّها، والتي منها يستمدّ القوَّة.

على أنَّ المرأتيْن تنظران إليه، وما من ملاذٍ له في الوشم الذي يحدِّق فيه.

سألت جوانا يونيو: - لقد تزوَّجنا إذن؟ ونعيش هنا؟ كيف كان زواجنا؟

لم يكن ضمير «نحن» في أسئلتها مبيَّتًا. لكنَّه أعاد قليلاً من التوازن بين جوانا وودز وجوانا فاسرمان الحامل بطفلٍ من آبي. هي ليست الدخيلة الشاذَّةَ، إنَّما هي الشقيَّة المنسيَّة.

هبَّت نسمةٌ صيفيَّة، اهتزَّت لها فضَّةُ أوراق الشجر، وخفَّ ضجيج السيَّارات. «لا بدَّ أنَّ الرياح التي تهبُّ، تأتي من مكانٍ ما». لا تدري جوانا لم خطر ببالها هذا البيت.

قالت الأولى مرتجلة الكلام: - لا أدري ما العمل. قانونيًّا...

ستُجيب الأخرى، ليس ثمَّة من تشريع، وفورًا خطر ببالها: اللعنة، إنَّها أنا بكلِّ تفاصيلي، ما إنْ أشرع في التفكير حتى تخطر ببالي القضايا القانونيَّة. كذلك فكَّرت في قضيَّة مارتن غِير، في فرنسا، إبَّان القرن السادس عشر. وخَبرُه أنَّ نصَّابًا، يُدعى أرنو دو تيل، عاد إلى القريةِ، مسقطِ رأس غِير، وادَّعى أنَّه هو، فعاش مع امرأته وأقنع الجميع بأنَّه هو. ولكنْ وقع انقلابٌ في مجرى الأحداث، فعاد مارتن غِير، وانتهى الأمر بالنصَّاب معلَّقًا في حبل المشنقة. فكَّرت جوانا، ما الجدوى من ذكر ذلك، ما دامت الأخرى ستفكِّر فيه في الآن نفسه. غمغمت: - لا علاقة لواقعتنا هذه بتلك.

استقرَّ الصمت بينهم، لم يخرقه إلاَّ صوتُ نقرٍ مكتومٍ على زجاج النافذة، فالتفتوا ثلاثتهم شطر العميلَيْن الفدراليَّيْن اللذين لم يجرؤا، خجلاً أو رهبةً، على اقتحام الشرفة.

قال آبي رغبةً في التخلُّص منهما: - اصنعا لنفسيْكما قهوة.

سألت جوانا يونيو: - وإلين؟ مرضها؟

- أفضل حالاً. إنَّها تخضع اليوم لعلاجٍ. و... لقد حصلتُ على منصب عند دِنتن & لوفل. أنا في مهمَّةٍ لدى فالديو، حيث عُهد إليَّ بقضيَّة الإبتاكلوران.

- تمزحين؟ مع ذلك النذل المسمَّى بريور؟ أنت... أنا فعلتُ ذلك؟

- ليس نذلاً، إنَّما هو كليشيه أُلصق به، لأنَّه مليارديرٍ.

جوانا يونيو تعلم ذلك. تلك هي البداهة العبثيَّة. هي أيضًا كانت لتفعل الشيء نفسَه، لكي تدفع ثمن العلاج، وأيضًا لأنَّ الأمر يتعلَّق بدنتن & لوفل... من غير تفكير مدَّت يدها إلى آبي، فأمسك بها هو أيضًا من غير تفكير. وأمام حركتهما تلك اختنقت جوانا الأخرى، كأنَّما عُدمت الهواءَ، وأخذ

الألم يطحن صدرَها. أختها ستظلُّ في جميع الحالات أختَها؛ أمَّا آبي، فليس لديها غيره. ثمَّة من الحبّ ما يقبل الإضافة، وثمَّة منه ما لا يقبل القسمة البتَّة.

قال آبي وهو يمسك بيدها هي أيضًا: - يا له من وضعٍ رهيب! لست أحبّكما معًا. أنا أحبّ امرأةً واحدةً تُسمَّى جوانا.

لم يستطع أن يواصل. الدموع التي كانت تتلألأ في عينيْه صارت تنهمر، بلا انقطاعٍ.

طفلٌ، أُمّانِ

الثلاثاء 29 يونيو 2021

زقاق موريو، باريس

قبلها بيوميْن، بعث قطاعُ العمليَّات النفسيَّة التابع للمكتب الفدراليّ، بمراسلةٍ إلى أجهزة الدول الحليفة، تتضمَّن بروتوكولَه ملخَّصًا في خمس نقط: التهيُّؤ، الإعلام، اللقاء، المتابعة، الحماية. لكن اتِّباع التدابير الرسميَّة لا يحلّ أيّ مشكل؛ ففي هذا الفندق الباريسيّ السرّيّ الخاصّ، الذي احتفظ به جهاز مكافحة التجسُّس الفرنسيّ، وإن تغيَّر اسمُه على امتداد الزمن؛ وفي هذه الغرفةِ المسدلة الستائر، المطلَّة على حديقة مونسو، تدور أطوار المواجهة بين لوسي بوغارت الأولى والثانية، منذ ربع ساعةٍ، وقد أظهرت المرأتان على الفور عدوانيَّةً.

حربٌ شاملة. منذ عودة لوسي يونيو إلى فرنسا، أدركت أنْ لا مفرَّ لها من الحرب. ولوسي مارس لا تقلّ عنها إصرارًا على خوض الحرب. ابنُها، ابنُهما، الشقَّة، الأفلام التي تشتغل على مونتاجها، بل وحتى الملابس، كثيرٌ من الصراعات الحيويَّة والمعارك العقيمة.

وكان الاختصاصيُّون النفسيُّون يتوقَّعون ذلك: منذ عشر سنوات ولوسي تعيش مع ابنها، منغلقيْن على نفسيْهما، في كنفِ الحبِّ والحنان، ولم يسبق للمرأة قطّ أن فكَّرت في أن تشارك حضانَةَ الطفلِ والدَه، ذاك الرجل اليافع الذي فرَّ من مسؤوليَّة الأبوَّة، والذي لم يرغب قطّ في تربية ابنه، ولم يبدِ اهتمامًا به إلاَّ منذ سنواتٍ قليلة. والآن على لوسي أن تفاوض مع هذه الأخرى، وأن تقبل خانعةً فراقًا موجعًا! لم تقبل أيٌّ من المرأتيْن أن تذعن وتضحِّي على هذا المذبح المقدَّس المسمَّى «التوازن النفسيّ للطفل»، الذي يتشدَّق به علماء النفس الجاهلون. في الحبِّ الأموميّ تُحاربُ الأنانيَّةُ الأشدُّ سوادًا، بضراوةٍ، أشدَّ الكرمِ بريقًا.

قالت لوسي مارس: - لُوي ليس مستعدًّا.

أجابت لوسي يونيو: - إنَّه ابني. بقدر ما هو ابنك.

أخذت لوسي تُحدِّق في الأرضيَّة الخشب، بعنادٍ. ثم أجابت من غير أن ترفع رأسَها: - ينبغي التفكير في توازنه. والجواب: لا.

الجواب لا؟ كيف «لا»؟ بأيِّ حقٍّ تُمنع من رؤية ابنِها؟ ألا تفهم أنَّها هي أيضًا أمُّه. إنَّها لا تقلّ عنها شرعيَّةً؟ إنَّ لوسي يونيو يملأها الغضب، فلا قدرةَ لها على التفكير. وبالطبع، الغضبُ نفسُه يعتمل في الأخرى، فيظهرُ في شحوب خدَّيْها ورجفة صوتها.

صاحت لوسي يونيو: - لن أبقى في الفندق ليلةً أخرى. لديَّ شقَّة. هل تتخيَّلون لوهلةٍ أيّ جحيمٍ أعيشُ؟

عبَّت لوسي يونيو نَفَسًا عميقًا، ثم استأنفت: - لا يمكنُك العيشُ في بيتي.

حبست اختصاصيَّةٌ نفسيَّةٌ زفرةً. كان ينبغي أن يرسلوا مستشارًا في العلاقات الزوجيَّة، مختصًّا في الطلاق. أرادت أن تتدخَّل، لكنَّ لوسي يونيو أضافت، فيما يعاكس رغبتها: - ليس طيلة الوقت.

تمتم مسؤول من وزارة الداخليَّة، وهو شابٌّ تخرَّج حديثًا من المدرسة الوطنيَّة للإدارة - دفعة حنَّة آرنت، وألقيَ به مباشرةً في خليَّة الأزمة، وما يزال يتحسَّر على ضياع منصبه في وزارة الفلاحة: - إنَّ الوضع... غير مسبوقٍ يا مدام بوغارت... ونحن نسير صوب إيجاد حلّ.

- لست «أقلّ» من المرأة التي تعيش في بيتي، مع طفلي. هل تعرفون أنَّني ممنوعة، منذ خمسة أيَّامٍ، من الحديث مع لُوي؟

على أنَّ لوي ليس وحده مصدر كلّ هذا الغضب. إنَّها تكره في الأخرى ذلك الاهتزاز في الذقن حين يجتاحها الغضب، وذاك الالتواء الصغير عند جانبَي الشفتيْن، وطريقتها الوعرة في احتواء الانفجار تحت قناع اللامبالاة، وطريقتها في رفع نظَّارتها بأن تقطِّبَ الأنف. كثيرٌ من العلامات المقروءة في كِلَا الوجهيْن. كذلك كان ثمَّة الأسر الفوريّ الذي شعرت به إزاء هذه المرأة المليحة، المرأة التي ليست سواها هي نفسها، أسرٌ إزاء الجسم الشديد الرهافة، الواهن، والمعقَّد في

آنٍ بحيث لا يمكنه إلاَّ أن يبعث في الرجال جشع الحماية وشهيَّة التملُّك. لذا ترى لوسي يونيو، وهي تتأمَّل لوسي مارس في غيظٍ، تفكِّر في رافاييل.

رافاييل. كاميرامان التقت به أثناء تصوير. على الرَّغم من جسمه القصير، وأنفه الشبيه بأنف ملاكم، إلاَّ أنَّه لا يفتقر إلى جاذبيَّة. بين الفينة والأخرى، تتَّصل به: إن لم يكن مشغولاً، تذهب إليه، تدخل إلى البيت، فتقبِّله بالكاد. تتعرَّى، وتتمدَّد على السرير، وترغب دائمًا في أن يأتيها من خلف، وهو يشدّ شعرها، وهو يمسك بردفيْها؛ تصيبُ نشوتَها، فتبعده فورًا عنها، تداعبُ عضوَه بقوَّةٍ حتى يقذف، ثم تستحمّ سريعًا، وتغادر من فورها. لا تطلب شيئًا آخر. ليس الجنس حديقتها السرِّيَّة، إنَّما هو أرضٌ شاسعة. قبل رافاييل عرفت رجالاً آخرين. ما أبسط ألاَّ نحبَّ.

أيَّامًا قبل سفرها مع أندري إلى نيويورك، زارَته.

يومئذٍ، كعادتها، خلعت معطفها، ونزعت ساعتها، وخاتم الذهب الأبيض المرصَّع بحجر الزفير الذي أهداها أندري، وقالت له إنَّها لا تملك سوى نصف ساعةٍ، وقد شعر بأنَّها مستعجلةٌ جدًّا، لدرجة أنَّه اضطرب فلم يبلغها نشوتَها بالسرعة التي كانت ترجوها. فجثا على ركبتيْه وأراد أن يلعقها، بحنوٍ، لكنَّها ككلِّ مرَّةٍ، أبعدته عنها، قائلةً لا تفعل على هذا النحو، وأرجعته إلى وضعيَّتهما المعتادة، الوضعيَّة الكلبيَّة حيث لا يرى منها إلاَّ الشعر والظهر والعَجز. بعد ذلك بدقائق، كانت تستحمُّ، فقال لها رافاييل، إنَّه يودّ لو يلتقيان على نحوٍ مغاير، ألاَّ يكون لقاؤهما رهنَ بياضات مفكِّرةِ لوسي، أن يذهبا معًا إلى المطعم، والمسرح. نظرت إليه لوسي في صمتٍ، ونشَّفت جسمها، وارتدت تبَّانها وجواربها. أضافَ هو، أو بإمكاننا أن نقضي معًا أيّامًا في بروج أو البندقيَّة، أو أيِّ مكانٍ تختارينَه، أيَّامًا لنا وحدنا. أنهت ارتداء ملابسها، وقالت له، أيَّامًا لنا وحدَنا؟ أنا وأنت؟ ماذا؟ أتحسبُ أنَّنا نحبُّ بعضنا بعضًا فقط لأنَّك تنتصب فيَّ، ولأنَّني أصيح «ضاجعني، خُذني بقوَّة!»، أليس كذلك؟ نحن لسنا على علاقةٍ عاطفيَّة يا رافاييل، ليس هذا هو الحبُّ، هذا لا شيء، لا شيء بالمطلق. هذه مجرَّد كيمياء، مجرَّد نصبٍ واحتيال. ألا تُدرك أنَّه مجرَّد نصبٍ واحتيال!

ظلَّ الشابُّ ساكنًا، صامتًا، قبل أن ينفجر غضبًا، فيصيح بها: انصرفي، انصرفي! هزَّت لوسي كتفيْها، ولبست ساعتها وخاتمها، ثم خرجت. أغلق الباب خلفها، ثم قصد النافذة، وتأمَّلها وهي تبتعد في الزقاق، فتركب درَّاجتها السكوتر، ثم تختفي. ظلَّ هناك، محطَّمًا من المهانة والحزن،

كسرته هذه المرأة التي يتملَّكها من غير أن تكون له. لا شكَّ عنده في أنَّها بعد أسبوعٍ، أو شهرٍ، ستتَّصل به، كأنَّما لم يحدث شيء. فيفتح لها الباب، ويقول، لقد ظننت أنَّكِ لن تعودي. فتنظر إليه مندهشة، ثم تخلع ملابسها.

كانت لوسي يونيو تظنُّ أنَّها لن تخجل قطّ بهذه العلاقة المتخفِّية. لا يهمّها ما يمكن أن يخطر ببال رافاييل، أو غيره ممَّن سبقوه، لكنْ فجأةً، أمام هذه المرأة بنظرتها الشبيهة بنظرة زاحفٍ، هذه المرأة التي تُحيط علمًا بكلِّ شيءٍ، بما في ذلك مشاهد الهيمنة الدنيئة التي تجتاحها وتدفع بها إلى النشوة، أمام هذه المرأة، تشعر لوسي يونيو بالقرف يجمِّدُها. هي ذي عارية، قبيحة، بورنوغرافيَّةً. لم يعد الجنس أرضًا شاسعةً، وإنَّما هو مَطرحٌ في الهواء الطلق.

ارتجفت. وتساءلت عمَّا إذا كانت لوسي مارس، في هذه اللحظة، تفكِّر أيضًا في رافاييل، وعمَّا إذا كانت ما تزال تزوره؟ وما أهمِّيَّة ذلك؟

استأنفت لوسي مارس الكلام: - أنا أيضًا لست متيقِّنةً ممَّا إذا كان لوي مستعدًّا للقاءِ... أُمَّيْه...

تدخَّلت الاختصاصيَّة النفسيَّة: - إنَّه صبيٌّ شديد الذكاء والنضج. كلّ ردود أفعاله تؤكِّد أنَّ بوسعه مواجهة الوضعيَّة. والقرار يعود له هو أيضًا. لأنَّ لوي على اطِّلاعٍ بالأمر. لقد أصرَّت الأجهزة على أن يرافق لوسي مارس إلى هنا، ومنذ أكثر من ساعةٍ وهو يتحدَّث مع اختصاصيَّة طبّ نفس الأطفال، في الغرفة المجاورة. لقد استوعب الأمر، ليس لديه أُمَّان، وإنَّما لديه أمٌّ واحدةٌ مرَّتيْن. وحين قدَّرت الاختصاصيَّة أنَّ الوقت مناسبٌ، شغَّلت الشاشة التي تنقل ما يجري في الغرفة التي تضمّ أُمّه، من غير صوتٍ. اكتفى الطفل بأن جحظ بعينيْه، وقال: - عجيب جدًّا!

ضحكت المعالجةُ، وأومأت برأسها. أجل، عجيب جدًّا. ذكَّرته مرَّةً أخرى بأنَّ الأمر سرٌّ، ينبغي كتمانه، وأنَّ إفشاءه خطر. لكنَّ ذاك آخرُ انشغالات لوي: - سوف يطلبون منِّي أن أختار أُمَّا بينهما؟ لأنَّه حين ينفصل الأبوان يسألُ الأطفال أيّهما يريدون أن يعيشوا معه. بالطبع، الوضع هنا مختلف.

دوَّنت الاختصاصيَّة النفسيَّة، أنَّ لُوي محقٌّ. الوضع مختلف. ومع ذلك ينبغي، لمصلحة الطفل، إبرام عقدٍ، بل ميثاق.. ينبغي التوصُّل إلى اتِّفاقٍ لا يضرّ أحدًا.

لا يستطيع لُوي التعبير عمَّا يعتمل في ذهنه، ولا حتى الإقرار به، لكنَّ أمّه المفضَّلة هي تلك التي عرفها منذ ثلاثة أشهرٍ خلت، تلك التي كانت تتَّصل كلّ مساءٍ بأندريه، وتتحدَّث طويلاً في الهاتف، وتعهد به إلى جدَّته بضعة أماسٍ في الأسبوع. بالنسبة إلى لوي، كان من المهمّ جدًّا أن يظهر في حياة أمِّه، هذا الرجل الطويل ذو الشعر الأبيض، الميَّال إلى الطرافة. لقد كسر ظهوره الروتين، وقد أحبّ لوي السكينة التي حلَّت على أمّه، وضحكها، وسهومها من حينٍ إلى آخر. إنَّ للأمّ، غير الحاضرة على الدوامِ، فوائدَ، ولمَّا هجرت أمّه أندري استعاد لوي موضعه المركزيّ، واسترجع بغير متعةٍ عاداتهما الشبيهة بعادات زوجيْن قديميْن.

هو يعرف أندري منذ ثلاث سنواتٍ، وفي سُلّم عمره، تعتبر تلك أبديَّةً. لقد اعتاد المعماريّ أن يدعوهما معًا كلّ صيفٍ إلى منزله في الجنوب. هناك أخرج أندري ذات يومٍ من العلِّيَّة لعبةَ سجون وتنانين، وعلَّمه كيف يلعبها، علَّمه كيف يخلق عوالم وقلاعًا، أن يتقمَّص شخصيَّةً، أن يحارب حيتانَ قاتلةً ووحوشًا. أهداه اللعبة، مع قطع نردٍ متعدِّدة، وعلَّمه كيف يحسب الاحتمالات عند كلِّ ضربة، وكيف يختار أنسب سلاحٍ، وأفضل تكتيك. وبعد أدوارٍ قليلة، صار لوي قزمًا ساحرًا من الدرجة الثالثة، وأمُّه قزمةً راميةً. كذلك علَّمَه أندري الأحاجي.

قال لوي: - عندي أحجية.

ابتسمت الاختصاصيَّة النفسيَّة: - أنا مصغيةٌ.

- الفقراء يملكونَه، الأغنياء يحتاجونَه، وإن أكلنا منه، متنا.

أقرَّت الاختصاصيَّة النفسيَّة بعجزها عن حلِّ الأحجية.

- لا شيء.

- لا شيء؟ كيف؟

- الفقراء يملكون «لا شيء»، الأغنياء يحتاجون إلى «لا شيء»، إن أكلنا «لا شيء» سنموت.

- أحجيةٌ رائعة. ينبغي أن أحفظها.

اقترح لوي: - لكي أعرف من هي أُمِّي الحقيقيَّة، أستطيع أن أرمي النرد.

بدأت الاختصاصيَّة بابتسامة. مالارميه ليس مخطئًا، لنقُل هنا إنَّ ضربة نردٍ لن تُبطلَ الفوضى. ثم إنَّها قد أحبَّت كثيرًا كتاب الرجل - النرد للوك رينهارت، الكتاب الذي كان شهيرًا سنوات 1970، ويحكي قصَّة طبيبٍ عقليٍّ غارقٍ في الملل وانعدام الرضا، يقرّر أن يرمي النرد عند كلِّ قرارٍ من قرارات حياته. لذا تراها معجبةً بذكاء الاستراتيجيَّة التي تبنَّاها لوي لكي يتجنَّب التوتُّر، وميله التلقائيّ إلى السخرية، ممّا يبرهن على نضجه. ثم فجأةً استولت عليها بداهة الطرح: إنَّ لوي محقّ. هذا ما ينبغي القيام به: يظلُّ لوي سيّدًا على حياته، وفي الآن نفسه، لا يتحمَّل مسؤوليَّة قرار.

قالت الطبيبة النفسيَّة موافقةً: - بلى، هذه أفضل فكرةٍ يا لوي.

وأرادت أن تترك للطفل بلورَة الطريقة.

- كيف تتصوَّر ذلك؟

- مع بداية الأسبوع، سأرمي سبع رميات، رميةٌ لكلِّ يومٍ من أيَّام الأسبوع. إن كان الرقم فرديًّا بالنسبة ليوم الاثنين، فسيكون اليوم من نصيب إحداهما، وإن كان زوجيًّا يكون من نصيب الثانية... إلخ.

- ما المانع؟

وبحسابٍ سريع، أدركت أنَّ المجازفة بأن تُحرم إحداهما من طفلها لأسبوعٍ كاملٍ، لا تتجاوز نسبتُها واحدًا بالمائة، وواحدًا في الألف أن تُحرم منه عشرة أيّامٍ متتالية. لن تُحرم أيّ لوسي من طفلها، ولن تعترض على قرارٍ يتَّخذه النرد. بوسعهما أن ينظِّما وقتهما.

قالت الاختصاصيَّة النفسيَّة: - هل نذهب لرؤيتهما إذن؟

أومأ لوي موافقًا، ودخلا معًا إلى الغرفة حيث كانت تنتظرهما لوسي الأولى ولوسي الثانية. وما إن وقف الطفل عند عتبة الباب حتى تأمَّلهما: هذه، ثم تلك.. وقال مجدَّدًا باسمًا، عجيبٌ جدًّا، ومن غير أن يُبدي تفضيلاً لهذه أو تلك، جلس أمامهما على مقعدٍ، وعرض بهدوءٍ فكرتَه.

حاولت المرأتان أن تحتويا صهارة اللهب التي تتَّقد داخل كلٍّ منهما، وأخذتا تبتسمان إلى لُوي، وكلٌّ منهما تحاول استمالةَ ابتسامته. ولو أنَّ لوي كان كلبًا، وكان لهاتِه أو تلك عظمٌ، لأخفته في كمّها وحاولت استمالته به. لكنْ أيضًا، هذه وتلك، كانت تتأمَّله وتُصغي إليه، وفي قرارة نفسها، تزداد إعجابًا بهذا الصبيّ الرائع.

ولمَّا فرغ من بسط فكرته، استقرَّ بين الحاضرين صمتٌ، دام حتى رجَّه لوي: - لقد خطرت لي الفكرة بفضل لعبة سجونٍ وتنانين.

وابتسم بفخرٍ، كأنَّما جملتُه تفسِّر كلّ شيء. وإذّاك، هزَّت المرأتان رأسيْهما في آنٍ، مستسلمتيْن. أحيانًا، تكون أسوأ الحلول هي أفضلها.

قال لوي: - عندي أحجية. وُلدنا للأمّ نفسها، في السنة نفسها، والشهر نفسه، واليوم نفسه، والساعة نفسها. ومع ذلك لسنا توأميْن، ولا توأمتيْن. لماذا؟

هزَّت المرأتان رأسيْهما في لحظة.

أجاب لوي ضاحكًا: - لأنَّنا ثلاثة توائم.

بورتريه ڤيكتور ميزل، بعد البعث

الثلاثاء 29 يونيو 2021

جرف إيبور، نورماندي

هنا، تتلوَّى نباتات القرنيَّة تحت ريح الغرب، وطيور القطرس تحلِّق في السماء الرماديَّة لبحر المانش. والضباب الصاعد من البحر يعوِّم ملامح منازل إيبور، هناك في الأسفل. ڤيكتور ممدَّدٌ على العشب المرتفع، يتأمَّل السحب. حطَّ نورسٌ بقربه، فودَّ ڤيكتور لو يدنو الطائرُ أكثر، أن يدنو منه حتى يحاذيه بأجنحته، فيمنحه شيئًا من الإحساس بهذه الحياة البدائيَّة التي لم يعد يرى فيها سوى شكّ. يقف، يمشي صوب الجرف، يجلس على حافَّة الهاوية، ويلامس بأطراف أصابعه حجر الطباشير الأبيض الذي غسلته الأمطار مئات المرَّات.

نعم، هنا، في هذا المكان، نُثر رماد ڤيكتور ميزل الآخر، نهاية شهر أبريل. بطل روايته الأولى ستلاقينا الجبالُ، قرَّر أن يضع حدًّا لحياته هنا. لذلك فكَّرت كليمانس بالمر في هذا المكان، واختارته، مثوًى لرماده. هنا، قرأَت كلمات سِفرِ الجامعةِ، ابنِ داوود: باطلُ الأباطيل، قال الجامعةُ: باطلُ الأباطيل، الكلُّ باطل.

كلّ الأنهار تجري إلى البحر،

والبحر ليس بملآن.

إلى المكان الذي جرت منه الأنهارُ

إلى هناك تذهب راجعةً.

ما كان فهو ما يكونُ،

والذي صُنع فهو الذي يُصنَعُ،

فليسَ تحتَ الشمسِ جديدٌ.

ثم تلت خطبةً، رزينةً وصادقة، حول أهمِّيَّة تلك الطقوس، تلك الحيل التي يصطنعها الإنسان ليستعين بها على ما لا يطيق تقبُّلَه. بدأ المطر يتساقط، فأحبَّت ذلك المطر الصادق الذي أتى يُخفي دموعًا لم تكن تتوقَّع أن تذرفها. «الموت ليس البتَّة شيئًا يدعو للفخر يا ڤيكتور، الموت دائمًا متوحِّد. لكنْ لنا أن نأمل في أن يكون في لحظة الوداع الأخيرة هذه راحةٌ لمن بقوا. إنْ صَدَقَ الرواقيُّون القول، ولم يكن يجمع بين الناس شيء، لا الحبُّ، ولا العطف، ولا الصداقة، وأنَّ الجسد هو كلّ شيء، وكان الجسدُ منشأ الإحساس ومنتهاه، فإنَّ كلمتي هذه لم تذهب هباءً يا ڤيكتور».

تلك الكلمات، بوسع كليمانس أن تردِّدها على هذا الطيف الذي تتأمَّله يسير، مجازفًا، بحِذاء حرفِ الجُرف. تصيح به ألاَّ يدنو من الحافَّة، لكنَّ صوتَها لا يستطيع أن يعلو فوقَ هزيز الريح. يلتفت ڤيكتور إليها، يبتسم لها، يومئ بيده، ثم يعود صوبها، قائلاً: - أيُّ فرحٍ يشعر به المرء ساعة موتِ صديقٍ، حين يُدرك أنَّ الموتَ أخطأَه مرَّةً أخرى!

كليمانس مضطربة: لقد عاد بالفعل ڤيكتور الذي تعرفه. في ساعةٍ مبكِّرةٍ من الصباح، أنزلته في قاعة إفرو فوفيل طائرةُ إيرباس أرسلها الجيشُ، على التراب الفرنسيّ، هو وباقي ركَّاب رحلة 006 الفرنسيِّين، بعدما قضى المسؤولون ساعاتٍ يشرحون لهم الوضع. وكان ڤيكتور أوَّل المحرَّرين، إذ لا لقاءَ مرتَّبٌ بينه وبين ڤيكتور ميزل الآخر. هذا يعني عملاً أقلّ، واختصاصيِّين نفسيِّين أقلّ، لكنَّ الاختصاصيَّة التي عيَّنَتها له «السلطات» لا تتركه قيد أنملة. ولمَّا لم تكن الوضعيَّة مذكورةً في أيِّ كُرَّاسٍ، لم يبقَ لجوزفين ميكاليف إلاَّ أن ترتجل.

قالت:

- كنت محقًّا في قرارك أن تأتي للتأمَّل هنا.

- لم آتِ هنا للتأمُّل، يا سيِّدتي. أنا لست في حِدادٍ على نفسي. لقد ظننتُ أنَّ مجيئي إلى هنا سيساعدني على الفهم، لكنَّ المجيء لم يفدني بشيء. كلّ ما لديَّ من انطباعٍ هو أنَّني حُبست أربعة

أيّامٍ، كأنَّما غادرت بيتي شتاءً وعدتُ إليه صيفًا. هيَّا نتعشَّى في المدينة. أحتاج قطعةً من نقانق الأوندوييت، وكأسًا من نبيذ هو - ميدوك. لا بل كؤوسًا.

ركبوا سيَّارة البيجو السوداء، وانطلقوا رويدًا صوب إيتريتا. وكان السائقُ فردًا من مكتب حماية كبار الشخصيَّات. إلى جانبه جلست الاختصاصيَّة النفسيَّة، وفي الخلف ڤيكتور وكليمانس. السيَّارة يُخيِّم عليها الصمتُ، وليس يخدشه غير نقر الاختصاصيَّة على لوح الحاسوب. غاص ڤيكتور في منظر العشب والطباشير، أمَّا الناشرة فلم تستطع أن تحيد ببصرها عن الكاتب. وكانت قد قرَّرت ألاَّ تقابله أبدًا، وهي ذي لا تدري ما تقول عن الاضطراب الذي خلَّفتها فيه عودتُه. بعدما قرأت جميع كتبه، صارت أقربَ إليه من أيِّ وقتٍ مضى. غيابُه حفر فيها فراغًا.

في المطعم، اختار ڤيكتور مائدةً مدوَّرةً، وألحَّ على أن يتعشُّوا جميعًا، حتى الشرطيّ، وإن كان ذلك مخالفًا للقانون. طلب الكاتب نقانق أوندوييت، وقنِّينةً من نبيذ شاتو دو باييت 2016، وابتسم لكليمانس.

- هل تدركين؟ لقد تعشَّيْت معكِ الأسبوع الماضي، وكنَّا في بداية مارس. هل أنت سعيدةٌ برؤيتي من جديد؟

تأمَّلته الناشرة، ساهمةً، لكنَّ نظرتَها ضاعت في البعيد، فيما وراءَه. كانت تفكِّر في تلك المسيرة وسط المطر والطين، وتلك الجرَّة التي حملتها بيديْها. ودوَّامة الرياح البيضاء، وصوت الريح، والكلمة المقتبسة من سِفر الجامعة: «ما كان فهو ما يكونُ، والذي صُنع فهو الذي يُصنَعُ، فليسَ تحتَ الشمسِ جديدٌ.» أخرجَها ڤيكتور من حلمِها.

- كليمانس؟ هل أنت سعيدةٌ برؤيتي؟

- نعم يا ڤيكتور، سعيدةٌ جدًّا. اعذرني. لقد عشت شهريْن فظيعيْن وعجيبيْن في آنٍ. والآن أعيش هذا. إنَّها قصَّة...

تبحث كليمانس عن الكلمات. ثمَّة نكتةٌ يهوديَّة تقول إنَّ الربّ يقرأ بين الفينة والأخرى التوراة محاولاً أن يفهم ما يجري في العالم الذي خلقَه.

استأنفت: - لمَ أعلمتَني أنا، أنا وحدي دون غيري.

- أثق فيكِ أكثر من ثقتي في أيٍّ كان، وأعرفُكِ كتومةً. هل أخبرتِ أيَّ شخص؟ لا. ها أنتِ ترين إذن.

قالت كليمانس: - لسنا نعمل إلاَّ على تأجيل الأمر. سيعلم الجميع أنَّك من ركَّاب الطائرة.

تدخَّلت ميكاليف: - ليس بالضرورة. ستظلّ لائحة الركَّاب سرِّيَّةً إلى الأبد، السلطات تضمن ذلك.

استأنف ڤيكتور: - بوسعي أن أختفي، أن أبدأ حياةً جديدةً، بهويَّةٍ أخرى. لقد اقترحت علينا الحكومة هذا الإمكان.

- أوَّلاً، أنت لا ترغب في ذلك، وسيكون مستحيلاً عليك القيام به.

شغَّلت لوحَها، ودخلت موقع دار النشر، وضغطت على «جديد»، ثم على «الخلل»، وبعدها على «صحافة».

- أكثر من مائة مقال، وبرنامج، وصورتُك في كلِّ مكانٍ. في غلاف مجلَّة اقرأ لهذا الشهر. وستّ ترجماتٍ قيد الإنجاز، وحين يعرفون بأنَّك... هل تتخيَّل القوافل التي ستسعى في إثرك... لذا، أن تختفي... اللّهمَّ إلاَّ أن تلجأ إلى جراحةٍ تجميليَّة...

صباحًا، في قاعدة إفرو، قرأ ڤيكتور الخلل. تعرَّف فيه على أسلوبه، لكنَّه لم يجد فيه نفسَه. لم يستطعم فن الصياغة ذاك، ولا فتَنته الكتابةُ الشذريَّة. لم يُحط بأسباب الحماس الذي أثاره الكتاب.

ابتسم ڤيكتور: - كأنَّما كتبَه جانكليفيتش بتأثيرٍ من مخدِّر LSD. أنا «غيري» هو من كتبَه. لم أكتب منه حرفًا قبل سفري إلى نيويورك.

قالت كليمانس: - أمَّا أنا فأراك فيه، وقد أحببتُه. وإلاَّ ما نشرتُه. عليك أن تتقبَّل الوضع، لقد بِعتَ أكثر من مائتَي ألف نسخة...

- كان عليَّ أن أُجرِّب مخدِّر LSD منذ عهدٍ بعيد...

أقفلت اللوح، وبحركةٍ رصينةٍ، صبَّت لنفسها كأسًا من نبيذ هو - ميدوك.

- ينبغي أن نعلن «الانبعاث». سيسعَد ليفيو.

- من؟ سالرنو؟

- هو العضو الرئيس في نادي أصدقائك، الذي تشكَّل بعد وفاتك.

- ليس ممَّن قد أسمِّيهم صديقًا... كان لدينا أصدقاء مشتركون.

- لا بدَّ أنَّكما التقيتما كثيرًا قبل... قبل... المهمّ، لقد تلا خطبةً رائعةً، أثناء حرق الجثَّة، بلكنته الإيطاليَّة، قارئًا مقاطع من كتبك.

- لطالما أحبَّ ليفيو الجنازات. مديح الميِّتِ لحظتُـ «ـه» الأثيرة، فيها يستطيع أن يبسط في آنٍ تواضعه ورفعة نفسه.

- أعترف لك بأنَّه كان في حالته المفضَّلة إذن. على أيِّ حال، إلينا، سوف...

- إلينا؟ لقد تركتني منذ ستَّة أشهر. أقصد، منذ تسعة...

- لقد تصالحتُما... خلال الأشهر الأخيرة. لا بل إنَّها تؤكِّد أنَّكما عدتما إلى سابق علاقتكما.

- غريب!

صباح اليوم الذي هجرته فيه إلينا، وكان الفصل خريفًا، وهي تحتسي شرابَها الأبديّ «فضلاً، دابل قهوة بالقشدة، خفيفة جدًّا، ومن غير إفراطٍ في القشدة»، حرصتْ على أن تخبره بأنَّها لطالما اتَّخذت عشيقًا، عشيقًا «يريحُني، جدًّا». كان ڤيكتور من الذهول بمكانٍ، بحيث طلب منها أن تُعيد الجملة، فأعادتها، مغتاظةً، وهي تنطقها حرفًا حرفًا: «يضاجعني، جيِّدًا». هزَّ كتفيْه، وقد استولت عليه نوبةُ ضحكٍ، وقال: «هراء، يا إلينا، هراء!» قامت من مقعدها وأضافت: «أنت مثيرٌ للشفقة»، مشدِّدةً على كلمة «شفقة» حتى يسمعها الحضور القلائل. ثم انطلقت من غير أن تلتفت خلفها، بعدما حرصت بنظرتها المتغطرسة على أن يتنبَّه الجميع إلى بؤس الرجل الذي خلَّفته وراءها. تأمَّلها تبتعد، وإزاء عبثيَّة الوضع، ما لبث المرح أن اجتاحه شيئًا فشيئًا.

لذا، من الطبيعيّ أن يندهش لخبر مصالحتهما.

تنهَّد ميزل: - لقد أحسنتُ صنعًا إذ متّ. الخلاصة، أنتِ محقَّة، سيسعد الجميع بعودتي.

قالت كليمانس ضاحكةً: - أنا سعيدة. حين أتاني رجال وزارة الداخليَّة في دار النشر، وشرحوا لي الوضع، ثم اقتادوني إلى هنا، كنت مرعوبة. ظننت أنِّي سألتقي... كائنًا فضائيًّا. شخصًا بأعينٍ يملأها الخواء، وصوتٍ بارد، مثلما يصوّره فيلم Body Snatchers.

- آسف يا كليمانس، هذا حقًّا أنا. ثم إنَّ عندي سؤاليْن، يتعلَّقان بالمسائل المادِّيَّة. أحتاج هاتفًا شغَّالاً. بطاقة هاتفي عُطِّلَت. ينتابني الانطباع بأنَّني مقطوعٌ عن العالم. بي رغبةٌ ملحَّةٌ في أن أهاتف «أرملتي»... أن أسمع فرحتَها.

تدخَّل ضابط الأمن: - ستحصل على كلِّ ذلك يا سيِّد ميزل. ينبغي الحذر في الاتِّصالات.

- أريد كذلك العودة إلى منزلي.

- لقد حجزنا لك غرفةً في لوفالوا يا سيِّد ميزل. في مقرٍّ خاصٍّ بمكتب مكافحة التجسُّس.. لدواعٍ أمنيَّة. غدًا، نجد لك غرفةً في فندقٍ بباريس.

أرادت كليمانس أن تواصل: - ثم...

لكنَّها لم تدرِ حقًّا من أين تبدأ. الشقَّة، أفرغَها الأقارب الأباعدُ الذين تقاسموا الأثاث من فورهم، ثم عرضوها للبيع، «طبعًا بسعرٍ أقلّ من سعرها الحقيقيّ، لأنَّها شهدت حادثة انتحارٍ، أليس كذلك؟» نادي الأصدقاء نشيطٌ جدًّا... لا يُبدي ميزل أيّ سخطٍ، ولا يعلِّق، فتواصل هي: - أمَّا مكتبتك، فقد نُظِّمت أمسيةٌ في بيتك، وأخذ كلّ واحدٍ ما بدا له أن يأخذَه. ما يزال الكثير من الكتب في كراتين، منها قصص جاري المصوَّرة، وكذلك روايات دوستويفسكي... لم يعد أحدٌ يقرأ اليوم. أبناء عمّك أخذوا سلسلة لابلياد، فهي تصلح جيِّدًا للزينة، وتُباع جيِّدًا على موقع إيباي.

وضَّح رجل السلطة: - الحكومة تقوم باللازم لكي تستعيد ممتلكاتك يا سيِّد ميزل.

كان ثمَّة سؤالٌ يؤرق كليمانس، وقد بادرت الاختصاصيَّة النفسيَّة إلى طرحه: - ڤيكتور، لقد ناقشنا الأمر في الطائرة، لكنَّني ما زلت أتساءلُ... ما الذي دفع ميزل «الآخر» إلى أن يقتل نفسَه؟

بدا على الكاتب الانشراح: - لا أحد يقتل نفسَه. ألم يعلِّموكم هذا؟ كلّ ما في الأمر أنَّ المعذَّب يحاول الفرارَ عبر قتلِ سجَّانِه.

ألحَّت جوزفين ميكاليف في السؤال: - ألا يمكن أن يكون بسبب... إلينا ليسكوف؟ إنَّ كلمة L'Anomalie (الخلل)، تُجانسُ عبارة Amo Ilena L (أحبُّ إلينا لي).

قهقه ميزل.

- حقًّا؟ أنت جادَّة؟ من توصَّل إلى هذه الحماقة؟

- لمَّحت إلينا إلى ذلك في أحد حواراتها.

- لحسن الحظّ ثمَّة اللغة اللاتينيَّة لكي تكسر amo. كان الجنرال شيريدان ليقولَ إنَّ لغةً جيّدة هي لغةٌ ميّتة. إنَّها نكتةٌ كاملةُ الأركان، ولا سبيل عندي لتفسيرها. لستُ ذا ميولٍ انتحاريَّة. مع التأكيد على أنَّني قد أقتل نفسي طواعيةً، خاصَّة وأنَّ الإبطاء في ذلك قد يؤدِّي إلى فوات الأوان.

صاحت كليمانس: - آه!

ثم فتحت لوحها، وعالجته بحماسة، ثم أرت ڤيكتور جملةً من كتاب الخلل، وعلى وجهها أمارات الانتصار: - ترى أنَّكَ اقتبست من ڤيكتور ميزل.

ونطقت ڤيكتور Victضr بترخيم مقطعه الأخير ڤيكتور Victeur، وتحريك الراء، مستمتعةً بإطالة الوقوف عند حرف ض.

- أنا تحتَ هو - ميدوك، لا تفسير غير هذا يا كليمانس.

ابتسمت الناشرة للُعبة الكلمات التي انخرط فيها ميزل، إذ قابل بين تحت وهُو التي تعني الأعلى. فتحت حقيبتها، وناولت ڤيكتور ظرفًا.

- تفضَّل. كنت تحمل معك كلّ هذا، حين قفزتَ.

مزَّق ڤيكتور الظرف. كان فيه هاتفه، مفاتيحه، قطعة ليغو، حمراء. فتَّش في جيبه فأخرج منه قطعة الليغو، توأم القطعة التي وجدها في الظرف، فوضع القطعتيْن جنبًا إلى جنب. فحصهما،

مرتابًا، وركَّب إحداهما على الأخرى. الذاكرةُ تركب تمامًا على الذكرى.

*

بورتريه ڤيكتور مييزل، منبعثًا

الأربعاء 30 يونيو 2021

صالون لوتيتيا، باريس

استدعت كليمانس بالمر الصحافة تحت شعار: الحياة المزدوجة لڤيكتور مييزل، وقدَّمت للدعوة لمقطع من كتاب الخلل: «أخشى أنَّني أفرِّط في الأمل تجاه انعدام كفاءة كاتب سيرتي مستقبلاً».

المكان غاصٌّ بحشدٍ من الحضور. وقد نأى ڤيكتور بجانبه، في الغرفة المجاورة، مع فريق منشورات شجرة البرتقال. العدَّةُ المنصوبةُ ترعبُه: منصَّةٌ عالية، طاولة، كرسيَّان، واحدٌ له وواحدٌ لكليمانس، وأمامهما نحو مائةٍ من الكراسي كلّها مشغولة. وأقصى الغرفة تنتظره دستةٌ من الكاميرات.

قالت كليمانس: - الصحافة الأجنبيَّة هنا. كتابك يصدر الأسبوع القادم، في كلِّ أرجاء العالم تقريبًا... ترجماتٌ على عجل... أحيانًا تقريبيَّة.

- مبالغة... أنا لست جورج كلوني.

- بل أنت أكثر، أنت جُماع رومان غاري والمسيح. انتحارٌ وقيامة.

هزَّ ڤيكتور كتفيْه. نفضت كليمانس الغبار عن سترته الرماديَّة في حنوٍّ. واربَ ڤيكتور البابَ، وألقى نظرةً على صالة الصحافة.

- عزيزتي إلينا ليست هنا؟ لا بدَّ أنَّ أرملتي المسكينة ظلَّت في البيت «ترتاح».

قالت كليمانس مقطِّبةً الحاجبيْن: - نعم؟

- لا شيء، فقط أشرح لنفسي.

نظرت الناشرة إلى ساعتها، إنَّها السادسة مساءً.

- ينبغي أن نبدأ. لقد تأخَّرنا بسبب التفتيش عند الدخول. كثيرٌ من الصحفيّين يريدون أن يفتتحوا بك نشرات الثامنة.

- أما زالوا يمارسون هذا القدّاس؟ ألم يقضِ عليه الإنترنت وقناة بي إف إم؟

- عشرة ملايين شخصٍ يتابع تلك النشرات. أشعر بك مسترخيًا، بسب نصف عقار لكسوميل الذي تناولتَه، بل أراك مسترخيًا أكثر ممّا ينبغي. لا تهرِج، أرجوك.

قال ميزل: - أقسم لك، بأغلظ الأيمان، ألاَّ أفعل.

خرج من الكواليس، وصعد المنصَّة تحت وميض العدسات، وجلس على كرسيِّه، وكتم رغبةً في التثاؤب. إنَّه حقًّا مسترخٍ.

قالت كليمانس بالمر في الميكروفون: - مرحبًا بالجميع. سأكون موجزة، لأنِّي أتصوَّر أنَّ لديكم الكثير من الأسئلة...

لم يتعرَّف ڤيكتور على أيٍّ من الصحفيين المائة الحضور. لا يخشى أسئلة الأدب، فالصُحف بعثت بمراسلين، لا بنقَّاد. ولو أنَّ أحدهم قرأ الخلل، فإنَّما سيكون قد فعل ذلك بدافع الضرورة المهنيَّة. ولمَّا أنهت كليمانس تقديمَها، ارتفعت كلّ الأيادي. بهدوء، سيطرت على الفوضى، وناولت الكلمةَ الصحفيَّ الطويل الجالس في أوَّل صفٍّ.

- جان ريغال، صحيفة لوموند. سيِّد ميزل، منذ انطلاقك من باريس شهر مارس الماضي، لم يكد يمرّ بالنسبة إليك سوى أسبوعٍ واحد. وقد كانت الشهور الأربعة التي استغرقها غيابُك حافلةً بالأحداث. وبالنسبة إليك على وجه التخصيص، شهدت الشهورُ الماضية تأليف كتابٍ، ثم ما يمكن أن نسمِّيه موتَك. كيف تعيش هذا الوضع المذهل؟

- أتكيَّف مع الوضع قدر استطاعتي. لقد قرأت كتاب «ي»، كذلك المقالات التأبينيَّة التي كُتبت عنِّي. قد يرغب المرء في الموت لا لشيءٍ إلاَّ لرؤية ذلك.

- هل تعتبرون الخلل كتابكم؟

- حدِّد ما تقصدُه بضمير الجمع؟

شكَّ ڤيكتور في أنَّ كليمانس قد دبَّرت الأسئلة سلفًا. رفع عينيْه إلى السماء، واستأنف: - اعذر لي هذا الالتفاف. يعرض لي، بالتأكيد، أن أجد نفسي في بعض عباراته. لكنَّه مع ذلك، ليس كتابًا ألَّفتُه أنا الجالس أمامكم. أحصل على حقوق المؤلِّف، وهذا أمرٌ من الأهمِّيَّة بمكانٍ.

أسرَّت له كليمانس، وقد بدأت تأسف للعقار الذي أشارت عليه به: «قلنا: لا للتهريج...».

- في نظرك، هل يحمل كتابُك مفتاح فهم ما حدث في تلك الطائرة؟

- آلاف الناس يبحثون عن المفتاح. ولو كان الكتاب يتضمَّن مفتاحًا، لوَجدوه قبل أن أجدَه أنا نفسي. خاصَّةً وأنَّه كما تعلم، حين يملك المرء مطرقةً يتَّخذ كلّ شيءٍ، بالنسبة إليه، مظهر مسمار.

- هل تظنُّ أنَّنا قد نكون جميعًا ضمن محاكاة؟

- لا أدري. ولكي أقتبس من وودي ألان، أقول لو كان الحالُ كذلك، أتمنَّى أن تكون لدى المُبرمِج حجَّةٌ وجيهة، لأنَّ العالم الذي خلقَه يظلُّ في نهاية الأمر شيئًا بالغ الشناعة. وإن كنَّا، بحسب ما فهمت، نحن من يخلقُه.

- سيِّد ميبزل، كما تعلم، معظم ركَّاب الرحلة رفضوا الكشف عن هوِيَّاتهم، لمَ أنت تحديدًا تريد العيش في الأضواء؟

- لا أراني معرَّضًا لأيِّ شكلٍ من التهديد. وعلى العموم، أتمتَّع بحماية الشرطة، وكذلك بمتابعةٍ نفسيَّة. لقد حسبوا حساب كلّ شيء.

- هل تظنُّ أنَّك قد شعرت باللحظة الدقيقة التي شهدت ما يسمِّيه بعضهم «الانحراف / التشعُّب»، أو حتى، كما صاروا يسمُّونها اليوم، «الخلل»؟

- طبعًا. مثلما شعر بها جميع من كان في الطائرة. توقَّفت المطبَّات، وعادت الشمس لتسطع داخل المقصورة. هذه الجملة الأخيرة تصلح أيضًا تعريفًا لدواء بروزاك.

ضحكت الصالة، وكذلك ضحك ميزل، يبدو أنَّه صار يتموَّج بعض الشيء. قنطت كليمانس من عرضه.

- هل لديك علمٌ بأسباب انتحار «نسختك»؟

- لا بدَّ أنَّه رغب في الموت. فذاك هو السبب الرئيسيّ للانتحار.

- ما هي، بالضبط، علاقتك بإلينا ليسكوف؟

- حاليًّا، لا تجمعني بها أيّ علاقة. لنقُل تحديدًا، إنَّ علاقتي بها ترجع إلى زمن ما قبل الموت.

لقد صار ڤيكتور الآن متألِّقًا، وفي تألُّقه إشهارٌ حيٌّ لدواء بورومازيبام.

- آن، فاسور، عن Times Literary Magazine، هل تشتغل على كتابٍ جديد، يا سيِّد ميزل؟

نظر ڤيكتور إلى الصفِّ الأخير الذي أتى منه الصوت الأنثويّ، الأجشّ على نحوٍ رهيف. أشرق وجهُه. إنَّها هي، المرأة التي كان قد التقى بها في مؤتمر آرل، وكانت تهتمّ بالفكاهة عند غونتشاروف.

- أجل، أنا أكتب الآن كتابًا.

نظرت إليه كليمانس في ذهول.

واصل ميزل: - كتابٌ يعالج موضوعًا كلاسيكيًّا: امرأةٌ تظهر مجدَّدًا في حياة رجلٍ، بعدما ظنَّها قد اختفت إلى الأبد. سيحمل الكتاب عنوان: أَسكوت، أو عودة القشدة الإنجليزيَّة.

ابتسمت المرأة الشابَّة: - إنَّه عنوانٌ مذهل.

قالت كليمانس بالمر وقد خمَّنت أنَّ كاتبها صار يفكِّر في أشياءَ أخرى أهمّ عنده من المؤتمر الصحفيّ: - سؤالٌ أخير.

- أندريا هلفنغر، عن Frankfurter Allgemeine Zeitung، كيف تعرِّف ما حدث أمس في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة؟

- أعرِّفه؟ أظنُّ أنَّ الولايات المتَّحدة الأميركيَّة لم تعد سوى اسم. كانت ثمَّة دائمًا أميركاتان، واليوم ما عادتا تستطيعان التفاهم البتَّة. وإذ أرى نفسي في إحدى الأميركاتيْن تحديدًا، أرى أنَّني أنا أيضًا عاجزٌ عن فهم الأخرى.

النايت شو

الثلاثاء 29 يونيو 2021

مسرح إد سوليفان، نيويورك

تتأمَّل مسؤولة الماكياج لعرض Stephen ColbertLate Show صنيعَها في رضًا.

- أنت رائعة يا أدريانا. لقد استغللتُ الأمر فغيَّرتُ تسريحتك قليلاً.

أتت مساعدة بلاتو التصوير تقاطعها: - لقد أوشك أدريان أن ينهي استهلالَه. اتبعيني. حين ألمس كتفك، ادخُلي، اتَّفقنا؟

لم تنتظر المساعِدةُ الجوابَ، وغادرت المقصورات من فورها: صعدت الشابَّتان الدهليز صوب أنوار الأستوديو، ومكثن منتظراتٍ خلف الستار الأسود، في انتظار أن ينهي فريق Stay Human أغنيته.

ستيفن كولبرت خلف مكتبه، يتفحَّص أوراقَه، وحين عادت الكاميرا لتسلِّط عدستها عليه قطَّب المذيعُ، نجمُ قناة سي بي إس، حاجبيْه.

- أتشرَّف اليوم بأن أستقبل ممثِّلةً شابَّة، ممثِّلةً ذات شهرةٍ نسبيَّة (صيحات خيبة). لا داعي لهذه الفظاظة رجاءً، لا تتسبَّبوا لي في الإحراج (ضحك). وإذن، سيِّداتي سادتي، أطلب منكم تحيَّة... أدريانا بيكر.

أومأ ستيفن كولبرت بإشارة، فاشتعلت لافتة «Applause»، وعلى الفور، لبَّى الجمهور الأمر بالتصفيق.

تتقدَّم امرأةٌ شابَّة، رهيفة، تكاد تكون مراهقة، مرتديةً بلوڤر من ثوب الأنغورا أزرقَ غامقًا، وقد أسدلت على كتفيْها شعرَها الداكن في خصلاتٍ مستديرة.

يتقدَّم إليها المذيع، ويقبّلها على خدِّها لكي يطمئنها.

- مرحبًا يا أدريانا بيكر. أنا سعيدٌ جدًّا باستضافتك اليوم.

- مرحبًا يا ستيفن، أنا أيضًا سعيدةٌ بوجودي هنا معكم.

- وأرجو أن تكوني أيضًا معجبة. هذه أوَّل مرَّةٍ لك على التلفزيون؟

- نعم.

- ثمَّة دائمًا مرَّةً أولى. أتذكَّر أوَّل حبٍّ عرفته، وأوَّل موعدٍ لنا، حيث تعشَّينا في مطعمٍ، حتى إنَّني ما زلت أحتفظ بالفاتورة (ضحك). أدريانا، أنتِ في العشرين من عمرك، وأنتِ ممثِّلة. شاهدناكِ في شهر مايو الأخير، في مسرحيَّة روميو وجولييت. وكنتِ أنتِ؟

- جولييت.

- طبعًا، كنتِ أنتِ جولييت. وأين قدَّمتم مسرحيَّة روميو وجولييت؟

- في مسرح ساندرا فاينشتاين غام.

نطقَت اسمَ المسرح مثل همسة. سُمعت في القاعة قهقهاتٌ قاسية. احمرَّت الصبيَّة. رفع ستيفن كولبرت حاجبيْه.

أضافت:

- في ... وارويك، رود إيلاند. إنَّه مسرحٌ صغير...

- أدريانا، لا داعي للخجل. تعلمين أنَّ مات دايمن بدأ ممثِّلاً كومبارس؛ أدَّى دور بائع بيتزا، وكان دوره يتلخَّص في أن يمدّ إلى الزبون بيتزا مارغريتا، ولم يكن ينطق سوى جملةٍ واحدة: «خمسة دولارات، من فضلك»، والآن صار يدَّعي أينما حلَّ أنَّ البيتزا كانت ريجينا وكان يبيعها بسبعة دولارات، لكنَّنا نعرفه مختالاً فخورًا (ضحك). اعذريني يا أدريانا. وما مسرحيَّتك القادمة؟

- رغباتٌ تحت شجر الدردار. مسرحيَّة من خمسة فصول، من تأليف يوجين أونيل. أمثِّل دور الصبيَّة.

- الصبيَّة؟... ستكون ثمَّة مشكلةٌ إذن، ما دامت المسرحيَّة لا تضمّ سوى صبيَّةٍ واحدة. ألا تظنِّين ذلك؟

ضحكت أدريانا بيكر. وكذلك ضحك الجمهور من غير أن يفهم. ابتسم ستيفن كولبرت، وقال باتِّجاه الكواليس: - والآن أيُّها الجمهور العزيز، أريد منكم أن تستقبلوا بعاصفةٍ من التصفيق أدريانا بيكر! نعم، أدريانا بيكر!

من خلف الستار، خرجت أدريانا ثانيةً، ترتدي ملابس متطابقةً وملابس سابقتها، لا يفرِّق بينهما سوى لون البلوڤر، إذ ارتدت هذه واحدًا باللون الأحمر. قام كلُّ من في الصالة، مذهولاً، يصيح، ويصفِّق بكفَّيْه، بينما سار ستيفن كولبرت صوبَها، فقبَّلها واقتادَها إلى الكنبة حيث تجلس توأمتُها. وفي إدارة التصوير، سحبت المخرجة نفَسًا من سيجارتها الإلكترونيَّة ضاربةً عرض الحائط بالقانون الداخليّ والتشريعات التنظيميَّة. هذا هو التلفزيون الناجح، بفضله تتجاوز القناةُ شبكتَي إي بي سي وأن بي سي. وخلفَها العشراتُ، من مصلحة الخدمات على الشبكات الاجتماعيَّة لقناة سي بي أس، منهمكين في التغريد على تويتر، والنشر على إنستغرام، والبثّ المباشر على فايسبوك. ارتفع عدد الليكات والمشاركات ارتفاعًا متصاعدًا.

إنَّهما هنا، جالستيْن جنبًا إلى جنب، على جبين إحداهما خصلةٌ حمراء، وزرقاءُ على جبين الأخرى؛ لمسةٌ ذكيَّةٌ من طرف المجمِّلةِ، لمسةٌ خفيَّةٌ لكنَّها تبدو الآن صارخة.

تواصلت الهتافات، ثم عاد كولبرت ليجلس خلف مكتبه.

- مرحبًا يا أدريانا.

أجابته القادمة الجديدة: - مرحبًا يا ستيفن.

- أنتما لستُما توأمتيْن؟

أجابت المرأتان في آنٍ واحدٍ، بالابتسامة والحيويَّة نفسها: - كلاَّ!

- هِه! حسنًا، أظنُّ أنَّ الجمهور قد فهم (ضحك). منذ ساعاتٍ لا حديث إلاَّ عنكما. ينبغي أن أميّز بينكما، بأنْ أُسمّي إحداكما أدريانا مارس والأخرى أدريانا يونيو. يونيو ومارس هما الاسم المشفَّر الذي استعمله مكتب التحقيقات الفدراليّ، أليس كذلك؟

- بلى.

يونيو بالأحمر، ومارس بالأزرق، هكذا أُميّز بينكما... لا تقولا إنّي مخطئٌ، لقد دفع الإنتاج مبلغًا طائلاً في البلوڤرَيْن وصباغة خصلتيْكما.

- حاضر.

ردّ الفعل نفسه في الوقت نفسه من طرف الفتاتيْن، والافتتان نفسه من طرف الجمهور. الشابَّةُ أدريانا، أو بالأحرى الشابَّتان أدريانا، تلتهم الشاشة.

- أدريانا يونيو، أنتِ لم تمثّلي دور جولييت، أليس كذلك؟

- بلى، لم أمثّله.

- لم تمثّليه لأنَّ المسرحيَّة عُرضت في مايو. عندما حطَّت طائرتكم منذ خمسة أيَّامٍ في قاعدة ماغواير الجوّيَّة، حيث احتُجزتِ أنتِ ومائتان واثنان وأربعون راكبًا، كنت على يقينٍ من أنَّكم في شهر مارس، أليس كذلك؟

- بلى يا ستيفن. لا أستطيع أن أُخبرك بالتاريخ المضبوط. لقد منعنا الـ أف بي آي من القيام بذلك، لأجل سلامة الجميع.

- أتفهَّم. أريد أن أعرف، وأظنُّ أنَّ الجمهور أيضًا يريد أن يعرف كيف تلقَّيتِ نبأ وجود «نسخةٍ منك»؟

حدَّق في المرأتيْن باهتمامٍ بالغ: - أدريانا مارس، يوم السبت الماضي، أتى الـ أف بي آي في ساعةٍ مبكّرةٍ جدًّا ليأخذك من بيت والديكِ.. في... - يراجع ستيفن أوراقَه من غير استعجال - إديسون، بنيو جرسي. لا بدَّ أنَّ والديْكِ قد أُصيبا بالرعب... وأنتِ كذلك...

- نعم، لقد أخبرنا رجال الـ أف بي آي بأنَّها مسألة أمنٍ قوميّ. ومع ذلك، حاولوا أن يطمئنونا.

- أجل، من المطمئن أن يَقتحم منزلك، مع الفجر، عنصران من جهاز الـ أف بي آي. (ضحك). ثم؟

- ثم، اقتادوني حتى القاعدة بالهليكوبتر. و...

- أوَّل مرَّةٍ تركبين فيها الهليكوبتر؟

- نعم.

- ضجيجٌ كبير. كأنَّها آلة غسيلٍ في مرحلة العصر. المراوح، والريح... أكره طائرات الهليكوبتر.

يتلاعب ستيفن كولبر بصبر جمهوره الذي كاد ينفد، لكنَّه يعرف أين ومتى يتوقَّف: - ولمَّا حطَّت الهليكوبتر في القاعدة العسكريَّة؟

- اقتادوني إلى بنايةٍ إداريَّةٍ كبيرة، يحرسها جنود، وأدخلوني إلى قاعةٍ بسيطة، فيها طاولة، وبضعة كراسي، وجلست إلى جانب اختصاصيَّة نفسيَّةٍ وضابطةٍ من الـ أف بي آي.

- ماذا قالوا لكِ؟

- ألاَّ أخاف، وأنَّني سأعيش لحظةً متميِّزة.

قال ستيفن كولبرت:

- وحينئذٍ...

قالت أدريانا يونيو:

- وحينئذٍ أدخلوني، وكانت ترافقني أيضًا اختصاصيَّةٌ نفسيَّة.

- لا بدَّ أنَّ الأمر شكَّل صدمةً بالنسبة إليكما، وبالنسبة إلى الاختصاصيَّتيْن النفسيَّتيْن كذلك... (ضحك).

- قالت الشابَّة ذات البلوڤر الأزرق: - استغرق الأمر منِّي دقائق حتى أدركت أنَّني أمام... أنا. شعرت بالدوار، وشرعت في التساؤل عمَّن أكون وعمَّ إذا كنت حقًّا موجودة؟

- وأنت يا أدريانا يونيو، أخبريني، كيف حدث الأمر.

- حطَّت رحلتُنا ثلاثة أيَّامٍ قبل ذلك...

- في شهر مارس بحسب ظنّك...

- نعم. وقد وقعنا أثناء الرحلة في مطبَّاتٍ. وتضرَّرت الطائرة. وحُبستُ في معزلٍ عن العالم الخارجيّ، لا اتِّصال، ولا هاتف، ولا أيّ شيء...

- لم يكن بإمكانكِ حتى لعب كاندي كراش؟ (ضحك). وإذن، يوم الإثنيْن الماضي، أي اليوم الثالث...

- أتوا إليَّ يُخبرونني تلك الأشياء نفسها، أي اللحظة المميَّزة، إلخ. وأنَّني سألتقي شخصًا من المستحيل أن ألتقيه...

- وبمن ظننتِ الأمرَ يتعلَّقُ؟

- أعلم أنَّ ما أقوله عبث، لكنَّني ظننتُ أنَّني سألتقي بجدَّتي التي توفِّيت شهر يناير (آهات تأثُّرٍ في القاعة).

- أوه، آنا آسف يا أدريانا. تعازيَّ.

- ودخلت إلى القاعة...

نظرت أدريانا يونيو إلى أدريانا مارس التي كانت تبتسم. صفَّق الجمهور مجدَّدًا. لم يرد كولبرت أن يضيِّع الإيقاع، فواصل على الفور.

- إلٰهي... لو كنت مكانكِ لأصبت بنوبةٍ قلبيَّة. لا بل لأصبتُ بنوبتيْن قلبيَّتيْن. (ضحك). هل ارتعبتِ؟ يا أدريانا مارس؟

- بالتأكيد. في البداية، لم نجرؤ على الحديث إلى بعضنا بعضًا، اكتفينا بإجابة الاختصاصيَّتيْن النفسيَّتيْن وضابطة الـ أف بي آي. وقد عرضوا لنا ڤيديو... شارحًا. حيث نرى في المقصورة اللحظة حيثُ... لحظةَ...

أتمَّ ستيفن كولبرت كلامَها وهو يطالع أوراقَه: - لحظة التفرُّع، أو الخلل.

- أجل. ثم بعد ذلك، اقترحوا علينا أن نطرح على بعضنا بعض الأسئلة التي نريد. أراد الـ أف بي آي أن يبرهن لكليْنا أنَّ الأخرى ليست... ما أقول... نتيجةَ استنساخ. وأنَّ لنا الحياة نفسَها، والذكريات نفسها.

دقَّق ستيفن كولبرت:

- الحياة نفسَها حتى شهر مارس الماضي. مثلاً، أنتِ يا أدريانا مارس قد سألت أدريانا يونيو شيئًا لا يعرفُه غيرك، أليس كذلك؟

أجابت أدريانا مارس في خجل: - بلى. سألتُها عن شيءٍ حدث ليلة رأس السنة، ووحدي أعرفه.

أضافت أدريانا يونيو:

- الحقّ أنَّنا معًا نعرفه (ضحك).

الحقّ أنَّ عدد من يعرفون ثلاثة: هما معًا، وأخوهما الصغير الذي ما كان ينبغي أن تدخل عليه من دون أن تطرق الباب، وأن تترك له الفرصة لكي يُغلق حاسوبَه.

ابتسم ستيفن كولبرت:

- لديكما فرصةٌ لم يسبق لها مثيل، لعلمكم أنا شربتُ ليلة رأس السنة لدرجة أنَّ ذكرياتي تبدأ من ظُهر يوم 4 يناير (ضحك). وإذن، أنتما الآن مقتنعتان بأنَّكما... كليْكما أدريانا؟

أجابتا بصوتٍ واحدٍ:

- مقتنعتان تمامًا.

أثار جوابهما هتاف جمهورٍ مفتون.

- أحيانًا، أقول لنفسي بأنَّنا كنَّا على وشك الوقوع في كارثة، ماذا لو أنَّ الأمر حدث مع آير فورس وان. هل تتخيَّلون؟ أن يصير لنا رئيسان اثنان؟ (صيحات وتصفيقات). معًا لا بدَّ أن يُوقِعا تويتر في يومٍ واحد. أتصوَّر أنَّهم قد قدَّموا لكما تفسيراتٍ، من قبيل تلك التي بتنا نطالعها في الصحافة منذ ذلك اليوم...

أومأت المرأتان موافقتيْن، فواصل المضيفُ.

- هل ثمَّة تفسيرٌ يبدو لكما أكثر قابليَّة للتصديق من غيره؟

هزَّتا رأسيْهما.

- على أيِّ حالٍ، بالنسبة إليَّ أنتم لستم محاكاةً. ثمَّة من يظنُّ أنَّكم مئتان واثنان وأربعون مخلوقًا فضائيًّا. وأنَّكم ستجتاحون الأرض (ضحك). والآن، ماذا تنويان أن تفعلا؟ لا بدَّ أنَّكِ قد عُدت إلى بيت والديْك يا أدريانا يونيو، فهناك تعيشين...

- لقد أنزلوني في غرفة أخي الصغير السابقة، إنَّه يدرس في دوك. قابلتُه أمس مساءً، حين أعادني الـ أف بي آي إلى المنزل.

- أخوكِ أوسكار، أليس كذلك؟ ما كان ردّ فعله يا أدريانا مارس؟

كرَّر لعشر مرَّات على الأقلِّ «شيءٌ لا يصدَّق». واقترح أن نسرِّح شعرنا على نحويْن مختلفيْن.

ضحك الجمهور، وضحكتا هما أيضًا، وانصرف عنهما ستيفن كولبرت ليتحدَّث إلى الكاميرا.

- أوسكار في الصالة. وقد طلبنا كذلك من والديْكما الحضور، لكنَّهما رفضا. كيف تجري الأمور معهما؟

تبادلت المرأتان النظر، وكانت يونيو المبادرة إلى الجواب: - أمِّي خائفة، لم تجرؤ على تقبيلي صباح اليوم.

أضافت أدريانا مارس:

- إنَّها خائفةٌ من كلتيْنا. لم تعد قادرةً على التمييز بيننا. تعتقد أنَّ إحدانا...

أتمَّت أدريانا يونيو الجملة: - «مزيَّفة».

- ووالدكما؟

صمتت الشابَّتان. وندم المنتج إذ لم يبيِّن لستيفن كولبرت حقيقة الوضع: حين عادت الأدريانتان معًا إلى إديسون، سبقهما إلى المنزل ضابطٌ من الـ أف بي آي واختصاصيَّة نفسيَّة. وشرحا طويلاً للوالديْن ما لا يقبل الشرح. فلم تكفّ الأمّ عن ترديد: كيف يُعقل بحقِّ السماء؟ وحين دخلت الصبيَّتان، قام الأب عن الأريكة حيث كان يجلس، ومرعوبًا صعد الدرج من غير أن ينبس بكلمة، فأغلق على نفسه باب غرفته. وكان عليهم أن يفاوضوه طويلاً من وراء الباب حتى يوافق على الخروج. ومن حينها، يستنفر سلوكه الـ أف بي إي، لدرجة أنَّ المكتب ألحَّ على أن يبقى أحد رجاله في المنزل على الدوام.

أدرك كولبرت أنَّ عليه تجنُّب الموضوع. وقبل أن يستقرّ القلق في الأجواء، التفت إلى أدريانا ذات البلوڤر الأحمر.

- لا أحد يستطيع أن يتكيَّف بسهولةٍ مع وضعٍ بهذا القدر من الفرادة. الفرادة ليست حقًّا بالكلمة المناسبة هنا (ضحك). إنَّ والديْكما يحبَّانكما، ولا بدَّ أنَّهما الآن سعيديْن بأن صار لديهما ابنتان في روعتكما.

صفَّق الجمهور طويلاً لهذه الحكاية الشبيهة بحكايا الجنِّيَّات، حتى إنَّ كولبرت اضطرَّ بنفسه إلى إيقاف التصفيق.

- وبينكما كيف تجري الأمور؟

أجابت أدريانا يونيو:

- بخير.

وهزَّت أدريانا مارس رأسها.

ليست تلك كذبةً للتقيَّة. فالمرأتان الشابَّتان ليستا متنافستيْن. الحياة أمامهما، والمستقبل ينتظر منهما أن تفتحاه، وليس لديهما بعد ما يوجب التقاسم.

- هل لديكِ حبيب يا أدريانا يونيو؟ علمًا بأنَّني لا أمارس هنا دور محاكم التفتيش، ولا أحد سيلومك إن أردت الاحتفاظ بذلك لنفسك.

- كلاَّ، لا مانع عندي من الإجابة. أنا عازبة.

- وهذا ليس المكان المناسب لهذا التصريح يا أدريانا (ضحك).

استدار كولبرت شطر أدريانا الزرقاء.

- وأنت يا أدريانا مارس؟ منذ شهر مارس الماضي، هل عرفت شخصًا؟

- نعم، منذ ثلاثة أشهر.

استأنف كولبرت:

- شكرًا، لأنَّكِ شاركتنا هذا يا أدريانا. وما اسمه؟

- نولان.

ضجَّ الجمهور في مرح. وفي إدارة التصوير تحمَّس المنتج: الحبُّ دومًا منتوجٌ جيِّد.

واصل كولبرت:

- أحسبني أعرف أنَّ نولان كان واحدًا ممَّن شاركوكِ مسرحيَّة روميو وجولييت. هو ليس روميو؟

كلاَّ، إنَّه مركوتشو.

- آه.. مركوتشو! أقرب الأصدقاء إلى روميو. وهل يمكن أن يكون نولان - مركوتشو هنا معنا في الصالة؟

جاس ضوء الكشَّاف مستكشفًا صفوف الجمهور ببطءٍ، ونزل صوب الصفّ الأوَّل وتوقَّف عند شابٍّ أسود طويلٍ ونحيف، فابتسم الشابُّ مطوَّلاً، ثم قام وسط الهتافات.

- سيِّداتي سادتي، حيُّوا معي نولان ي.

مدَّ له كولبير اليد وساعده على ارتقاء المنصَّة. وكما كان متوقَّعًا لم يهدأ التصفيق. الأدرياناتان تبتسمان، وتحيِّيان الجمهور: أدريانا مارس تبتسم ابتسامةً متكلِّفةً بعض الشيء، بينما تنظر أدريانا يونيو إلى نولان بابتسامة دهشةٍ تثير ضحك الجمهور. لقد قابلت نولان في الكواليس، لكنَّها تتظاهر بالدهشة، تلك طريقتها في لفت الانتباه إليها. لم يكن من الصعب إقناع هذه أو تلك بلعب هذا المشهد، وكذلك نولان. إنَّ Stephen Colbert Late Show، برنامج ترفيهٍ ناجحٍ جدًّا، وهما لم تختارا هذه المهنة لكي ترفضا الأضواء، وتحتجبا خلف عفَّةٍ جبانة. جميعهم قبلوا اللعبة، وقبلوا أن يظهروا في البرنامج.

- تستطيع أن تُقبِّل حبيبتك يا نولان. إيَّاك أن تخطئ (ضحك).

قبَّل الشابُّ أدريانا مارس على خدِّها برقَّةٍ، قبل أن يصافح أدريانا يونيو مصافحةً سريعة. هزَّ ستيفن كولبرت رأسَه.

قال كولبرت:

- لا داعي للقلق يا فتَى، لا أحد يتوقَّع أن يوضع في مثل هذا الوضع. قل الصراحة يا نولان، لو أنَّك قابلتهما في المقصورات، هل كنت لتميِّز بينهما؟ وماذا لو اعترفنا لك بأنَّنا قد اتَّفقنا معهما منذ البداية على أن تتبادلا الهويَّة؟ ماذا لو أنَّنا حاولنا خداعك؟

من بين الجمهور، ارتفعت جَلَبة ذهول. استحوذ على نولان شكٌّ فعليٌّ، وفقد التماسك، فتراجع غريزيًّا، بخطوةٍ عن أدريانا مارس. لم يعد الأمر مجرَّد لعبة. فجأةً، استولى القلق على الجمهور، وعلى الفور ندم كولبرت لنطقه تلك العبارة الماكرة.

- لا داعي للقلق يا نولان. إنَّها بالفعل أدريانا التي تقصدُها (صيحات ارتياح وسط الجمهور). كانت تلك مزحةً ثقيلةً منِّي، لكنَّني لم أستطع مقاومتها. اعذرني...

أمسك نولان من جديد بيد أدريانا. تجهَّم ستيفن كولبرت. يلوم نفسَه على القسوة التي أبداها، وكلّ ذلك لأنَّه ترك للارتجال اليدَ العليا. قرأ مجدَّدًا في ورقاته، واستعاد طريقَته المميَّزة، واستأنف الكلام: - حسنًا... كيف ستتقاسمان الأدوار الآن؟

وبينما يستعيد برنامج Stephen Colbert Show، مزاجه الطفوليّ المرح، كان القلق يستقرّ في غرفة إدارة التصوير. بضع شاشات تعرض مسرحَ إد سوليفان من الخارج. ما إن بدأت الإشعارات تظهر على شبكات التواصل الاجتماعيّ حتى انطلق عشرات المسيحيِّين المتعصِّبين صوب قاعة العرض، ومنذ عشر دقائق وهم يحوِّطونها.

قالت المنتجة بابتسامةٍ شاحبة: - ما كنت أظنُّ أنَّ نيويورك تضمّ هذا العدد من المهووسين بالربّ.

وكانت التدابير الأمنيَّة قد تضاعفت بسبب العرض، حزامٌ رقيقٌ من الشرطة يحاول إبقاء المحتجِّين على مسافةٍ من المسرح، لكنَّ المحتجِّين يصيحون، في كاميرات المراقبة، نافثين كراهيَّتهم، هازِّين لافتاتهم: «Vade retro»،[13] «بنات الشيطان»، «صنيعة الشيطان»، «هرطقة»...

تساءلت المنتجة:

- هرطقة؟ أيّ هرطقة؟

أجابتها مساعدةٌ:

- لقد قرأت أنَّهم يعتبرون النسَخ ملاعين. مستندين في دعواهم إلى الوصيَّة العاشرة.

- أيّ وصيَّةٍ هذه؟

- تعلمين... «لا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، إلخ.» بالطبع لا يستطيع «النُسَخ» العملَ بهذه الوصيَّة، ما داموا يشتركون بملكيَّة كلّ شيء. ومن جهةٍ أخرى، نستطيع أن نحتجّ بأنَّهم ليسوا «أقرباءَهم»...

- نعم. أشكّ في أنَّ هؤلاء الحمقى قادرون على التفسير اللاهوتيّ.

فجأةً، وبينما تتوافد تعزيزات الشرطة على المكان، طار مولوتوف في الجوّ كشهابٍ من اللهب، ثم تناثرت شظاياه عند مدخل المسرح. هرع عمَّال المسرح إلى إخماد النيران، وأخذ رجال الشرطة يدفعون المهاجمين، فأخرجوا هراواتهم، وشرعوا في الاعتقالات.. بلا فائدة، ما زال الحشد المستثار يكبر ويكبر، حتى أسقط الحواجز، محاولاً شقّ طريقٍ صوب عتبات المسرح.

بلغ البرنامج نهايته، والتفت كولبرت إلى الجمهور بعدما أُخطرَ بالنيران.

- أصدقائي، سنضطرُّ إلى أن نبقى في المسرح مدَّةً أطولَ. في الخارج، اضطراباتٌ خطيرة، وصداماتٌ مع الشرطة. فإنْ تركناكم تخرجون الآن سنعرّضكم للخطر. وبالمناسبة هذا هو آخر أسئلتي لضيفتيْنا معًا: لقد نبَّهكما الـ أف بي آي إلى خطر التعصُّب الدينيّ، إذ صدرت عن عددٍ من المجامع الدينيَّة تصريحاتٌ تصفكما بالكائنات الشيطانيَّة، وبـ «الفظاعة». وصلتكما تهديدات بالقتل، أليس كذلك؟

- بلى، عشراتٌ من الرسائل على حسابي - فايسبوك، أقصد حسابنا...

- آسفٌ حقًّا لكما. حسنًا، ما رسالتكما إلى هؤلاء الناس الذين يكونون أحيانًا فقط خائفين، لأنَّهم ضحايا سوء الفهم؟

ترك ستيفن كولبرت الصمت يستقرّ. إنَّها لحظة التوتُّر القصوى في البرنامج، اللحظة التي سيتذكَّرها الجميع. وقد تمرَّن عليها ستيفن والصبيّتان طويلاً أثناء التحضير للبرنامج، مع اختصاصيِّين بعثت بهم خليَّة الأزمة. إنَّه خطابٌ تمرَّنت على إلقائه جوانا يونيو بصبرٍ، وقد وقع عليها الاختيار تحديدًا - وكان الاختصاصيُّون النفسيُّون حاسمين في هذا الأمر - لأنَّها هي من سيعتبرها معظم الناس «دخيلةً».

قالت أدريانا يونيو بعذوبة: - بالطبع، لا أعرف كيف حطَّت تلك الطائرة مرَّةً ثانية. ولا أحد يعرف، (نعم احرصي على الحديث ببطءٍ، ركِّزي صوتك، أظهري أنَّك تواجهين صعوبةً في إيجاد الكلمات، ادفعيهم إلى الشعور بالتأثُّر). ما أريد أن أقوله لكلِّ هؤلاء الناس الخائفين، هو أنَّني أنا نفسي خائفة. ينبغي أن يحاول الجميع تخيُّل ما نعيشه. لم أكن مختارة، ولا كنت بالأحرى «مصطفاة». إنَّ ما يحدث لي، أو بالأحرى ما يحدث لنا، كان يمكن أن يحدث لأيِّ شخصٍ هنا في القاعة. أنا أيُّ أحد... (إن كان ممكنًا أعيدي هذه الجملة، كلاًّ، سيبدو أن في الأمر مبالغة). لست مميَّزةً على أيِّ نحوٍ، (قفي برهةً)، أنا شابَّةٌ في التاسعة عشرة من عمري، أعيش في إديسون، وأرغب في أن أصير مُدرِّسةً، (لا تقولي أستاذة فرنسيَّة، فكثيرٌ من الناس لا يحبُّون الفرنسيَّة، ولا تقولي حتى أستاذةً، اكتفي بكلمة مدرِّسة، الجميع يحبُّ المدرِّسات)، أنا شابَّةٌ مولعةٌ بالمسرح، أُمارس المسرح هوايةً، (شدِّدي على كلمة «هواية»)، شابَّةٌ كانت عائدةً من أوروبا بداية شهر مارس، (نعم، هنا أيضًا يُستحسن استعمال أوروبا بدلاً من فرنسا)، فألفت نفسها في شهر يونيو، لا تعرفُ كيف، ولا تفهم شيئًا ممَّا يحدث لها، وعليها أن تتعامل مع الوضع. (قفي برهةً أخرى، تمتمي، كأنَّك عاجزةٌ عن التعبير)... وهذه الصبيَّة الواقفة أمامي، والتي هي أنا بقدر ما أنا أنا، هي أيضًا ينبغي أن تتعامل مع الوضع. هذه الفتاة المسمَّاة أدريانا قد عاشت أكثر ممَّا عشتُ أنا بثلاثة أشهر، لكنَّنا نمتلك الذكريات نفسها، ولدينا الإيمان بالربّ نفسه، (كدتُ أنسى الربّ، اللعنة، مع أنَّه هو الأهمّ، وقد ألحُّوا عليَّ في ذكره، ألحُّوا عليَّ في أن أبيِّن أنَّنا مؤمنتيْن، ومع ذلك كدت أنسى، اللعنة)، لدينا الأصدقاء نفسهم، والأبويْن، نفسهما - وكلتانا يحبَّانهما بالقدر نفسه، لا بل حتى ملابسُنا ينبغي أن نتقاسَمها، ما دامت ملابسَها هي أيضًا.

قاطعتها أدريانا مارس: - وفضلاً عن ذلك، تنتابنا دائمًا الرغبة في أن نرتدي الملابس نفسها في الآن نفسه. (هذه فكرةٌ من عند كولبرت، والحقُّ أنَّها فكرةٌ لا بأس بها، يعقُبها الضحك، وبعد الضحك نواصل..) قالت أدريانا يونيو:

- صحيح. وبالطبع، ابتداءً من اللحظة، ستتباعد حياتانا. وقد بدأتا بالفعل التباعد. (استديري نحو نولان، وابدئي في الإنصات إلى أصوات التأثُّر في القاعة). مثلاً، لا أدري ما كنَّا لنصنع لو أنَّني عرفتُ نولان قبل سفري إلى أوروبا، لو أنَّني كنتُ مغرمةً به. (لا تلجِّي، اتركي الجمهور يتماهى مع المشكلة، قيسي مدى حيرته.) سؤالٌ من بين أسئلةٍ عديدةٍ يموج بها رأسي.

استأنفت أدريانا مارس الكلام: - أظنُّ (غيّري صوتك تغييرًا طفيفًا، أبرزي إمكان اختلافٍ بسيط بينكما)، أظنُّ أنَّ غاية أمانيّ هي ألاَّ يخاف الناسُ منّي، أو من أدريانا الثانية، أو منَّا معًا. أن يراعوا وضعنا. (هنا، قفي برهةً طويلةً. ثم تكلَّمي كأنَّك تقدِّمين خلاصة)، إنَّنا تائهتان، نحتاج حبّ جميع من يقربنا. (اخفضي عينيْكِ، أمسكي يد أدريانا يونيو، انتظري التصفيق. وإن شعرت بأنَّك تستطيعين البكاءَ، ابكي، احرصي على ذلك.) سالت دمعةٌ على خدِّ أدريانا يونيو، ولم تحتج إلى تكلُّف البكاء. اجتاح التأثُّر الجميع، وصار بوسعها أن تشهق بالبكاء. دنت منها أدريانا مارس، وأمسكت بها من كتفها، بينما يبتسم ستيفن كولبرت.

- شكرًا لكما معًا. أعلم أنَّ كثيرًا من الناس سوف يتفهَّمون وضعكما. لديَّ طلبٌ أخير؛ لقد أخبرني أخوكما بأنَّكم غنَّيْتم جميعًا، أقصد أفراد الأسرة، ليلة رأس السنة أغنية البوسا نوفا الشهيرة: The Girl from Ipanema.

قالت أدريانا يونيو:

- نعم، غنَّيناها بصيغة إمي وينهاوس.

- حسنًا إذن، قبل أن نفترق... هلاَّ...؟

أخذ الجمهور يصيح، وابتسمت الصبيَّتان.

أضاف كولبرت:

- وأؤكِّد أنَّكما لم تتمرَّنا على الغناء معًا.

كاذبًا بلا ذرَّة حياء، إذ أنفقت الصبيَّتان نصف ساعةٍ في التمرُّن على أداء الأغنية معًا.

انطلق عازف الإيقاع في فريق ستاي هيومن، يعزف في لطفٍ إيقاع أغنية البوسا نوفا التي ألَّفها جوبيم وموراليس، وخفتت الأضواء في الاستوديو، ونزلت على الصبيَّتيْن حزمتان من نورٍ، زرقاء على هذه وحمراء على تلك، ماحيتان كلّ اختلافٍ بينهما. لعبةُ الألوان فكرةٌ من عند المنتجة. كان فينيسيوس موراليس قد قال مرَّةً إنَّ أغنيته لا تتحدَّث عن شيءٍ سوى الزمن الذي يمرّ، عن الجمال الحزين الذي يمتلكه الجميع ولا يمتلكه أحد، عن ارتفاع الموجة وانقلابها على نفسها،

ارتفاعًا وانقلابًا باعثيْن على الشجن. وكان أن حلَّ شاطئ إبانيما واستقرَّ في استوديو برنامج Stephen Colbert Late Show، حين شرعت أدريانا في الغناء، وتلتها توأمتُها، ابتداءً من اللازمة الثانية: «Tall and tan and young and lovely».

تغنِّي الصبيَّتان معًا، في ثنائيٍّ رائعٍ، أغنيةَ حوريَّة إبانيما الرشيقة، وهي تسير صوب البحر على الرمل الدقيق. هذه تبدأ جملةً، وتلك تنهيها. تلعبان على التشابه والاختلاف في آنٍ، تناغمها يكاد يلامس السحر، ويبعث على الدوخة. وكلّ رجفةٍ يشعر بها المستمع في دوخته، هي جرعةٌ من العلاجِ المجانس للرعب.

قالت المرأة المسؤولة عن الإنتاج في غرفة الإدارة: - هذا ما نسمِّيه تلفزيونًا لعينًا ناجحًا. تلفزيونًا لعينًا ناجحًا.

الصوت في داخل جاكوب إفانس

الثلاثاء 29 يونيو 2021، س 23

مسرح إد سوليفان، نيويورك

أبدًا يدُ الربِّ لا تَهِنُ. وبيَد الربّ تهتدي أفعالُ جاكوب إفانس. وُلد جاكوب في كنف الإيمان بالمسيح، في سكوتفيل، ولاية ڤرجينيا، ويعلم عن أبيه جون أنَّ من لم يولد في خضمِّ المعاناة ليس من مخلوقات الربّ، لأنْ لا خلق إلاَّ ما يخلقُه الربّ، وإنَّ الصوت في رأس جاكوب ما ينفكّ يردِّد الكلمات التي سمعها في طفولته، عندما كان يشتغل في المزرعة.

وحين أُعلن عن الرجس على مواقع التواصل الاجتماعيّ ووسائل الإعلام، أنار الربُّ لجاكوب إفانس الطريق. في اليوم الأوَّل، اجتمع هو وإخوانه في جيش اليوم السابع، في الكنيسة المعمدانيَّة، حيثُ أنصتوا إلى القسّ روبرتس يُحدِّثهم عن المخلوقات وعن الشيطان، وعن لفيف الكفَّار الذين يهتكون أوامر الربّ، عمَّا ذُكر في رؤيا يوحنَّا المنذرةِ ببروق وزلزالٍ مهولٍ ووابلٍ من الأحجار ترسلُه السماءُ على الناس؛ وبفضل الربّ، اهتدى القسّ روبرتس وجاكوب وإخوانُهم في الإيمان إلى تعبير الرؤيا فيما وقع للطائرة التي أصابتها الصاعقةُ التي وضعها الخالقُ في طريقها. وفي الطائرة، اجتمع كلّ مجدِّفٍ، جاحدٍ، منكرٍ لوعيد الرؤيا.

وقد سرت نشوةُ الربِّ في جسد جاكوب إفانس، وجرى غضبه في ذراعيْه، فأراد أن يكون الأداة التي بها تتمّ إرادة الربّ ويتمجَّدَ بها اسمُه بين الناس.

إنَّ الجرائد تنشرُ تفسيراتٍ، وإنَّ الخبراء والعلماء يصدرون خطاباتٍ! لكن، سوف أبيدُ حكمة الحكماء، وأرفضُ فهم الفهماء، كذلك يستحضر جاكوب سفر إشعياء، ويعرف أنَّ من الكِبر والهُزءِ بالقديرِ أن يطلبَ الإنسانُ خلاصَ نفسِه في نفسه. وتلكم أيضًا رسالة بولس إلى أهل كورنثوس الذين أرادوا التملُّص من رسالة الربّ، وطلبوا الحكمةَ في أباطيل الإنسان الذي لا ينبغي له أن يمتلئ سوى

بالتواضع وخشية الربّ والإيمان بيسوع المسيح. لقد قام المسيح، حقًّا قام. في الرسالة التي أرسلها الله، عبر الرجس الذي أظهَرَه، ما من خلاصٍ إلاَّ في أن يتمجَّد اسم الربّ ويندحر الشرّ. كانت عينا جاكوب عمياويْن، وقد أبصرتا النور بفضل العليّ القدير، حتى اخترقتا حُجبَ الليل.

وفي خضمِّ هذا الحريق اللانهائيّ الذي ما انفكّ يلتهم أميركا، والحربِ التي يخوضُها الظلامُ ضدَّ العقل، حيثُ يتراجع العقلُ خطوةً خطوةً أمام الجهل واللامعقول، يبصر جاكوب إفانس إرهاصة أملِه الأزليّ المطلق. إنَّ الدّين حوتٌ من الأعماقِ السحيقة، حوتٌ آكلُ أسماك، يبعث بنوره الخافت، ولكي يجتذب فريستَه يحتاجُ نوره ليلاً كثيفًا حتى يسطَع.

جال إفانس وعددٌ من أعضاء جيش اليوم السابع في موكبِ سيَّاراتٍ حاملين صليب المسيح المخلِّص، لسبع ساعاتٍ، صائحين أمام القاعدة العسكريَّة، لكنَّ الجنود صدُّوهم. ثمّ، بفضل الربّ والإنستغرام والفايسبوك، علم إفانس أنَّ إحدى تلك المخلوقات الشنيعة تنوي أن تعرض نفسَها أمام العالم. نظر بقرفٍ وغضبٍ إلى تلك الفتاة ذات الشعر الداكن، التي يعلمُ أنَّها تجسِّد الزَورَ الأعظمَ وغدرَ الساقطين.

فكان أن شدَّ جاكوب ورفاقٌ له الرحالَ إلى مسرح سي بي أس، فنزلوا المحطَّة في 50 th Street، وسط أضواء النيون والأنوار المتعدِّدة الألوان في برودواي. يسيرون في شوارع بابل الكبرى، العاهرة الكبرى التي جُعلت مدينةً، لكنَّ الشرطة أغلقت المنفذ إلى الجادَّة من ناحية الجنوب، والحواجز المعدنيَّة تحول دون الوصول إلى الصالة. وما يزال الحشد الهائل ينمو متعاظمًا في كلِّ حينٍ بالدعوات على وسائل التواصل الاجتماعيّ.

في منتصف الليل، طارت أوَّل قنّينةٍ مشتعلةٍ، فتناثرت شظايا على واجهة المبنى المضيئة، وتسبَّبت النار فورًا في ماسٍ كهربائيٍّ وانطفأت آلاف المصابيح، وكذا اللوحة البرَّاقة المكتوب عليها Stephen Colbert Late Show؛ على أنَّ جاكوب واصل التقدُّم وسط النيران، لا يخشى الجحيم، والمسيح في قلبه جذلان. الشرطة تستنفر وتلاحق عددًا من المحتجِّين. ودعا جاكوب الربّ أن يمكِّنه من محاذاة النجسين، ويمهِّد له سبيل إنفاذ إرادته؛ وسط حرارة الحريق يصلِّي للربّ ويعلم أنَّه موشكٌ أن يذوق حلاوة الجنَّة مع المصطفين.

من علياء جبله، يراقب السيِّدُ المسيح خروفَه جاكوب إفانس، ويقوده صوب الزقاق رقم 53. جاكوب سائرٌ في النور، لأنَّ الربّ وحدَه يعلم الطريق. وهناك، بينما إخوانه في الإيمان يصيحون في شارع برودواي، لمح جاكوب، على بعد أمتارٍ منه، سيَّارة ليموزين سوداء تخرج من مرآبٍ تحت الأرض. تريد السيَّارة أن تنعطف يسارًا، فتُفلت من تظاهرة المؤمنين، لكنَّ الشارع مكتظٌّ، لذا علقت عند مستوى ديلي سبيشال برودواي. رُفع زجاجُ النوافذ الخلفيَّة بأسرع ما يمكن، لكنَّ جاكوب استطاع أن يلمح في وضوح الليل النيويوركيّ الفتاتيْن ذواتي الوجهيْن المتطابقيْن، جالستيْن في المقعد الخلفيّ. إنَّ حكمة الربّ لا يُسبر غورُها. النجستان تتمازحان وتقهقهان كاشفتيْن عن أسنانهما المنضودة تنضيدًا مثاليًّا أكثر من المعقول، في فموَيْهما القذريْن؛ وفي وجهيْهما، وجهَي ملائكة السيرافيم، يينع قناعُ الخطيئة، قناع ملاك الظلام. والربُّ سيقود سيف انتقامي.

ألا فلتهلك المخلوقات، وإنَّ سماءً ستغطِّي البشر، وأخرجَ جاكوب من جيْبه مسدَّس غرندل ب 30، وليلمع النور خفيفًا وحارًّا، ولتشدّ يدي يا ربّ، وأطلقَ النارَ عبر الزجاج الذي انفجر، وباسمِ الربّ أبيدكم، وحولَ جاكوب يتعالى صياح الرعب، ويطلق هو الرصاص ثانيةً فيصطادُ وجهًا، والملاك جبرائيل يتنزَّلُ عليه، ويرمي ثالثةً، ويرمي ويرمي حتى يفرغ مسدَّسه، فيردي أدريانا الثانية ذات الوجه المدمَّى، ثم يجثو على ركبتيْه. قام المسيح، وهو ذا أرضًا، على الأسفلت المتَّسخ، المسيحُ المخلِّص مفرود الذِّراعيْن، قُل كلمةً يا ربُّ، فتعرفَ روحي الخلاصَ، وبينما يرتمون عليه، ويقبِّلون يديْه خلف ظهره، وسط رنين الصفَّارات ووميض الأضواء، الربّ راعيَّ، هو من يعطي وهو من يأخذ، جاكوب إفانس مبتسمًا مغمض العينيْن يرى ثلاثة أرواحٍ نجسة، شبيهةٍ بضفادع، تخرج من فم التنِّين وفم الدابَّة وفم النبيّ الدجَّال.

امِّحاءات

الأربعاء 30 يونيو 2021

منتجع كلايد تولسون، نيويورك

00 س و43 د: في مبنى الـ أف بي آي، جميع الشاشات تعرض قنوات الأخبار عرضًا متواصلاً، وفريق البروتوكول 42 يتابع أخبار الجريمة بلا انقطاعٍ. 01 س 00 د: سي بي أس تعرضُ برنامجًا خاصًّا: ستيفن كولبرت تظهر عليه آثار الفاجعة وهو يُدير حوارًا مع صحفيّين مختصِّين في الظاهرة الدينيَّة. لم تجدِ دعوةُ بودلوفسكي وخبرائها إلى التهدئة نفعًا: على قناة «أمل» ينذِّد الوعَّاظُ بتبجيل الأنبياء الدجَّالين، وعلى قناة فوكس يدين مبشِّرون الجريمةَ كما ينبغي، لكنَّهم يتحدَّثون أيضًا عن نهاية العالم. وفي الصباح، ستمتلئ الشوارعُ بمستطلعي الآراء لحساب مؤسَّسة غالوب، وغيرها؛ 44% من الأميركيِّين يرون فيما يحدث «علامةً من علامات نهاية الزمان»، 34% من هؤلاء يرون أنَّ النهاية «وشيكة»، 25% يرونها وشيكة جدًّا. حتى إنَّ 1% يظنُّونها قد بدأت بالفعل. وخلال النهار، شهدت دور العبادة، في مختلف بقاع العالم، تهافتًا غير مسبوقٍ عليها. حين يكتشف سبعة ملايير، من البشر أنَّهم ربَّما غير موجودين بمعنى الكلمة، فليس ذلك بالأمر الهيِّن.

ساخطةً، تذرع جامي صالة الندوات بمنتج كلايد تولسون، حيث نُقل جميع أفراد فريق البروتوكول 42. تؤكِّد: - ينبغي أن نضمن سرِّيَّة هويَّات جميع الركَّاب. مثلما نفعل مع الشهود في قضايا المافيات. ينبغي أن يتبخَّر هؤلاء الناس، أن تغيَّرَ هويَّاتُهم.

وكانت قد نبَّهت، من قبلُ، إلى أنَّ الإلٰه سيكون مشكلة... فما دام لا شيء ينبغي أن يشكّك في قدرته، فإنَّ هذه الطائرة التي انبثقت من لا مكان، هي جزءٌ من تدبيره. ولسخرية القدر، فإنَّ فرضيَّة

المحاكاة نفسها تقتضي أنْ لا شيء قابلٌ لأنْ يُعترض عليه: الإنسان حقًّا صنيعةُ ذكاءٍ أعلى. لكنْ من ذا الذي يقبلُ أن يعبدَ مبرمجَ لعبةِ أدوارٍ هائلة؟

تدخَّل ميتنيك:

- منذ إعلان الرئيس، تشهد المستشفيات موجةً من الانتحارات. انتحر كثيرٌ ممَّن كانوا أصلاً يتَّصفون بالهشاشة. انتعشت نظريَّات المؤامرة: القضيَّة كلّها مفبركةٌ، إنَّ قصَّة المحاكاة تلك ما هي سوى محاولةٍ لقمع كلّ نضالٍ ضدَّ أيّ شيء، بدءًا من الرأسماليَّة إلى الاحتباس الحراريّ. وكذلك رأى فيها دعاة الأرض المسطَّحة تأكيدًا لقناعتهم. وهلمّ جرًّا.

لخَّصت بودلوفسكي: علينا دائمًا أن نحذر من الناس الذين يطلبون منَّا الحَذَر.

استأنف ميتنيك: كذلك نشهدُ عودةً مذهلةً لفرضيَّة المخلوقات الفضائيَّة، وهذا طبيعيٌّ، كيف لا تفرض الفرضيَّةُ نفسَها والحالُ هذه... وثمَّةً أيضًا تلك الفتاة؛ تلك المدعوَّة تومي جين، مؤثِّرة... لقد نشرت للتوّ ما يلي.

وعرض متنيك على الشاشة سيلفي شابَّة داكنة الشعر، آسيويَّة - أميركيَّة. وقد بلغ عدد الليكات على صورتها 1512. وقد زيَّنت جبينها بخصلة شعرٍ قرمزيَّة، وعنونت الصورة بـ «1، 2، 1000 أدريانا». وما كادت الساعة تبلغ الثانية فجرًا حتى كان عدد مشاركاتها 12816 مشاركة. وفي الثامنة صباحًا، بلغت المشاركات سبعة ملايين. وفي الصباح كان العالم، من باريس إلى ريو، ومن هونغ كونغ إلى نيويورك يعجّ بآلاف من السائرين على جباههم الخصلة القرمزيَّة التي كانت تضعها أدريانا يونيو. الرسالة من ذلك غير واضحةٍ، لكن حرِّيَّة التفكير على الإنترنيت شاملةٌ وكلِّيَّةٌ لدرجة أنَّها تدفع إلى اليقين بأنَّ الناس قد كفَّت عن التفكير.

وما هي سوى ساعاتٍ حتى عمَّ التعاطُف، والتأثُّر، والسخافةُ. ولمَّا كانت تلك أمورًا مربحةً، فقد هبَّ بائعو التي - شرتات إلى كتابة عباراتٍ على منتوجاتهم من قبيل: «I'm a, Stimulate me, dont simulate me» «I am 1, U are 2, we are, program, rest me free». وانطلقَ فكاهيُّو البرامج الصباحيَّة إلى ارتجال اسكتشاتٍ في موضوع النَسخ.

يسأل الصحفيُّ ضيفُ البرنامج الصباحيِّ المقلِّدَةَ: - هل تعرفين معنى المحاكاة يا هيلاري؟

فيُجيبه صوت هيلاري كلينتون: - كلّ النساء في أميركا يعرفن معنى المحاكاة يا بيتر[14].

*

حتى تلك اللحظة، كان الأمر لا يتجاوز مائةً من العلماء يتدارسون في حظيرة. وفجأةً، هم أولاء عشرة ملايين باحثٍ من كلِّ أقطار الكوكب، يحاولون الدفاع عن نظريَّاتهم، واقتراح بدائل لفرضيَّة المحاكاة. ومن البداية، لم تحظَ نظريَّة «آلة النسخ» ونظريَّة «الثقب الأسود» سوى بعددٍ قليلٍ من المؤيِّدين. لا بأس في أن تكون النظريَّة الأبسط هي النظريَّةَ الأشدَّ حُمقًا.

مع أنَّ علماء الفيزياء الفلكيَّة لا يحبُّون نظريَّة المحاكاة. وأقلّ منهم، حبًّا لها، وكالات الفضاء. استكشاف الفضاء يكلِّفُ أموالاً باهظةً، لكنْ إن لم يعد ثمّة فضاء، فإنَّه سيصير فجأةً أغلى من أيّ سعرٍ. وكذلك علماء الجزيئات لا تروقُهم النظريَّة. إذ ما مصير كلّ تلك الجزيئات الجميلة، نقصد الكواركات والغلوونات والمادَّة السوداء؟ أتكون جميعًا افتراضيَّةً؟ وماذا عن مُسرعاتهم الجزيئيَّة التي يفخرون بها؟ أتكون مجرَّد نكتةٍ ثلاثيَّة الأبعاد؟ والزمان؟ ماذا لو كان الزمان نفسه مجرَّد حيلةٍ مصطنعة، مثلما يحدث في ألعاب الڤيديو، حيث يُبطَّأ كلّ شيءٍ أو يوقَفُ حتى يُمنح إنسانٌ فرصةَ اللعب، كيف نقيس الزمان الواقعيّ انطلاقًا من زمننا الافتراضيّ؟ ثم أخيرًا، يأتي غضبُ علماء الأحياء. وماذا عن التطوُّر، وانقراض الأنواع، وضياع التنوُّع البيولوجيّ؟ لكنْ جميع من سبقوا يدركون شيئًا واحدًا: إنَّ الكون، أكان افتراضيًّا أم لم يكن، هو محكومٌ بقوانين ما انفكَّت تتكشف أكثر فأكثر. لا عالم منهم إلاَّ وانخرط منذ سنواتٍ في عمل محاكاةٍ، مستعينًا في عمله بحاسوبٍ عملاقٍ، تضاعفت قوَّتُه مئةَ مرَّةٍ في السنوات العشر الماضية. لذا لا يشقّ عليه أن يتصوَّر ما تستطيع فعله آلاتٌ أقوى بمليارات المرَّات.

يُستحسن ألاَّ نقيس إنتاج يوم الأربعاء صباحًا. فالحقّ أنَّ الوحيدين الذين اشتغلوا فعلاً هم رجال ونساءُ البروتوكول 42.

لأنَّ في ذلك الأربعاء تحديدًا، انطلقت عمليَّة «هرمس». لقد وجدت ميريديث اسم الرمز الذي يعيِّن رحلةَ وسرّ جميع ركَّاب الطائرة، وأتت لحظةُ المحو الشامل. لقد عملت جريمة جاكوب إفانس على إقناع جميع الركَّاب بأنَّهم أهدافٌ لجرائم، ذلك، على الأقلِّ، ما اتَّفق عليه الجميع في الولايات المتَّحدة. لقد أخفت ناسا كلّ أثرٍ رقميّ للرحلة، وحصل الضبَّاط الفرنسيُّون والأميركيُّون

على أوراق الرحلة. يعرف عامَّة الناس أنَّ الأمر يتعلَّق برحلةٍ من باريس إلى نيويورك، شهر مارس، على متن الخطوط الفرنسيَّة، لكن عدد الرحلات التي تنطبق عليها تلك الشروط يفوق مائتيْن.

*

الأربعاء 30 يونيو 2021،

ستوديو 4، قناة فرنسا 2، ساحة هُنري دو فرانس، باريس

الحقيقة أنَّ العالم يدخل منذ ساعاتٍ في خواءٍ من المعنى. ما دام الدّين يقدِّم جوابًا عقائديًّا وخاطئًا. والفلسفة تقترح جوابًا مجرَّدًا ومتناقضًا. تتناسل برامج التوك - شو وتتضاعفُ في كلِّ بقاع العالم، خاصَّةً في فرنسا، البلد الذي يعجّ بفلاسفة الإعلام. وأحد هؤلاء يُسمَّى فيلوميد. هو ذا على بلاتوه قناةٍ وطنيَّة، صحبة ضيفٍ آخر، ڤيكتور مييزل.

قال فيلوميد: - لا أريد الخوض في فرضيَّة المحاكاة. لكنْ بالنسبة إليَّ لا يغيِّر ذلك في الأمر شيئًا. أنا فيلسوفٌ مادِّيٌّ: لا فرق بين أن تفكِّر وأن تظنَ نفسك تفكِّر، وبالتالي لا فرق بين أن توجد وأن تظنَّ نفسك توجد.

قالت المقدِّمة: - ومع ذلك، يا فيلوميد، ثمَّة فرقٌ كبيرٌ بين أن نوجَد واقعيًّا، وأن نوجَد افتراضيًّا.

- عفوًا، لكنَّني أرى أنَّهما الشيء نفسه؛ وإن لم أكن سوى برنامجٍ افتراضيٍّ، فأنا موجود. أشعر بالحبّ والألم على النحو نفسِه، وفي كلتي الحالتيْن سوف أموت، لحسن الحظّ. وأفعالي تستتبع النتائجَ نفسَها، سواء أكان عالمي افتراضيًّا أو واقعيًّا.

- فيلوميد، إلى جانبك كاتبٌ، ڤيكتور مييزل الذي صار كتابه الخلل من أُمَّات الكتب المعاصرة، وطبعًا زادت حظوته لدى القرَّاء اليوم أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. ڤيكتور، كنتَ على متن الطائرة المذكورة، ونعلم أنَّ «نسختك» قد انتحر، وقد قدَّمت للتوّ مؤتمرًا صحفيًّا، ونشكرك لأنَّك قبلت دعوتَنا اليوم. ما تصوُّرك لمصير أولئك الركَّاب «ذوي النُسخ»؟

- نحن أكثر من مائتي فردٍ يتأمَّلون الدروب التي سلكتها «نُسخنا» بين شهري مارس ويونيو، وربَّما نأسف لأنَّنا لم نستغلّ الفرصة فنتخذ دروبًا أخرى. لعلَّ بعضنا يرغب في أن يعيش حياةً أخرى، حياةً أفضل، أو على الأقلِّ حياةً مختلفة. لكنْ أنا، لم أحظَ بفرصة مواجهة نفسي. وإن...

أخرج الكاتب من جيبه القطعتيْن الحمراويْن.

- منذ وفاة والدي، منذ أكثر من ثلاثين سنة، احتفظت طيلة الوقت بهذه القطعة في جيبي. ليست صنمًا ولا تميمة. إنَّما فقط بضع غراماتٍ من الذكرى، شبه عادة. لقد سلَّموا إليَّ تلك التي كان يحتفظ بها ڤيكتور ساعة انتحاره، والآن بتُّ أملك قطعتيْن. لم أعد أستطيع التفريق بينهما، فجمعتهما. لا أستطيع أن أعبِّر عمَّا يمثِّلانه بالنسبة إليَّ، لكنَّني أشعر أنَّ خياراتي زادت، وأنَّني صرت أكثر حرِّيَّةً من أيِّ وقتٍ مضى. ومع ذلك، لست أحبُّ هذه الكلمة «مصير». فالمصير ليس سوى هدفٍ نرسمه في النقطة التي تصيبُها الرميةُ بعد أن نرميها.

بين الجمهور، تجلس مستمتعةً بالحديث، آن فاسور، صحفيَّةٌ في Times Literary Magazine. فهي تحبّ تلك النكتة التي تقول إنَّ السهم لكي يصيب هدفه، ينبغي أوَّلاً أن يخطئ كلّ الأهداف في طريقه. حين بلغها، في شهر أبريل، خبرُ وفاة ڤيكتور ميزل، صُدمت وحزنت، واندهشت لشدَّة شعورها بذلك. بالطبع، كانت قد انتبهت إليه في مؤتمر آرل، ووجدت مداخلته ذكيَّةً وحسَّاسة، ولامستها الجهود الصبيانيَّة التي بذلها في الاقتراب منها. وكانت آنذاك عالقةً في حبال رجلٍ آخر، فما ودَّت أن تتلاعب بهذا وذاك. ثم كرهت لحظة ضعفها تلك، لحظة الهون والغطرسة، كرهت أن راقتهُ، كرهت ذلك تحديدًا لأنَّه هو أيضًا راقَها. فكان أن غادرت مؤتمر آرل قبل الأوان، يسكنها الإحساسُ بالخجل من رغبةٍ أنانيَّةٍ طائشة، رافضةً أن تكون امرأةً خائنة، امرأةً لعوبًا، امرأةً تتلذَّذ بمعاناة غيرها، امرأةً ينتهي بها المطاف لا تدري إلى أين تسكن. لقد فرَّت. لوهلةٍ ودَّت لو أنَّها تجترُّ الندم على اجترار الحسرة، لكنَّها لم تسعَ قطُّ إلى إيجاد أيّ ذريعةٍ للقاء ذاك المترجمِ ناقلِ أعمال غونتشاروف. لذلك رأت في «انبعاثه» المعجِز إشارةً، إشارةً غير مفهومةٍ لكنَّها إشارةٌ على الرَّغم من كلِّ شيء. واستطاعت، هي الأديبةُ، أن تحلّ محلّ المبعوث الصحفيّ لمجلَّتها، في تغطية المؤتمر الصحفيّ مع ميزل. هي الآن تتأمَّل رجلاً بوسعه أن يكونَ قدرًا.

استأنفت الصحفيَّة: - أخبرني يا فيلوميد، في وضعيَّةٍ مماثلةٍ، كيف كنت لتتصرَّف أنت؟

- بدايةً، لن أتيه طويلاً في الشعور باللاواقعيَّة. إن شككت في وجودي، يكفيني أن أقرص نفسي. ثم إنَّ هذا الآخر بالطبع مرآةٌ لي، لم أخترها، لكنَّه يظلُّ الكائن الوحيد الذي يعرف جميع أسراري. وبالتالي أنا عارٍ أمامَه مفضوحٌ، ولأنَّني كذلك، سأقرّر أن أتغيَّر أو أن أفرَّ. أخيرًا، أن يكون المرء اثنيْن، يعني أنَّه أكثر ممَّا يلزم بواحدٍ. لا بدَّ أن أقول: ما أتفه كلّ هذه الأشياء المادِّيَّة، من شقَّة، ووظيفة، وغيرها... لأركِّز على جوهري، على نواتي الحميمة، على ما ينبغي أن أحفظَه مهما كلَّفني الأمر. لديَّ ابنةٌ، وأحبُّ امرأةً، وحين أقول «ابنتي» و«امرأتي»، أعرف ما أحمِّلُه في ياء النسبة تلك... فإنْ اضطررتُ إلى اقتسامهما، لربَّما تعلَّمتُ كيف أضفي طابع النسبيَّة على تلك الرغبة في التملُّك. الحقُّ أنِّي أجهل كيف سأتصرَّف.

- كيف تفسِّر إعلان البابا فرنسوا؟

- اعذريني لا علم لديَّ البتَّة بما قاله البابا.

- أنقل إليك كلامَه: «إنَّ الربّ يرينا علامةً من علامات قدرته، ألا فلنخضعنَّ لها، ولنتَّبعنَّ شرائعه».

- أقال هذا؟

- نعم، صباح اليوم.

- كلامه يحمل نبرةَ «توبوا أيُّها المذنبون البؤساء». ليعذرني، لكنَّني كنت أتوقَّع منه أفضل من هذا. الواقع أنَّه هو برنامجُ كلّ المؤمنين، فليقُل مثلاً: «هي ذي عقائدُنا، فلنجد لها الحجج الداعمةَ»، إنَّ هؤلاء المؤمنين أشبه ببونغلوس، معلِّم كانديد في رواية ڤولتير، الذي كان يعتقد أنَّ الأنف صُمِّم لحمل النظَّارات، ولذلك نحن نضع النظَّارات. أمَّا أنا، فلم أرَ في هذه القضيَّة الربَّ، ولا لمحتُه يتجلَّى في السحب. بصراحةٍ، لو كان لديه ما يقولُه، فلا لحظةَ أفضل من هذه. الحقّ أنَّ المسعى الفلسفيّ الوحيد الممكن في هذه الظروف، هو التالي: «هي ذي الوقائع، لننظر الخلاصات التي يمكن أن نستنتجها منها».

- ماذا عن بقيَّتنا، عنَّا نحن الآخرين يا ڤيكتور ميِيزل، في رأيك ما الذي يمكن أن يقع؟

- لا شيء.

- عفوًا؟

- لا شيء. لا شيء سيتغيَّر. سنستيقظ صباحًا، وسنذهب إلى العمل، لأنَّنا ما نزال مضطرّين إلى دفع إيجار بيوتنا، وسنأكل، ونشرب، ونضاجع مثلما كنَّا نفعل دائمًا. سنواصل التصرُّف كما لو كنَّا واقعيّين. نحن عميانٌ إزاء كلّ ما يمكنه أن يبرهن على أنَّنا مخطئون. هذه طبيعة البشر. لسنا عقلانيّين.

- هل ما يقوله ميزل هو نفسُه ما وصفتَه، أنت يا فيلوميد، في مقالك الصادر صباح اليوم في جريدة لوفيغارو، بحاجتنا إلى مجاوزة «التنافر المعرفيّ».

- أجل. نحن على استعدادٍ لأن نلوي الحقيقة في سبيل ألاَّ نخسر كلّ شيء. نريد جوابًا على هواجسنا كلّها، ووسيلةً للتفكير في العالم من غير أن نُخضع للمساءلةِ قيمَنا، وعواطفَنا، وأفعالَنا. تأمَّلي مثلاً التغيّر المناخيّ. لا ننصتُ البتَّة إلى كلام العلماء. لا نكفّ عن الاسهام في انبعاث الكربون الافتراضيّ، انطلاقًا من الطاقة الأحفوريَّة، سواءً أكانت افتراضيَّة أم لم تكن، نسهم في احترار مناخنا، افتراضيًّا كان أم لم يكن، فنسعى إلى انقراض نوعنا، سواء افتراضيًّا أو واقعيًّا. لا شيء يتحرَّك. الأغنياء ينوون بالفعل الهرب، بمفردهم، وإن تعارض ذلك مع الحسّ السليم، أمَّا البقيَّةُ الباقية، فليس لهم غير الأمل.

- هل تتَّفق مع فيلوميد يا ڤيكتور ميزل؟

- طبعًا. هل تتذكَّرين بوندورا وعلبَتَها؟

قالت المقدِّمة مندهشة: - نعم، لكن ما العلاقة؟

- ثمَّة وجهٌ للمقارنة: تذكَّري أنَّ بروموثيوس قد سرق النار من السماء، وعقابًا له وللناس المذنبين، زوَّج زيوس أخاه إبيميثي من باندورا. وفي متاع المرأة، دسَّ زيوس هديَّة، علبةً عجيبة، جرَّةً في الواقع، وحرَّم عليها فتحَها. لكن فضولَها غلبَها، فنقضت العهدَ، وفتحت العلبةَ. فخرجت من العلبة كلّ شرور الإنسان: الشيخوخة، والمرض، والحرب، والمجاعة، والحمق، والبؤس... شرٌّ واحدٌ منها، أبطأ في الخروج، أو لربَّما أطاعَ إرادة زيوس. فهل تتذكَّرين اسمَ هذا الشرّ؟

- لا. بيّنه لنا فضلاً.

- هذا الشرُّ هو إبليس، الرجاء. وهو أشرّ الشرور. الرجاء هو ما يمنعنا من الفعل، الرجاء هو ما يمطُ عذاب البشر، ما دامت البداهة تفرضُ أن ليس بالضرورة أن «تنصلح كلّ الأمور». لا يمكن أن يحدث ما لا ينبغي أن يحدث... إنَّ السؤال الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا دومًا هو: «فيمَ يفيدني أن أتقبَّل وجهةَ نظرٍ ما؟»

قالت المقدِّمة: - فهمت. واليوم ترى يا فيلوميد أنَّ على كلٍّ منَّا إيجاد وسيلةٍ للتكيّف مع الواقع المعطى أمامنا، أليس كذلك؟

- بلى. قطعًا. هل لي أن أذكِّركم بقول نيتشه؟ «إنَّ الحقائق أوهامٌ نسينا أنَّها كذلك». واليومَ، الكوكبُ بأكمله يواجه حقيقةً جديدة، حقيقةً تضع جميع أوهامنا موضع مساءلةٍ. إنَّها بلا شكّ إشارةٌ لنا. للأسف، يحتاج التفكير إلى وقت. ومن سخرية الوضع أنَّ كونك افتراضيًّا يزيد من واجباتك تجاه أخيك الإنسان وتجاه الكوكب. خاصَّةً على المستوى الجماعيّ.

- ولمَ؟

- لأنَّ - وهذا ما قاله أحد الرياضيّين - هذا الاختبار ليس موجَّهًا لنا كأفراد. إنَّ هذه المحاكاة تقصدُ البحرَ المحيطَ، فلا تأبَه بجزيئات الماء منفصلةً. إنَّ المحاكاة تنتظر من النوع البشريّ بأكمله ردّ فعلٍ. لن يكون ثمَّة بطلٌ خارقٌ منقذٌ لنا. ينبغي أن ننقذ أنفسنا بأنفُسنا.

ثلاث رسائل، إيميلان، أغنية، صفرٌ مطلق

السبت 10 يونيو 2021

كارول ستريت، بروكلين

العنوانُ على الظرف يُشير إلى «آبي وجوانا فاسرمان»، وتعرَّفت جوانا في الكتابة على خطِّها، حروفٌ ضيّقة وغير مقيَّدة. ولمَّا فتحها آبي، ألفى فيها ورقةً مطويَّةً إلى أربع، ورسالتيْن أُخرييْن مختومتيْن.

آبي، جوانا،

تجدان في هذا الظرف رسالةً لكِ يا جوانا، وأعرف أنَّك ستقرأينها على آبي، ما دمتُ كنتُ لأفعل أنا أيضًا الشيء نفسَه. ورسالةً لك وحدَك يا آبي، وأشدِّد على أنَّها لك وحدَك.

مثلك يا آبي، ومثلكِ يا جوانا، ومثل جميع ركَّاب الطائرة، بحثتُ عن أجوبةٍ، أو على الأقلِّ عن إشارات، في الخلل، ذاك الكتاب الغريب الذي كتبَه المؤلِّف الفرنسيّ الذي شاركنا الرحلة. لم أعثر على شيء، اللّهمَّ إلاَّ هذه العبارة: «علينا أن نقتل الماضي، لكي نجعلَه ممكنًا مرَّةً أخرى».

نحن أيضًا أردنا أن نبعث الماضي، فلُذنا بالطبيعة الرؤوم، وقصدنا الشاليه في فرمونت. أقلَّني آبي، وأقلَّك يا جوانا إلى هناك، في تلك الأيَّام الطويلة، أيَّام الثلج والجليد، حيث قرَّرنا أن ننجبَ طفلاً. ما حصل بيننا، أنا وأنت وآبي، كان من القوَّة بحيث أردنا أن يكون في ذكراه دليلاً لنا، دليلاً يهدينا السبيلَ.

لكن، على ذلك الدرب الضيّق المليء بالحصى، وسط أشجار التنوب، ذاك الدرب الرمزيّ الذي ما كنَّا نقدر أن نسير فيه إلاَّ مجانبةً، كنت أنت يا عزيزي آبي، تنتقل بيننا، من غير مرحٍ، مثل

كلبٍ يحاول إرضاء سيّدِيْن، على شفتيْك تلك الابتسامة الحزينة التي ما تنفكّ تعتذر من هذه عن الاقتراب من تلك، ثم ما تلبث أن تضطرّ إلى أن تبتعد عن تلك لتوافيَ هذه. أبدًا لم تكن هنا، هنا فحسب، لم تكن معي، ولا كنت معها، لم تكن إلاَّ تمزُّقًا. واستغرقك الرسمُ، غرقت فيه هروبًا من أسئلةٍ لا أجوبة لها، وها أنا ذي قد رحلتُ حاملةً رسومك المائيَّة التي ستذكِّرني بك إلى الأبد.

لأنَّني رحلت، أجل رحلت، غادرت شاليه الحزنِ، قبل أن نمزّق بعضنا بعضًا. لا بدَّ أنَّكِ يا جوانا، وأنتِ تحملين طفل آبي، لم تشكِّي في أنَّني سأكون أوَّل من تنهار بيننا. سأكون المبادرة إلى الهرب. كنت أعلم أنَّك تعلمين، بالطبع.

وقد هربت.

عدتُ إلى نيويورك، وقابلت جامي بودلوفسكي في المقرّ بمنهاتن. في يومٍ واحدٍ، استطاع الـ أف بي آي أن يفبرك لي هويَّةً جديدة، وستّ سنواتٍ من الحياة الرقميَّة، وصرت اليوم أحمل اسم جوانا أشبري، زيادةً في الاحتياط. أشبري، على اسم مدينةٍ صغيرةٍ في إنجلترا، شمال لندن، مدينة ما من مَعلمٍ فيها غير كنيستها الرومانيَّة. ثم إنْ تأمَّلنا الاسم، وكيف انتقل من وودز (غابات)، إلى أشبري (رماد مدفون)، فسنرى أنَّهم وُفِّقوا في الفكاهة إنْ كانوا قد تقصَّدوها.

إنَّ المدعوَّة جوانا أشبري، تعمل الآن في إدارة القطاع القضائيّ للـ أف بي آي، وبفضل وكالة الأمن القوميّ، صارت تحمل الآن دبلومًا من جامعة ستانفورد. وكذلك اقترح المكتب التكلُّف بعلاج إيلين. كرمٌ منهم، ولم أرفضه. ومع ذلك، لا تتركي منصبك في مكتب دنتن ولوفل، لكنْ لا حاجة بي إلى نصحك يا جوانا، فأنا أعلم قرارك.

بالطبع سنلتقي. ستلتقي طرقنا يومًا ما حين نزور إيلين.

أتمنَّى لكما كلّ السعادة الممكنة.

جوانا أشبري.

جوانا،

ما أعجب ما أشعر به وأنا أناديك على هذا النحو.

اسمُك الآن فاسرمان، وأنا أشبري. فاسر هو الماء، وآش هو الرماد، وأيُّ سخريةٍ هي في كلِّ ذلك!

جوانا أشبري، يرنُّ مثل جون أشبري، وتذكرين أنَّني كنت قد تعهَّدت لنفسي بقراءة قصيدته الطويلة «بورتريه في مرآةٍ محدَّبة». يتحدَّث أشبري في القصيدة عن لوحةٍ من القرن السادس عشر، لوحة من رسم بارميجانينو، لقد أحببت القصيدة، فوددت أن أعرف حكاية اللوحة.

ذات يوم، رأى الفنَّان - وكان ما يزال شابًّا في الحادية والعشرين من عمره - وجهه في إحدى مرايا الحلاَّق المحدَّبة، فأراد أن يرسم لنفسه بورتريه شبيهًا بما رآه في المرآة. صنع من كأسٍ خشبيَّةٍ إطارًا للوحته بقياسات المرآة نفسها، حتى يستعيد الأثر المرآويّ نفسه. في الأسفل، وفي المستوى الأوَّل، رسم يدَه، هائلة الحجم، جميلةً لدرجة أنَّها تبدو حقيقيَّة، وفي الوسط من اللوحة وجهه، بالكاد بدا شائهًا، وجهه الملائكيّ، المنعَّم، يكاد يكون وجه طفل. العالم يدور حول ذلك الوجه، وكلّ شيءٍ يتشوَّه، من السقف، إلى النور، إلى المنظور: إنَّها فوضى منحنيات.

لم تكن تلك اللوحة صورة لنا معًا، صورة لك، مرآة مرآتي، ومع ذلك لا بدَّ أن تكون اللوحة أمثولةً لشيء ما، إذ ظللتُ أتأمَّل فيها، وفجأةً أجهشتُ - مؤخّرًا صرت أبكي كثيرًا ـــــ، فأدركتُ أنَّ تلك اليد الهائلة إنَّما هي يدٌ تمسك بي، تتوعَّدني، تسلبني كلّ ما أملك.

في الشاليه بفرمونت، رأيتُ حلمًا. مُتِّ فجأةً، واستعدتُ سابقَ وجودي، وكنت سعيدةً جدًّا بموتك. وكنت أواسي آبي، وما أسهل استعادته بعد موتك، وجعلَه ينساك. ثم استيقظتُ، وكان الوقت فجرًا، وعجزت عن العودة إلى النوم، وقصدت الشرفة وفي يدي فنجان قهوة. وهناك كنتِ أنتِ، أنتِ أيضًا كنتِ عاجزةً عن النوم. ومثلي كنت قد تناولت فنجان قهوةٍ، وقدماك حافيتيْن، وقد أرسلتِ شعرك إلى الخلف بعصابةٍ من فضَّة شبيهةً بعصابة، ومثلي كنت تمسكين الفنجان بيديْك معًا، وقد اتَّخذَت أصابعُك وضعيَّة أصابعي نفسها. أمامنا الضباب يتشبَّث بالجبل، والشمس ما تزال متردِّدةً في اختراقه، وتبادلنا نظرةً باردة. أدركت أنَّكِ أنتِ أيضًا قد رأيتِ حلمًا قتلتِني فيه. وتلك هي اللحظة التي قرَّرتُ فيها الرحيل. ليس خوفًا، وإنَّما لأنَّ الحسد والألم كانا يصبغانني بالبشاعة، بشاعة كنت أراها فيكِ، أراها في كلِّ ما فيكِ، بلا مواربة.

لا أدري إلى أين أنا ذاهبة. لكنَّني أعرف أنَّني أرحل بعيدًا عنكِ، بعيدًا عنكما، ما زالت لديَّ الفرصة في أن أستعيد نفسي، أن أستعيد الكائن الذي أرغبُ في أن أكونَه.

جوانا

ابتعد آبي في الشرفة، وفتح الرسالة المرسلةَ إليه وحدَه، وكلّ كلمةٍ قرأها فيها، سحقت صدرَه أكثر فأكثر.

آبي،

لست أحبُّ غيرك، وأنا راحلة.

منذ سنةٍ لم نكن نعرف بعضنا بعضًا. وحين التقينا اعتبرتَها أنت معجزةً، وإن كنتَ لا تؤمن في شيء، فابتسمتُ.

أعرف أنَّ جوانا الأخرى ستقرأ عليك رسالتي. لذا لن أضيف عليها إلاَّ القليل.

يوم عودتي من القاعدة العسكريَّة، اقترحتَ عليَّ أن نذهب معًا إلى الحديقة المقابلة لورشتك، وعلى ذلك المقعد تحدَّثنا كثيرًا. هناك طوَّقتني بذراعيْك، فالتصق رأسي بكتفك، ووضعت يدك على بطني. علمت فورًا أنَّ الفعل خانك، وإنَّما ذلك طقس عذبٌ استقرَّ بينكما: يدك تحمي طفلك، طفلكما. لكنْ ما كان في بطني شيءٌ لتحميه يا آبي، لم يكن ثمَّة غير رغبتي فيك، وإذ شعرتَ بالإحراج، أرخيت كفَّك عن بطني، ولُذت بالحديث، وعيناك تشيان بأنَّ مبلغ أمانيك ألاَّ أكون قد انتبهت إلى حركتك. ثم عدنا إلى المنزل، وكنت أنا فارغةً من كلّ قوَّةٍ، فراغَ رحمي من كلِّ حياة.

تذكَّر أيضًا يوم كنَّا في الشاليه الذي تملكه بفرمونت، تلك الليلة الحارَّة الندِيَّة، لمَّا سحبتك إلى داخل الغابة، كنت أشتهي أن تضاجعني تحت الأشجار، أنت الذي ما كنت تجرؤ على الاقتراب منِّي أو منها، أنت الذي صرت تقمع كلّ بذرة رغبة. وددتُ لو تضاجعني، أن أشعر بقوَّة رغبتك في داخلي. ثم فجأةً قد فررت عنك، ليس لأنَّك كنت تدفعني، وإنَّما لأنَّ اشمئزازي من نفسي طغى عليَّ. ما كنت أريده في المقام الأوَّل يا آبي، هو أن أحبل منك، أن يواطئني القدَرُ، فيمنحني سلاحًا أنافسها به.

أرأيت أيّ امرأةٍ صنع منِّي الألم! عليَّ أن أرحل. لا تقلق عليَّ يا عزيزي آبي؛ فأنت الذي قرأت مرارًا الحرب والسلم، تعرفُ، مثلما يعرف الجنرال كوتوزوف، أنَّ أقوى محاربَيْن هما الصبر والزمن.

سيأتي رجلٌ آخر، لقاءٌ آخر، معجزةٌ أخرى. لا أشكّ في ذلك. سأحبُّ من جديد. أن تحبّ يجنِّبك على الأقلِّ البحثَ، بلا توقُّفٍ، عن معنى لحياتك.

أتأمَّل هذا البورتريه المفعم بالعذوبة الذي صيَّرتَني إليه، في الشمس الغاربة، رأسي مائلٌ في مواجهة الشعاع، وعيناي مغمضتان.

أحبّك، وسأظلُّ أحبّك، وستعلم ذلك لأنَّني سأظلّ، بطريقةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، إلى جانبك.

جوانا.

*

في اليوم السابق، منتجع كلايد تولسن، نيويورك

كارول ستريت، بروكلين

سألت جامي بودلوفسكي عبر باب المرحاض all-gender بمقرّ الـ أف بي آي: - أنت بخير يا جوانا؟

كلاَّ، إنَّ جوانا يونيو ليست بخير. تفرط في شرب الويسكي، وتفرط في الألم. رأسُها وقلبُها دائخان، تريد أن تهويَ وتهلك.

منذ بضع ساعاتٍ، كتبت تلك الرسائل، ظانَّةً أنَّها لن تستطيع إرسالَها. هي الآن في حقيبتها، أشبه شيءٍ بمسدَّسٍ ارتكبنا خطأ اقتنائه. نخبِّيه عند رأس السرير، لكنَّ حضوره ما ينفكُّ يتعاظمُ، خانقًا الفضاءَ، حتى يصير وسواسًا، وإذ يواصل المطالبة بحقِّه في أن يعمل، فإنَّ المطاف ينتهي بنا إلى القتل أو الانتحار. لم تستطع جوانا الحسم في أمرها، وإحراق الرسائل الثلاث، فواصلت الرسائل المطالبة بحقِّهنَّ في أن يُدسَسنَ في صندوق البريد.

لكي نهجُر من نحبّ، علينا أن نفكِّك العالم. لقد اضطرَّت جوانا يونيو إلى أن تُعيد كتابة قصَّتهما، أن تستند إلى شكوكٍ كانت قد دفنتها، أن تستنفد انجذابها نحو آبي، مثلما نستنفد معنى كلمةٍ من الكلمات إذ نكرِّرها عشرات المرَّات. تعلَّمت ألاَّ تحبّ خصلات شعره الملفوفة المفرطة في الشقرة، هيأته المتملِّقةَ تملُّقَ طالبٍ، طابَعه الأخرق بسبب نحوله المفرط، ملابسه المختالة بعض الشّيء، الرغبة التي تستبدُّ به في أن يضحك على أيّ شيء، طريقته في القهقهة كطفلٍ. تذكَّرت الانزعاج الذي شعرت به إزاء استثارَته الكبيرة، كأنَّما يستعجلُ الزواجَ، أن يحبس نفسَه في عقدٍ، وكأنَّما يخشى أن يختفي كلّ شيءٍ في اليوم التالي، كأنَّما لا يثق فيها، أو في نفسه، أو فيهما معًا. في ليلةٍ موجعة، فرضت على نفسها استذكار كلّ لحظةٍ عاشتها معه، جاهدت في أن تجد في نفسها البرودة اللازمة لكي تتأمَّل لوحة الرقَّة المقرفة، وشيئًا فشيئًا، فتقت روابط العاطفة، حتى أشرفت على الكراهية. لقد انقلبت المحاميَةُ مدَّعيًا عامًّا؛ بلا رحمة، تضع ذكاءها كلّه في خدمة الجريمة،

وعلى آبي ذي المحاسن الألف، على الغُصيْن البسيط الذي بلورَ فوقَه حبُّ جوانا كوكبةً من اللآلئ الضاجَّة الوهَّاجة، صبَّت الشابَّةُ مطرًا من اللامبالاة، وهي ذي اللآلئ تحتضر، تذوب فيبرز من تحتها الغصنُ عاريًا، بلا جاذبيَّة، تافهًا وكامدًا حتى ليبعث على البكاء.

وإذن، ساعةَ أرسلت جوانا الرسائل الثلاث، وطيلة ساعةٍ بعدها، ظلَّت تكره آبي. ثم ما لبث حبّها أن عاد بجملته، كأنَّه موجةٌ، ففتحت قِنِّينةَ تاليسكر.

*

من: andre.vannierâvannier&edelman.com إلى: andre.j.vannierâgmail.com بتاريخ: 1 يوليو 2021، 09:43

الموضوع: انفصال.

عزيزي أندري (كيف أناديك بغير هذا الاسم؟)

أكتب إليك من دروم، حيث سأبقى مدَّةً، وتستطيع أن تبقى في باريس، في بيتك، المدَّة التي تشاء. تجد مع الرسالة، كلّ الإيميلات التي تبادلتُها ولوسي منذ عودتنا من نيويورك. وبقراءتها ستفهم. كتبت لها كثيرًا، ولم تجب إلاَّ قليلاً. ستقرأ في رسائلي عباراتٍ من قبيل «لا أريد أن أطاردك، أن ألحَّ عبثًا»، وكلّها كذب، لأنَّني ظللتُ أكتبُ، وأكتب، عبثًا. وأخصّ بالذكر الرسالة الأخيرة التي لا نهاية لطولها - سُحقًا، أَوجز في رسائلك ـــــ، تلك الرسالة التي ختمتُها بعبارةٍ طنَّانة: «أن أقطع معك أطول الطرق الممكنة»، لقد ظَلَلت أراوح بين الادِّعاء، والإلحاح، والبكاء، والشكوى، وحين أخرجتني من حياتها ظللت أناشدُها النكوصَ.

لستُ عدوَّكَ، ولا منافسك، ولا حتى حليفَك. لكنَّ ماضيَّ في علبةِ الرسائل، وإن كنت لا تريد أن يكون مستقبلك كذلك، فتحرَّك.

إلى اللقاء.

أندري

من: andre.j.vannierâgmail.com إلى: lucie.j.bogaertâgmail.com بتاريخ: 1 يوليو 2021، 08:17

الموضوع: أنت وأنا وأنا وأنت

لوسي،

أكتب لك من بريدي الجديد إلى بريدك الجديد، ما دام البريدان القديمان مشغولَيْن من طرف غيرنا، ومثلك قد أضفتُ حرف j، نسبة إلى شهر juin (يونيو). لمَ علينا نحنُ بالذات أن نتكيَّفَ؟ لا أظنُّ أنَّ ما عشناه أنا وأنت طيلة الأربعة أشهر الأخيرة، يمنح أندري الآخر، ولوسي الأخرى، هذا الامتياز.

لقد صار كلانا الآن يعرف ما وقع «لنا». «أنت» هجرتني، بعدما أرهقَتك شدَّةُ رغبتي وقلَّةُ صبري. لقد قرأتُ هذه الرسائل التي تبادلناها، قرأتُ كلماتٍ كتبَتها لوسي أخرى وهي تبتعد عن أندري آخر، قرأت جُملاً تعرَّفت فيها على نفسي، بكامل ما فيَّ من هشاشةٍ وحُمق.

سأختصر. أن تكوني معي لم يكن يومًا قرارًا عقلانيًّا من طرفك. ومع ذلك، أتيتِ إليَّ. أن أكون معك كان معجزةً، ومع ذلك أضعتُك.

نَذُر أن تلوح لنا فرصة إنقاذ حبٍّ قبل أن يصير مهدَّدًا. أريد أن أُمنحَ فرصةً ثانية قبل أن أخسَر الأولى.

أحبّك. أضمّك، لكنْ ليس بشدَّة.

أندري.

*

Ghost's song

Music & Lyrics:

RealSlimك Femi Taiwo Kaduna & Sam Kehinde Chukwueze Entertainment, 2021

On the sandy Calabar beach Here I dance with a holy ghost

Oh we did not see them comin Because now love is so out of reach

Thats how they burned you in a tyre I loved your skin that was our sin And threw our rainbows in their fire

So many things of you I miss I have remembrance of every kiss

And I sing a gone away ghost O fallen hearts from the abyss

On the sunny Calabar beach

Even love now is out of reach

Of The blowing wind over the dust Hear the barking dogs around us
Come on, let us swim with a last shark my sweet love gone in the dark

So many things of you I miss I have remembrance of every kiss

O fallen hearts from the abyss

As I walk with you lover Tom

On the crying Calabar beach

I want a mist of forgiveness See, even hate is out of reach

To cover the blood and tears But I shall beg for nothing less

I just want some love if you please

But everything of you I miss I have remembrance of every kiss

O fallen hearts from the abyss

To cover the blood and tears

I just want some love

if you please

if you please.

*

هو ذا أراقص شبحًا مقدَّسًا

على شاطئ كالابار الرمليّ

لأنَّ الحبَّ صار اليومَ بعيدَ المنال

أوه، لم نسمَعهم قادمينَ

أحببتُ جلدَك، وكانت تلك خطيئتنا

لذلك أحرقوك في إطار عجلة

ورموا إلى النار بألوان طيفنا

ما زلتُ أذكرُ كلّ قبلةٍ

أشياء شتَّى فيك، أفتقدُها

أيا قلوبًا هوت من أعلى الشفير

وأنا ذا أغني لشبحٍ مضى

على شاطئ كالابار المشمس

حتى الحبُّ صار بعيد المنال

أنصِت إلى الكلاب تنبح

إلى الريح تنفخ في رمالِ

غراميَ العذبِ الذي غارَ في الظلمات

تعال، فلنسبح مع قرشٍ أخير

ما زلتُ أذكرُ كلّ قبلةٍ

أشياء شتَّى فيك، أفتقدُها

أيا قلوبًا هوت من أعلى الشفير

إذ أمشي معك أنت يا حبيبي توم

على شاطئ كالابار الباكي

أنظُر، حتى الكراهية صارت بعيدة المنال

أريد ضبابًا من غفران

لكنَّني لن أتوسَّل

كي أغطِّي الدم والدموعَ

رجاءً، لا أريد غير الحبِّ

ما زلتُ أذكرُ كلّ قبلةٍ

لكنْ أشياء شتَّى فيك، أفتقدُها

أيا قلوبًا هوت من أعلى الشفير

كي أغطِّي الدم والدموعَ

لا أريد غير الحبِّ

رجاءً

رجاءً.

*

الخميس، فاتح يوليو 2021،

منتجع كلايد تولسن، نيويورك

هل تريدين أن تسمعي التسجيلات مرَّةً أخرى يا سيِّدة كليفمان؟

هزَّت أفريل يونيو رأسَها. وأخذت جامي بودلوفسكي تنظر إليها قابعةً في مقعدها، وقد غابَ ذهنُها. اللعبة، الفمُ، الصابون، العالمُ يدور، والكلمات كلّها ترنُ من غير أن تُشكِّلَ معنًى. مدَّت لها عميلةُ الـ أف بي آي كأس ماءٍ، سرعان ما اضطرَّت إلى أن تضعه لفرط ما كانت يداها ترتجفان. أوَّلاً مصيبة الطائرة، ثم هذه المصيبة.

- لقد تركت اختصاصيَّةُ علم نفس الأطفال، ابنتَك تتحدَّث بمفردها، ولم توجِّهها بأيِّ شكلٍ من التوجيه. استقرَّت بينهما الثقة، فشرحت صوفيا كلّ رسمٍ وكشفت السرّ. هل تفهمين؟

أفريل ذاهلة. كلارك، ابنتُه، الحمَّام، كيانُها بأكمله ينكر الصورَ ولا يستطيع استحضار صورةٍ منها.April tender, April shady (أبريل العطاء، أبريل الظلال)، كذلك كانت تقول القصيدة التي انتحلها كلارك. كانت الضابطة تترك في كلِّ مرَّةٍ فسحاتٍ طويلة خلال شرحها، لكنْ ما تلبث أن تستعيد كلّ مرَّةٍ الحديث قائلةً: - سيّدة كليفمان، اسمي جامي. هل أستطيع أن أنادي عليك باسم أبريل؟

قالت أبريل بصوتٍ لا نبرة فيه: - نعم، إنها أنا.

ومجدَّدًا مدَّت جامي الكأس إلى أبريل.

- اشربي يا أبريل.

تطيع أبريل بطريقة آليَّة. April soft, so sleepy warm أبريل العذبة، دافئة جدًّا في نُعاسِها...

- نعم، شكرًا يا سيِّدتي.

قالت جامي: - أبريل... هل تصغين إليَّ؟ ابنتُك لم تتحطَّم. لقد استطاعت أن تتكلَّم. الكلامُ مهمّ، بالغ الأهمِّيَّة. اختصاصيُّو علم النفس المعرفيّ قد تحدَّثوا إليها طويلاً، وأثاروا معها خوفَها من الماء، ومن الظلام، وعلاقتها بجسدها. وهم مطمئنُّون بخصوص النتائج المترتِّبة، على المدى القريب، عمَّا عانته صوفيا. لكنْ بالطبع لا نستطيع أن نضمن شيئًا بخصوص تطوُّر الحالة مستقبلاً. نأمل أن يسير كلّ شيءٍ على ما يرام يا سيِّدة كليفمان.

- ... أن يسير كلّ شيءٍ على ما يرام.

- إليك ما سيحدث: زوجك سيُحاكم، وبالنظر إلى شهادة صوفيًّا، أو صوفيَّتان، من غير أن أبالغ، سوف يُدان. لأنَّ منذ رحلة باريس، وطيلة الثلاثة أشهر... التي غبت عنها... تعرَّضت صوفيًّا، أقصد صوفيًّا الأخرى إلى تحرُّشاتٍ في منزلكم... هل تفهمين؟ في ولاية نيويورك، التي نتبع لها، تعاقَب أمثالُ هذه الجرائم بالسجن من عشر سنواتٍ إلى خمسٍ وعشرين سنة.

- خمس وعشرون. نعم.

- قد تكون السنوات أقلّ، إن قبِل العلاج، والمتابعة، والعزل. ينبغي أن تشرحي الأمر لطفليْك، خاصَّة ليام الذي سيتأجَّج غضبه ضدَّكِ وضدَّ أخته، وحتى ضدَّ نفسه...

- هل... ليام...؟

- كلاَّ. اطمئنِّي. المقابلات قطعت الشكّ باليقين.

مرَّرت أبريل أصابعها على شفتيْها، وحدَّقت في الفراغ، ثم خلَّلت شعرَها بكفَّيْها. أخذت جامي تنظر إليها بتوجُّس، ثم واصلت: - تستطيعين أن تغيِّري الاسم، والولاية؛ وكذلك ستفعل نسختُك. لقد قبِلت عرضَنا. لقد فاوضتُ الجيش، وستحصلين على تقاعد زوجك كما لو كان قد توفِّي في الحرب.

كرَّرت أبريل واهنةً: - توفِّي في الحرب.

كانت تُفكِّر في مهور، شبيهةٍ بتلك التي كانت ترسمها لأمّها. مهور. مهور بلون الدم. تطفو في سماءٍ زرقاء زرقة الفولاذ. الجوّ بارد، شديد البرودة. لا شيء يتحرَّك. صفرٌ مطلق. April

caught in the icy storm أبريل عالقةٌ في العاصفة الجليديَّة.

- ستستفيدين من مساعدةٍ طبِّيَّةٍ ونفسيَّةٍ لكِ ولطفليْك.

لم تجد أبريل الوقت للقيام بأيِّ حركة، عيناها تجحظان من الرعب، الغثيان يستولي عليها، إنَّها موجةٌ سوداء، صفراويَّةٌ، لا يمكن احتواؤها، تريدُ أن تتقيَّأ، لكن حتى التقيُّؤ لا تستطيع.

الكلمة الأخيرة

21 أكتوبر 2021، 13 س 42 د

ثلاث مرَّاتٍ كرَّر الأمرَ ربَّانُ طائرة السوبر هورنت، لكنَّه ليس سوى الحلقة الأخيرة ضمن سلسلة، وما فائدة اليد إن لم تُطع الدماغَ؟

لقد اتُّخذَ القرارُ في القاعة الأشدّ حُرمةً في مبنى البنتاغون، القاعة المسمَّاة «الدبَّابة». إنَّها قاعةٌ محصَّنة، بلا نوافذ، يُطلق عليها رسميًّا اسم «Room 2E924»، ولا تفرق في شيءٍ عن صالة اجتماعاتٍ مبتذلةٍ في شركةٍ، بطاولتها المصنوعة من خشب السنديان المذهَّب، ومقاعدها الجلديَّة الدوَّارة، وديكورها الأزليّ. وعلى الجدار لوحةٌ تصوِّرُ الرئيس لينكلن يعقد اجتماعًا استراتيجيًّا أثناء الحرب الأهليَّة الأميركيَّة. حوله، الفريق يوليسيس غرانت، واللواء وليام تيكومسيه شيرمان، والأدميرال ديڤيد ديكسن بورتر. جميع أولئك الجنود المدجَّجين بالرتب في اللوحة، كانوا شهودًا عل القرار الأكثر سرِّيَّة في تاريخ القرارات التي اتَّخذها رؤساء أركان مختلف الجيوش الأميركيَّة، قرارٌ طال فيه الجدل، وحرص الرئيس على أن تكون له فيه الكلمة الفصل.

الصاروخ ينفصل عن جناح الطائرة المقاتلة التي ترتفع جهة الشمال - الغربيّ. وعلى الفور، ينطلق صاروخ AIM 120، فيبلغ في ثوانٍ سرعتَه القصوى، تاركًا خلفه خيط دخانٍ رماديًّا مستقيمًا. الشمس تنعكس على إطاره الفولاذيّ، إنَّه الموت برَّاقًا. وعند العدد ماخ 4 لم يعد يفصل بينه وبين هدفه سوى خمس عشرة ثانية.

في باريس، قبالة حدائق لوكسمبورغ، ڤيكتور وآن يشربان قهوةً أخيرة في شرفة مقهى، قبل أن يذهبا لتناول العشاء. إنَّها نهاية أكتوبر، لكنَّ الصيف ما يزال ممتدًّا. صيفٌ هنديٌّ كما يُقال. ترفع آن عينها إلى ڤيكتور، وتبتسم له. لم يسبق للكاتب قطّ أن شعر بنفسه حيًّا بهذا القدر، كأنَّما موت

ڤيكتور الآخر حوَّل وجودَه إلى وجودٍ ضبابيٍّ زائلٍ، وثمينٍ في الآن نفسه. على الطاولة، وضع قطعتي ليغو، كأنَّهما قطعتا سكَّر حمراوان قانيتان. يركِّبهما، ويفكِّكهما، بطريقةٍ آليَّة.

يقول الجامعة: باطل الأباطيل،

كلّ شيءٍ باطل.

كتب ڤيكتور للتوّ الكلمة الأخيرة في كتابه القصير الذي يحكي قصَّة الطائرة، والخلل، والتفرُّع. فكَّر في عنوانٍ للكتاب لو أنَّ مئتيْن وثلاثة وأربعين مسافرًا في ليلة شتاء - وهزَّت آن رأسَها - ثم أراد أن يجعل من العنوان استهلالاً للكتاب، فتنهَّدت آن. استقرَّ الرأي في نهاية المطاف على اختيار عنوانٍ موجزٍ، كلمةٍ واحدة. للأسف عنوان الخلل لم يعد متاحًا. لم يحاول ميزل في كتابه أن يفسِّر، إنَّما قدَّم شهادةً ببساطة. لم يستبقِ من الركَّاب سوى أحد عشر، ثم وقف على أنَّ أحد عشر أصلاً كثير. توسَّلت ناشرته إليه، ڤيكتور سوف تفقد قرَّاءَك، العمل شديد التعقيد، حاوِل التبسيط، هذِّب العبارات، اقصُد الجوهريَّ مباشرةً. لكنَّ ميزل مصرٌّ على رأيه. باشر روايته بمعارضةٍ على ميكي سبيلان، معارضةٍ على تلك الشخصيَّة التي لا أحد يعلم عنها شيئًا يُذكر. عاتبته كليمانس: كلاَّ، كلاَّ هذا ليس أدبيًّا بما يكفي لفصلٍ أوَّل، متى ستكفّ عن التلاعب؟ لكنَّ ڤيكتور ما انفكَّ يزداد تلاعبًا.

على بعد ألف كيلومترٍ من هناك، في مستشفى مونت سيناي، جفَّت دموع جودي ماركل، فأغمضت عينيْها. لقد فقدت داڤيد مرَّتيْن. منذ أربعة أيَّامٍ وهو خاضعٌ لتخديرٍ عميق، ما دام حتى النانو - دواء الفرنسيّ لم يخفِّف آلامه. يقف بول إلى جانب أخيه مهزولاً صامتًا. أخرجه من شروده صوت زجاجٍ ينكسر، باعد قليلاً بين الأستار، ومال ينظر من خلالها إلى الباحة: في المرآب رجلان يتشاتمان حول ضوء سيَّارةٍ كُسر، بينما في الغرفة، انتظم الخطّ على آلة قياس نبضات القلب واستوى، وصارت رنَّته الباهتة طنينًا متواصلاً.

في لاغوس، انتهى حفل سْلِيم - مِن SlimMen مع هبوط الليل المداريّ. وعند نهاية الحفل، مع الأغنية الأخيرة، صعد إلى المنصَّة ضيفٌ مفاجأةٌ، رجلٌ قصيرٌ أشقر يرتدي بذلةً ورديَّةً مرصَّعةً بالترتر، ويضع نظَّارةً كبيرةً مذهَّبةً برَّاقة، فاستقبَلَه التصفيقُ والهتاف. وأزيد من ثلاثة آلاف شابٍّ نيجيريّ ردَّدوا مع المغنِّين اللازمة التي يعرفون جميعًا رسالتَها الخفيَّة: I want a

To cover the blood and But I shall beg for nothing less mist of forgiveness I just want some love if you please tears برزت بطنُ جوانا مارس، وقد تلد قبل الأوان. إنَّها حامل بصبيَّةٍ، وسوف تسمِّيها شانا، على اسم أميرةٍ يابانيَّة منسيَّة، وكذلك بمعنى «سنة» بالعبريَّة. لديها الوقت للاستمتاع، إذ إنَّ قضيَّة فالدو لن تتمّ. فقد توصَّلت الشركة إلى اتِّفاقٍ مع المشتكِيات، وسُحب الهيبتاكلوران من السوق. ولم تذهب إلى اجتماع دولدر، حيث نوقش موضوع الخلود، ثم صار الحديثُ أثناء العشاء إلى الأماكن التي ما زالت على الكوكب في منأى من الاحتباس الحراريّ وموجات الهجرة. اشترى بريور مائة هكتارٍ في نيوزلندا.

ودَّ آبي لو يواصل التراسل مع جوانا يونيو، ولو في خليطٍ موحلٍ من الاضطراب والإحساس بالذنب، لكنَّها صرمت حبلَ الوصل. ربَّما تواصله لاحقًا. ثم إنَّها التقت بشخصٍ ممَّن يعملون معها في المكتب، مختصٍّ في قضايا تهريب الآثار الفنِّيَّة. هو يظنُّ مشاعره جدِّيَّة، وهي تشكّ في مشاعرها، لكنَّها تريد أن تعتقد في ذلك.

في الطبقة الجليديَّة، غرب أنتاركتيكا، إنَّها بداية الربيع، وبوسع جبل ثويتس الجليديّ، نقصدُ قطعةَ الجليد التي يبلغ سمكُها كيلومتريْن، وحجمُها حجمَ ولاية فلوريدا، قلنا بوسعه أن ينفصل خلال ثلاثة أشهر، فيرتفع مستوى الماء بما يفوق مترًا، لكنَّ صوفيًّا و ليام، وأمّهُما قد تركوا المنزل الذي غمرته المياه على شاطئ هوارد. آل يونيو استقرُّوا في آكرون، قريبًا من كليفلاند، بينما استقرَّ آل مارس في لويزفيل. وفى الـ أف بي آي والجيش بوعدهما، وقبلت الأسرتان بألاَّ تحاولا قطّ الاتِّصال ببعضهما بعضًا. لديهما قاسمٌ مشترك، كلارك، لكنَّ الحكم الصادر في حقِّه يتضمَّن استبعاد أيّ اتِّصالٍ لاحقٍ بأسرته. وشيئًا فشيئًا، خمد الغضب لدى ليام يونيو وليام مارس.

بْلِيك مخطئٌ في قلقه. لم يعد المكتب الفدراليّ يبحث عنه. انطلاقًا من الصورتيْن المبهمتيْن اللتين التقطتهما كاميرا الجمارك في مطار كينيدي، للرجل الذي قد يكون هو راكب المقعد E 30، حدَّدت وكالة الأمن القوميّ بتقنيَّة التعرُّف الوجهيَّة 278 049 1 وجهًا على شبكات التواصل. ومن ضمن ذاك المليون ونيف من الوجوه، 1 553 وجهًا هي لأشخاص التقطتهم كاميرات المراقبة في مطارٍ من مطارات الساحل الشرقيّ، ولكنَّ ذلك ليس دليلاً؛ 4 482 وجهًا آخر لا توافق أيّ شخصٍ معيَّن، وليست تظهر إلاَّ في الصور، وأحيانًا في الخلفيَّة. قطعًا إنَّ للرجل نسخةً، لكنْ من الواضح أنَّه حريصٌ على السرّيَّة. ثم ما الذي يمكن أن يفعله أكثر من كسر باب حظيرةٍ وسرقة سيَّارة؟

وضع أندري مارس قطعة سيراميك زرقاء على منضدة المطبخ في منزله الجديد بمونجو. مستهلّ أغسطس، التقى في معبد القرية بعازفة كونترباص تسكن قريةً مجاورةً؛ وكان مستعدًّا. امرأةٌ طويلة، شعرها غامقٌ جدًّا، وعيناها زرقاوان عميقتان، امرأةٌ تضحكُ، ولا تكفُّ عن التدخين. أحيانًا ترتدي وزرةً واسعةً تبهجُ فتحاتُها يديْ أندري، ومعها يكتشف مباهج الدرَّاجة الكهربائيَّة. هذا الصباح، بعد أن ضاجعها، عادت للنوم في الغرفة، وبينما هو يمدّ مائدة الفطور اتَّصلت به لوسي مارس، لا لشيءٍ سوى متعة الحديث إليه. تقول إنَّها تشتغل «كثيرًا، كثيرًا، كثيرًا»، لكنَّها بدأت ترتاح، وصارت تتحمَّل الإيقاع الذي استقرَّ بينها وبين لوسي يونيو على حضانة لوي الذي تسير أموره على ما يرام «على ما يرام بشكلٍ يدفع إلى الدهشة».

الصبيّ ليس مستاءً من كون أمّه «الأخرى»، جوانا يونيو، حامل. وقد انزاح مركز الثقل في حياة هذه منذ بضعة أشهر، حتى إنَّ التفكير في المستحيل صار واردًا. سألها أندري يونيو، وفي نفسه من القلق قدر ما فيها من الفرح: هل أنت متأكِّدة؟ أجل، إنَّها كذلك. إنَّ حملَها نقطةُ توازنٍ جديدة، وسبيلٌ للانتقام من هذا المصير. لم تعاود الاتِّصال برافييل، ولا حلّ محلَّه أيُّ عاشقٍ عابر.

أدريان وميريديث في البندقيَّة، إيطاليا، أوروبا. حبيسَا فندق أكوا ألتا، لكنَّ هذا الحَجْر الموقَّت ليس بالمأساويّ حقًّا. غرفتهم المشمسة تطلّ على الفوندامنتا دِل باسمنتو، وخدمة الغرف لا تشوبها شائبة - مدير الفندق يرى أنَّ أدريان يذكِّره بممثِّلٍ أميركيّ، لكن أيُّ ممثِّل؟ - والقميص الذي نقَص بياضُه وصفاؤُه، القميصُ الذي أخذه تذكارًا من البيت الأبيض، ملقًى على الأرض، يكسوه فستانٌ أسود. يتحدَّثان بصوتٍ خفيضٍ تحت هرمٍ صنعاه من أغطية سريرهما، مختبئَيْن، لكنَ ضحكة ميريديث الصافية تشي بهما.

شهر سبتمبر، أنهت وزارة الدفاع العمل بالبروتوكول 42، لكي تركِّز في العمليَّة هرمس. وقد امتدَّت تأمُّلات أعضاء فريق العمل وجدالاتهم طيلةَ شهور الصيف، من غير أن يتمكَّن أحدهم من تأكيد هذه النظريَّة أو دحض تلك. وكذلك لم يعلم الأميركيُّون بخبر تلك الطائرة الأخرى التي احتجزها الصينيُّون. ولم يعلم أحدٌ بمصير ركَّابها.

جامي بودلوفسكي تشرب دراي مارتيني في إحدى بارات كوانتيكو، بعد حصَّة تكوين أخيرة. وكانت أوَّل أمس قد أجازت خطَّةَ الحماية الأخيرةَ لركَّاب الطائرة 006، وحصلت على

انتقالٍ إلى الساحل الشرقيّ، في سان فرنسيسكو، حيث ستشغل ابتداءً من الأسبوع المقبل منصب مديرة المكتب الإقليميّ، والمكاتب السبعة التابعة له. وإن سُئلت عمَّا تفكِّر فيه اللحظة، فلن تزيد عن القول إنَّها تريد طلب كأسٍ أخرى من الدراي مارتيني.

الكاميرا الجانبيَّة، تحت الجناح الأيسر لطائرة سوبر هورنت تتبع مسار القذيفة AIM 120، وفي صالة القيادة، في قبو البيت الأبيض، يتابع رئيس الولايات المتَّحدة الأميركيَّة ما يجري، مقطَّب الحاجبيْن، شادًّا قبضتيْه. نعم، كان قرارًا صعبًا وقد اتَّخذتُه بمفردي، لأنَّ دوري أن أتَّخذ قراراتٍ منفردًا. حين علم الرئيسُ بأنَّ طائرةً أخرى لرحلة الخطوط الفرنسيَّة 006، قد انبثقت في الفضاء، يقودها الربَّان ماركل نفسه، ويساعده فوافرو نفسه، وعلى متنها الركَّاب أنفُسهم، أعطى أوامرَه بأنْ تدمَّرَ المركبَة. لا يمكن، بأيِّ حالٍ، ترك هذه الطائرة تحطّ مرَّةً بعد أخرى.

قال ڤيكتور، لنتناول قهوةً إن شئتِ؟ سحب إليه آن، داعب أصابعَها النديَّة، قبَّلها برقَّة على شفتيْها اللتين فرجتهُما قليلاً، وكانت أنفاسُها تحمل رائحة السجائر والمنثول. وتلك هي اللحظةُ التي وقعت فيها الواقعة. بدأ الأمر بهبَّة ريح، دوَّامةٌ عابرةٌ من الأوراق الميِّتة على الأرض. عمَّت الأجواء نوتةٌ، شديدة الخفوت، كأنَّها نوتة فا أطلقتها أوتار كونترباص. الهواء يهتزّ، والسماء تصير أصفى دون أن تبلغ غاية الصفاء. سيِّدةٌ أنيقةُ الملبس تجرُّ خلفَها حقيبةً، رجلٌ يرتدي لباسًا من نسيج الغبردين يسحب معه كلبًا أسودَ كبيرًا، صبيَّةٌ على درَّاجةٍ هوائيَّة تمرُّ من أمامهم، تتوقَّف، تنظرُ إلى هاتفها وتبتسم. إنَّها لحظة سكينةٍ وهدوء.

لم يعد يفصل القذيفةَ عن طائرة الخطوط الفرنسيَّة 006 سوى ثانية، والزمان يتمطَّى، يتمطَّى قبل الانفجار.

من الصعب كتابة ما يجري، لا تملك اللغةُ كلمةً مناسبةً تمامَ المناسبة لوصف ذاك الاهتزاز البطيء الذي يستولي على العالم، تلك النبضة المتناهية الصغر التي تمسُّ في لحظةٍ واحدةٍ، وفي كلِّ نقطةٍ على الكوكب، كلّ شيء، من القطِّ الذي يغفو بجانب المدفأة في ذلك الشاليه بأركانساس إلى الأوزَّة الرماديَّة التي تعبر السماء فوق مدينة بوردو، ومن شلاَّلات زامبيزي إلى ثلوج أنابورنا ناصعة البياض، ومن جسر ريالتو على القناة الكبيرة في البندقيَّة إلى حيّ الصفيح الهائل في

دهارافي، ومن المنشفة المتَّسخة الموضوعة على حاشيةِ حوضٍ في مونجو إلى إطار العجلة البالي المثقوب الملقى به في باحة مرآبٍ في مومباي، من قطّ تـ اللـ ـغو الـ مر ويـ

في جيـ كتـ ر ميـ زل لى لبنـ ت صـ معـ سـ ن في ر اط،

و

مـ البـ لـ ان إ بـ بـ، تهـ زّ الر و والسـ لا،

و نـ ض ا ذّر ت، وتشـ دُّ

الهسـ سـ، وتـ ر ص

المعلّقات،

رملٌ ناعمٌ،

لا داية

له ولا

نهايـ

Notes

[1←]
يفضّل ليفناس استعمال «الصديقيّة» بدل «القداسة» هروبًا ممّا يطبع هذا المفهوم الأخير في الكهنوت المسيحي. أمّا في دائرة الإسلام، فإنّ هذا الموضوع قد أُشبع بحثًا، فحجّة الإسلام الغزالي، العمدة العقديّة والمذهبيّة في الدولة السلجوقيّة السنيّة حامية الخلافة العبّاسيّة كان يواجه باطنيّة الإسماعيليين، ولهذا جعل أعلى مرتبة في الولاية هي الصديقيّة هربًا ممّا يدَّعونه في ذوي القربى من آل البيت، فقال «من تخطّى رقاب الصدّيقين وقع في النبوّة». بينما قال ابنُ العربي الحاتمي أن لا رجلَ بين أبي بكر الصدّيق والنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هناك مقام بين الصديقيّة والنبوّة هو مقام القربة. وبذلك جمع بين ما يجب لأبي بكر الصدّيق من التعظيم، وما يجب لذوي القربى من آل البيت، وعلى رأسهم سيّدنا علي كرَّم الله وجهه من الحرمة. وقد أشار إلى هذا المبحث نفسه ابن طفيل في كتابه «حيّ بن يقظان»، وابن سبعين في مذهبه حول الرجال الخمسة.

[2←]
الاسم الرسمي للخلافة العثمانيّة هو :الدولة العليّة العثمانيّة.

[3←]
الباب العالي: نظام أتت به حركة التنظيمات بديلاً من نظام الديوان كجهاز لإدارة الدولة. ويتقاسم الحكم فيه السلطان والصدر الأعظم والوزراء وشيخ الإسلام. وقد دفع هذا النظام بمشيخة الإسلام إلى درجة ثانويّة وشلَّ عملها. أمّا في نظام الديوان الذي كان أساسَ الحكم العثماني قبل التنظيمات، فيستند إلى ثلاث دعامات: السلطنة، الخلافة، ومشيخة الإسلام. فكان الديوان يأتمر بأوامر السلطان الخليفة، وتقوم مشيخة الإسلام بدور الشورى له.

[4←]
هكذا هي التسمية الرسميّة لسلطان المغرب في القنصليّات الغربيّة ووسائل الإعلام الغربيّة في تلك الفترة.

[5←]
autant que les Grâces, pas plus que les muses.

[6←]
ترجمة العبارة بالفرنسيّة: على عدد ربّات الجمال، ولا أكثر من ربّات الفنّ...

[7←]
منطقة الكوت دور هي إحدى مناطق جهة البورغون المعروفة بخمورها الرفيعة والعريقة في شرق فرنسا. وقد اختير لهذه المنطقة اسم غير جغرافي على عكس سائر المناطق هو «كوت دور» أي تلّة الذهب، إشارة إلى اللون الذي تنصبغ به = أوراق الكرم الذهبيّة في فصل الخريف. وقد ألهمت هذه التسمية أحد الأدباء، فأطلق على الشريط المتوسّطي في فرنسا كوت دازير، أي التلال الزرقاء، المشهورة عالميًّا بشواطئها.

[8←]
بروسبرين هي ربّة الفصول عند الرومان، وتقابل برسيفون عند اليونان التي تمضي ستّة أشهر في الجنّة مع أمّها (فصلي الربيع والصيف) وستّة أشهر في جهنّم (فصلي الخريف والشتاء) مع زوجها بلوتن إلٰه النيران الذي اختطفها.

[9←]
حراملك: كلمة تركيّة مأخوذة من الكلمة العربية «حرام» بإضافة اللاصقة التركية «لِكْ» في آخر الكلمة، والتي تفيد المكان. فهو المكان المحرّم دخوله على الأجانب. كما أنّ السَّلاملِك هو الجناح التي يستقبل فيه السلطان الوفود للسلام عليه. وهناك حاجز بين الحراملك والسلاملك، ويقوم الآغوات وهم الخصيان بحراسة المجالين.

[10←]
ومع ذلك هي تدور العبارة المنسوبة الى العالم الايطالي غاليليو غاليلي، إشارة إلى إصراره على دوران الأرض.

[11←]
إنّ كلمة «أُوظَة» في عامِيّة بعض الدول العربيّة مأخوذة من الكلمة التركية «أوظة أي الغرفة». وخادمة هذه الغرفة تسمّى في الحريم العثماني «أودالیك». وقد دخلت الكلمة إلى معجم اللغات الأوروبيّة وأصبحت إحدى الشخصيّات البارزة في مدرسة الفنّ الأوروبي المعروف باسم التيّار الشرقي Orientalisme، حيث نجد لوحات مشهورة لماني وماتيس وغيرهما تصوّر الأودالیسك في أوضاع عارية غير محتشمة.

[12←]
وصلتْ إلى المغرب في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مجموعة من النساء الشركسيّات، تزوّج من بعضهنّ السلطان الحسن الأوّل (1873 ـــ 1894)، مثل للآرقية التي أنجبت له السلطان مولاي عبد العزيز (1894 ـــ 1908)، وللاّ آمنة التي أنجبت له السلطان مولاي يوسف (1912 ـــ 1927)، والد الملك محمّد الخامس (1927 ـــ 1961) وجد الملك الحسن الثاني (1961 ـــ 1999). ومن بين النساء الشركسيّات الأخريات في عهد الحسن الأوّل: للاّ خديجة، وللاّ نُضار وللاّ فَخِيتَة. ونظرًا لأنّه كان من عادة سلاطين آل عثمان الزواج بالشركسيّات دون غيرهنّ، فقد أرسل السلطان عبد الحميد الثاني هذه الهديّة تقديرًا للسلطان مولاي الحسن الأوّل ومكانته.

[13←]
عرش وعاصمة آل عثمان.

[14←]
الخليفة عبد المجيد الثاني هو آخر الخلفاء العثمانيّين.